نـاتسـومـي سوسيــكي

قلوب النّاس المعذّبة

ترجمـة: علي باشـا

منشورات وزارة الثقافة

دمشق - ١٩٩٣

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العنـوان الأصلي للكتـاب :

"KOKORO"

أو

LE PAUVER COEUR DES HOMMES

Pour: Natsoumi Sousiki لمـؤلفـه:

قلوب الناس المعذبة = Kokoro / ناتسومي سوسيكي ؛
ترجمة علي باشا . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٣ . ـ
٤٠٦ ص ؛ ٢٤ سم . ـ (روايات عالمية ؛ ٤٠) .

١ ـ ٨٩٥٫٦ ن ا ت ق ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ ناتسومي سوسيكي ٥ ـ باشا ٦ ـ السلسلة

مكتبـة الأسـد

الايـداع القانوني : ع ـ ١١٨٠ /١١/١٩٩٣

تنويه من المترجمين

بناء على طلب المعهد الدولي للتعاون الفكري، طلبت الوزارة الأمبراطورية للشؤون الخارجية من نادي «لوبان» في اليابان أن يبحث، في تيّار الأدب الياباني المعاصر عن الرواية الأكثر جدارة بأن تنشر مترجمة، تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة. وبالاجماع، اختارت اللجنة التي عينها مجلس ادارة نادي «لوبان» الياباني، رواية «كوكورو» لناتسومي سوسيكي، وبعد أن عينت المترجمين، كلّفت «تانيكاوا تيتسوزو» بتقديم المؤلف بمقدمة قصيرة. وفي نفس الوقت، طلب «شيمازاكي توسون» رئيس النادي، شخصياً من المترجمين أن ينقلوا بكل أمانة، إلى اللغة الفرنسية الوديعة اليابانية التي عهد بها إليهما. وهذا الوعد، قطعه المترجمان على نفسيهما، وبكل اخلاص، يعتبران أنهما قد برآ به.

لقد كانت المسؤولية جسيمة. ففي مجموعة روائيي عصر «الميجي»، يعتبر «سوسيكي» الروح الشرقية الأكثر عمقاً، والأصعب ترجمة. بل ربما لم يكن يوجد بين مؤلفات «سوسيكي» أي عمل يتضمن من الصعوبات بقدر ماتتضمن رواية «كوكورو» هذه، التي كتبها المؤلف قبل موته بوقت قصير، والتي تتجاور فيها على الدوام أبسط التعابير العادية مع التعابير العميقة والمكثفة الشديدة الغموض. وقد تمت الترجمة عن النص الوارد في «مؤلفات ناتسومي سوسيكي الكاملة»، التي أصدرتها في طوكيو، شركة نشر مؤلفات ناتسومي سوسيكي الكاملة، التي مقرها في مكتبة «ايوانامي»، الجزء السادس، ١٥ أيار ١٩٢٠، وقد تطلبت الترجمة عاماً كاملاً من العمل اليومي المشترك!. نوعية ومستوى الكلمات ترتيبها وقوتها، حركة سرد القصة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والحوارات، دقة حسية للصور، أعماق قاسية لفكر بوذي تماماً، كل شيء روعي باحترام في هذه الترجمة، التي تمت بكل دقة واهتمام، وانجزت وكأنها الظل نفسه، أو «النسخة الثانية» للنص الأصلي.

ان الطابع الرسمي لنشر هذا الكتاب، ومقدمة «تانيكاوا تيتسوزو» القيمة يعفيان المترجمين من أن يقيِّما هنا »كوكورو» سوزوكي. ويكفيهما أن يشيرا إلى أنه إذا كانت هذه الرواية تشكل، بالتأكيد، وثيقة خاصة ذات قيمة استثنائية، فهي على الأقل زاوية يلتقي فيها الطابع الانساني مع الطابع العالمي. و«كوكورو» هي مأساة التكفير: وكان المترجمان يودان أن يكتبا بدلاً من ذلك: «مأساة الجبرية» - أوالقدر المحتوم. (اليونانية، البوذية) الخطيئة الأساسية والأزلية، حسب العقيدة المسيحية،التي ارتكبها (آدم) أبو البشر، والتي يحمل عبئها وتبعتها الجميع. وهذا هو سبب الشقاء الذي لايجدي فيه علاج في الوضع البشري. ولهذا فإن المترجمين، عندما أمعنا التفكير بعنوان «كوكورو» هذا، الذي أطلقه «سوسيكي» على روايته، وكان لهما الخيار بين «القلب البشري» و«قلب»، و«قلبنا» توقفا عند ترجمة رابعة، هي: «قلب الناس الفقير» أو «قلوب الناس المعذبة».

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مزيجاً من هذا الأدب وذاك، تؤثر بسهولة ودفعة واحدة على عالم القرّاء. ومع كل ذلك، إذا كان «سوسيكي» قد أثّر في اليابان بكاملها، فإن ذلك لايعني، وهو بعيد عن أن يكون قد بلغ العالمية الشاملة التي بلغها سادة الرواية الغربية. وأنا لاأستطيع ، وبكل صدق، أن أجعل من «سوسيكي» رائداً من رواد الرواية، بالمعنى المطلق للكلمة. ولكني أود، في هذا المجال نفسه، أن أحاول تحديد أصالته اليابانية بشكل خاص.

كثيراً ماكان يتم التركيز على المعرفة الغربية التي يتمتع بها «سوسيكي»، وأنا أعلم جيداً أن «سوسيكي»، وهو المختص بالأدب الانكليزي، كان عليه، حتى سن الأربعين، أن يعمل كمدرس كي يكسب عيشه، وأنّه شغل كرسي اللغة الانكليزية في جامعة طوكيو، وأن دروسه التي نشرت حينذاك، تثبت أنه يتمتع بمزايا باهرة في طريقة العرض، وأن طلابه في ذلك الحين كانوا يكنون له تقديراً فكرياً اجماعياً، وأنه حتى النجاح المدوي الذي حظيت به روايته «أنا هر»، التي أكدت موهبته كروائي، كان كل ذلك الماضي يدل على تأثير الثقافة الانكليزية: إذ أن «سوسيكي» كان قد قرأ الكتاب العصريين الفرنسيين، الألمان والروس. ولكن ليس في مختلف هذه التأثيرات الغربية يمكننا أن نجد الأساس لمستوحيات «سوسيكي».

فثقافة «سوسيكي» الأساسية هي ثقافة شرقية. فهو مثل كل شباب عصره، كان يتحلى بثقافة يابانية صينية متينة، وكان يجيد نظم القصائد الصينية. ثقافة صينية: وثقافة يابانية أيضاً على وجه الخصوص. فعلى خطى رفيقه في الدراسة «مازاوكا شيكي» المجدد العبقري للقصيدة اليابانية القصيرة في عصر «ميجي» الحديث (١٨٦٨ ومابعد)، كان «سوسيكي»، وحتى قبل أن يحاول كتابة الرواية، يمارس بمهارة نظم القصائد القصيرة. وباختصار، فإلى هذه الثقافة الشرقية، ذات الجذور المغروسة في أعماقه، وليس لمعرفته بالغرب، انما يدين «سوسيكي»

بأصالته كروائي. ولكن بماذا، على وجه التحديد، دمغت هذه الثقافة الشرقية «سوسيكي» وأثرت فيه؟

فمنذ أبعد جذورها، هنالك في تقاليد الثقافةالشرقية، ميل شديد للهروب من الاضطرابات المبتذلة الكائنة في الحياة الاجتماعية والبحث عن ملجأ في أحضان الطبيعةالهادئة. وبالكلمة اليابانية: «بونجن»، أي متعلم، تظل عالقة رائحة النسك. فيقال: «العيش بتوافق مع الزهرة، مع العصفور، مع الرياح ومع القمر.» ويقال أيضاً: «الريح والتيار.» وهذه الكلمة المزدوجة تتضمن كما يقال، كل جمالية شرقنا الأقصى. وهذا هو الاتجاه الأول لدي «سوسيكي»، الذي يعبر عن نفسه لديه ليس بشكل بسيط وشعبي، ولكن بجوهره الأكثر عمقاً. وهذه الجمالية، نستطيع أن ندرك بدون مشقة كم تظل عبارة النثر الغربي الحديث بعيدة عنها إلى الأبد. وربما كان من الممكن أن تعزل نهائياً «سوسيكي» عن بقية العالم، لو لم يكن لديه ميل آخر، وهو ميل انساني لاتحده حدود، يجعل في بعض الأوقات، من الناسك ـ المتعلم، روائياً، بالمعنى الغربي للكلمة. ومدى تأثير وانتشار مؤلفات «سوسيكي» شاهد عل ذلك. ومع ذلك، فهنالك تناقض يصعب تفسيره، وهو أن النجاح نفسه الذي لقيته رواياته الأكثر انسانية لم يستطع أبداً أن يزحزح «سوسيكي» عن موقعه الذي يتصف بنوع من العلو، والذي ينظر منه الناسك الكائن فيه إلى الجنس البشري. تلك هي الحركة المزدوجة التي لم يستطيع «سوسيكي أبداً أن يمنع نفسه من التأرجح بينها.

وهكذا يصبح واضحاً دفعة واحدة، أن «سوسيكي» كروائي، لم يبلغ إبداً ذروة القوة التي بلغها أقطاب الرواية الغربية الكبار، وأنه مع ذلك مازال، حتى أيامنا هذه، وكما كان دائماً، عزيزاً علينا، نحن اليابانيين.

«كوكورو»، أو (قلب الناس الفقير) التي نشرت عام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٩١٤، هي رواية من النوع البسيكولوجي. وفي آخر الرواية تقريباً، توجد هذه الجملة: «الشيء الوحيد العميق الذي شعرت به في هذا العالم، هي الخطيئة التي يحمل وزرها الانسان.» وعندما يشعر أي انسان بعمق بالخطيئة التي تدمغ الانسان، فانه ينزوي في سجن الوحدة، وبعد قليل، يقتل نفسه. تلك هي، قصة وفكرا، خيوط حبكة «كوكورو». فالشخصية الرئيسية في الرواية، وقد خانها المقربون منها، تبدأ بأن تخلع عنها بنفسها التقدير الذي كانت تنظر به إلى عالم بني البشر. ولكنها، يصل بها الأمر، شيئاً فشيئاً إلى أن تخون هي نفسها أفضل أصدقائها: عندئذ تخلع عن نفسها أيضاً التقدير الذي كانت تنظر به إلى نفسها. وخطيئة الانسان تقع عليها.

ويبدو الكتاب بسيطاً في تأليفه، فقد قسّم إلى ثلاثة أجزاء. و(الأنا) فيه، أو الراوي، هو طالب، يلتقي بالشخص الذي سيدعوه منذ ذلك الحين فصاعداً بـ (المعلم) والذي يأخذ سحره الغريب يجذبه إليه يوماً بعد يوم. وعلى طريقة بطل الرواية البوليسية تقريباً، يحاول الطالب اكتشاف سر (المعلم): وهكذا يسير القاريء، خطوة فخطوة، حتى يبلغ قلب الحبكة. هذا مايتكون منه الجزء الأول. ويشكل الجزء الثاني نوعا من الاستطراد، يكاد يكون خروجاً عن الموضوع: فالطالب وقد عاد إلى المنطقة التي نشأ فيها ينهمك في العناية بوالده المشرف على الموت. والجزء الرئيسي في الرواية هو الجزء الثالث. فالمعلم، قبل أن يقتل نفسه، كتب للطالب، وله وحده، وصيته الأخلاقية، بل اعترافاته. وفي نفس الوقت الذي تحل فيه هذه الاعترافات كل الألغاز، فانها تجعل من ذلك النوع من الضرورة أوالاكراه، الذي دفع بالمعلم، شيئاً فشيئاً، إلى الانتحار، أمراً ملموساً.

وأخشى أن يكون في هذه الرواية الطويلة المتضمنة للتحليل، حالات نفسية من الممكن أن تحيّر القاريء الغربي.

لأنها أصبحت يصعب فهمها على الشباب في اليابان الحديثة. لماذا، مثلاً، لم يعترف المعلم لزوجته، التي هي في الأساس سبب المأساة، بأنه قد خانِ من أجلها أعز أصدقائه؟ يقول المعلم: كان ذلك خوفاً من أن يسيء إلى أبسط أفكار زوجته ولو بتأنيب واحد من ضميرها. ولكن أليس هذا الصمت المطبق الذي أصرّ عليه المعلم أكثر مما ينبغي هو بالضبط الذي سبّب شقاءه وشقاء زوجته أيضاً وأدّى بذلك إلى حدوث المأساة؟ مأساة، كان برأيي من الممكن تجنبها، والبطل يصر على عدم تجنبها. وهنا دون شك تكمن نقطة الضعف في الرواية. ومع ذلك، فإن هذا الموقف الذي يبدو غير قابل للتفسير، ربما بقي علينا أن نفسره اعتماداً على القانون الأخلاقي الياباني القديم: انه موقف كله صلابة وصمت.

كما أن هنالك على صعيد الأخلاق، بعض الحوادث والمشاهد التي تعود إلى أواخر عصر « الميجي » سوف تعطي للقاريء الغربي انطباع الاستغراب: حياة الطلاب، علاقات الرجال بالنساء، الصلات العائلية لدى سكان الريف. وهي مع ذلك اللوحات التي تشكل الخلفية الطبيعية جداً للرواية، وتظل، حتى بالنسبة للعيون الأجنبية، نقطة علاّم قيّمة في التاريخ المتغير لليابان الحديثة.

ملاحظة أخيرة. عندما تلقى الطالب وصية المعلم، ترك والده على سرير الموت وذهب مسرعاً، ولكن بعد فوات الأوان، نحوالمعلم. أن يستطيع ابن أن يفضل أباً روحياً، على أبيه الحقيقي، فهذا تماماً، بمعنى من المعاني، تمرد للفكر الفردي ضد الفكر الاجتماعي الذي وضعت أسسه بشكل مسبق. فهل يعني ذلك أن سوسيكي كان يؤيد النظام الجديد ويقف ضد النظام القديم؟ اني لاأعتقد ذلك. فلم يكن لدى سوسيكي شيء من روح التمرد. وإذا بدا هناك بعض التناقض، فهو يعود إلى التعقيد المتحرك في المادة نفسها للرواية أكثر منه لالتزام الروائي برأي معين دون آخر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والحكمة ليست هنا في تسقّط تناقضات العمل من وجهة نظر منطق جامد، بل في قبول هذا العمل بمجمله، كما هو ولما كتب من أجله: أي كصدى لهذه الحياة الحقيقية، التي تظل على الدوام، بالنسبة لكل بني البشر، حبلى بالصدمات وبالمفاجآت. وبذلك أيضاً، ربما كانت رواية «كوكورو لسوسيكي» تستطيع بلوغ المستوى الإنساني، وأن يجري تذوقها وتقديرها عالمياً أكثر مما أجرؤ أن آمله لها أنا بالذات.

* * *

(...) كان ظل مخيف يخترق أحياناً قلبي، وكأنه سهم أسود. (...) هذا الظل، كان الخطيئة التي يتحملها الانسان. الشيء الوحيد العميق الذي شعرت به في هذا العالم، هو الخطيئة التي يرزح تحتها الانسان. وهذا الشعور (...) هو الذي كان يجعلني أتمنى أن يجلدني بالسوط في الشارع كل من المجهولين الذين كنت أمرّ بهم هناك. ،أن أصعد درجة فدرجة سلّم هذا التكفير عن الخطيئة، هذا الشعورنفسه هو الذي كان يدفعني، وأنا غير مكتف بطلب سوط الآخرين، إلى الرغبة بأن أجلد نفسي بنفسي. بل إلى أكثر أيضاً من الرغبة بجلد نفسي بنفسي، إلى الرغبة بتدمير نفسي بنفسي.

(ن . س .)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجزء الأول

المعلــــم وأنــــا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت دائماً أدعوه «المعلم»: ولذلك، فإني لن أسميه في هذا الكتاب إلاّ «المعلم»، دون أن أكشف عن اسمه الحقيقي. ليس ذلك لأني أخشى أن أفعل ذلك أمام أنظار العالم. بل لأن هذا الاسم: «المعلم» هو بالنسبة لي طبيعي أكثر. ففي كل مرّة أتذكره، أشعر باسم «المعلم» على شفتيّ: وكذلك عندما أكتب، يكون نفس الاسم تحت قلمي. أما اللجوء إلى استعمال الحروف الأولى الباردة من الأسماء فلم يكن من الممكن أن يتبادر إلى ذهني.

المعلم، كنت قد التقيت به في «كماكورا». وكنت في ذلك الوقت لأزال طالباً ثانوياً في ميعة الشباب. كنا في العطلة الصيفية، وقد اغتنم أحد أصدقائي هذه الفرصة للذهاب إلى أحد المسابح البحرية. وأرسل لي بطاقة يطلب بها مني بالحاح اللحاق به. فجمعت بعض المال وقرّرت السفر. ولكني كنت قد أمضيت يومين أو ثلاثة في جمع المال، ولم أكن قد قضيت في «كماكورا» ثلاثة أيام حتى تلقى صديقي الذي كان قد دعاني، برقية، بشكل مفاجيء، من منطقته، يطلب بها منه الحضور. وكانت البرقية تقول: «أمك مريضة». ولكن صديقي كان يشك في ذلك. فمنذ بعض الوقت كان أهله، هناك في بلده، يحثّونه على زواج لم يكن يعجبه. وكان بالنسبة لعادات ذلك الزمن مايزال صغير السن على الزواج. ولكن أهم مافي الأمر على وجه الخصوص، أنه لم يكن يشعر بالحب. ولذلك، فإنه هرب من المقاطعة التي كان يجب أن يقضي فيها عطلته، وأتى ليرتاح غير بعيد عن طوكيو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأراني البرقية وطلب نصيحتي فيما يجب أن يفعله. والحقيقة أني لم أكن أعرف مطلقاً ماذا يجب أن أقول له. ولكن إذا كانت أمه حقاً مريضة، فقد كان من الناحية الأخلاقية ملزماً بالعودة إلى قربها. وعلى ذلك فقد قرّر أخيراً أن يسافر، ومن جهتي أنا، الذي أتيت خصيصاً للقائه، فقد بقيت وحيداً.

كان موعد افتتاح المدارس مايزال بعيداً. وكان بامكاني أن أفعل مايحلو لي: إما أن أبقى في «كماكورا» أو أن أعود إلى طوكيو. وباختصار، قرّرت البقاء بعض الوقت في النزل. كان صديقي ابن غني كبير من «شوغوكو»، ولذلك لم يكن يشعر بأية ضائقة. ولكن مدرستنا كانت مدرسة قاسية، وكان شبابنا شباباً قليل الحظ من الدلال والرفاهية، وحياتنا المادية كانت تقريباً متماثلة. ولذلك، فإني عندما بقيت بمفردي، لم يكن علي أن أتكبّد الانتقال من النزل الذي كنا فيه إلى نزل آخر.

كان النزل يقع في أحد أحياء «كماكورا» القليلة السكان. وكانت صالات «البلياردو»، والمرطبات، وكل وسائل الرفاهية الحديثة هذه، بعيدة، يفصلنا عنها طريق طويل يمرّ عبر الحقول. وإذا أردنا الذهاب إليها «بمركبة الجر» فإن ذلك يكلفنا عشرين «سنا». ومع ذلك، فإن الفيلات الكثيرة كانت تنتصب في كل مكان. وكان قرب الشاطيء الرملي (البلاج) يعطي لهذا الحي، بالنسبة للمستحمين، وضعاً مميزاً ومفضلاً.

وكل يوم، كنت أذهب إلى البحر. وأنحدر نحو «البلاج» ماراً بين الحقول التي حصدت مزروعاتها وصبغها الدخان باللون الأسود بعد أن حرقت بقايا تلك المزروعات. والأمر الذي كان يدهشني كثيراً هو أن يستطيع السكنى على مثل هذه الدرجة من التجاور، مثل هذا العدد الكبير من أهل المدن: كان هنالك كثير من الرجال والنساء القادمين للاصطياف، يسرحون ويمرحون على الرمال. وأحياناً كان

البحر كحمّام عام، يطفح بالرؤوس السوداء لدرجة أنه بدا يعج بها. ولكن من جهتي أنا فلم يكن لي بين كل هؤلاء الناس شخص واحد أعرفه. وكنت أكتفي وقد غمرتني الحيوية التي يبعثها مثل هذا المشهد بالتمدد والتمطي على الرمال، أو في الماء، معرضاً ركبتي للطمات الأمواج، وكنت ألهو بالقفز بشكل دائري.

والمعلم، كان قد تم اكتشافي اياه في ذلك الزحام بالضبط. فقد كان يوجد على الشاطيء الرملي صالونان لتناول الشاي، وقد اعتدت على التردد على أحدهما، وكان اختياري له دون الآخر بمحض المصادفة. ولأن روّاد هذه البقعة من المستحمين كانوا أقل حظاً وغنى من أصحاب «الفيلات» الرحبة في حي «هاسي»، حيث لكل منهم حمامه الخاص به، فانهم لم يكونوا يستطيعون الاستغناء عما يمكن تسميته بالحمام المشترك: أي صالونا الشاي اللذان كانا ملجأين بالنسبة لنا. فهناك كان كل منهم يتناول الشاي، ويتمتّع بقسط من الراحة، ويتاح له أيضاً أن يغسل ملابس السباحة الخاصة به، وأن يستحم بالماء العذب لينظف جسمه الدبق من الملح، كما يستطيع أيضاً أن يودع قبعته، ومظلته. أما أنا، فلم يكن لدي ملابس للسباحة. ولكني كنت أخشى أن أتعرّض للسرقة، ولذلك فإني لم أكن أستحم أبداً قبل أن أودع كل شيء يخصني، في صالون الشاي هذا.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١ -

وفي صالون الشاي هذا بالذات، رأيت «المعلم» للمرة الأولى.كان يخلع ملابسه لكي يذهب للسباحة. أما أنا، فكنت قد خرجت لتوي من الماء وكنت أعرّض للرياح جسدي المبلّل. وكانت مئات الرؤوس السوداء تقف حائلاً بيننا نحن الاثنين، ولو لم يكن هنالك أمر ثانوي خاص، فإني لاأعرف تماماً إذا ماكنت في نهاية الأمر، يمكن أن أكون قد تركت «المعلم» يمر، حتى دون أن أنتبه إليه: فقد كان على «البلاج» ذلك الازدحام الهائل، وكنت أشعر أن ذهني مشوش جداً.. ولكن نظري وقع في الحال على «المعلم»، لأن أوروبياً كان برفقته.

كانت بشرة ذلك الأوروبي بيضاء جداً، لدرجة أنه، منذ عودتي إلى صالون الشاي كان قد استرعى انتباهي، كان يرتدي لباس «الكيمونو» الياباني الصيفي، فخلعه وألقاه دون اهتمام على أحد المقاعد، ثم ضمّ ذراعيه إلى صدره، ووقف قبالة البحر، دون أن يكون على جسمه سوى نفس السروال الصغير الذي نستخدمه نحن اليابانيين. وكان هذا هو ماأثار اهتمامي في باديء الأمر. وقبل ذلك بيومين، كنت قد أطلت نزهتي حتى بلغت «بلاج «ويغاهاما»، وهناك، وأنا جاث على الرمال، أخذت أراقب طويلاً طريقة الأوروبيين في الاستحمام. كان الكثيّب الذي كنت أجلس فوقه يطل من قرب على الباب الخلفي للفندق الأوروبي. وكنت وأنا مرتاح في جلستي تلك أتأمل الناس وهم يخرجون كي يذهبوا للاستحمام. كانوا جميعاً، مهما كان عددهم، يغطون ظهورهم،

أذرعتهم وأفخاذهم بلباس طويل للسباحة. وكانت النساء بشكل خاص يبدين عناية كبيرة لاخفاء بشرتهن. حتى أن أكثرهن كن يغطين رؤوسهن بقبعات من الكاوتشوك ذات ألوان مختلفة: بعضها بنية، وبعضها زرقاء سماوية، أو بزرقة مياه البحر. وكان يمكن رؤية تلك القبعات وهي تطفو بين الأمواج. بعد هذا المشهد، كم كان يبدو لي أمراً غريباً ونادراً بشكل لم يسبق له مثيل، وقوف ذلك الأوروبي أمامنا دون أي حرج وهو لايرتدي سوى سروال صغير.

ومع ذلك، فإن الأوروبي حوّل نظره نحو ياباني منحن بجانبه، وقال له بضع كلمات. كان الياباني يلتقط منشفته التي سقطت على الرمل. وفي الحال غطى رأسه بها واتجه نحو البحر.هذا الرجل، كان «المعلم».

وبدافع من الفضول، ليس غير، أخذت أتأمّل قامتي الرجلين وهما يهبطان جنباً إلى جنب نحو الشاطيء الرملي. كانا يسيران إلى الأمام على خط مستقيم وهما يطآن الأمواج بأقدامهما. وعلى هذه الخلفية ذات المنحدر الهاديء، كان جمهور السابحين كثير الحركة، قوي الصخب والضجيج: فتجاوزاه، وبعد أن وصلا إلي مكان أقل ازدحاماً، أخذا يسبحان. وتابعا السباحة إلى أن بلغا عرض البحر وبدا رأساهما صغيرين جداً. ثم عادا، على خط مستقيم نحو الشاطيء، كما فعلا في الذهاب. وعند عودتهما إلى «بيت الشاي»، لم يضيعا وقتاً بالاستحمام بالماء العذب، بل جفّفا جسميهما، ارتديا ملابسهما، وبسرعة انصرفا فجأة.

بعد انصرافهما، أخذت أفكّر بالمعلم، وأنا جالس على مقعدي أدخّن السجائر:

- إني متأكد أني قد رأيت هذا الوجه فيما مضى! هذا ماكنت أفكر به رغماً عني. ولكن رغم الجهد الكبير الذي بذلته ذاكرتي، فإني لم أتوصل إلى تحديد الزمان والمكان اللذين التقيت فيهما به.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت في ذلك الوقت أشعر أن الملل يكاد يقضي علي رغم أني لم أكن أعاني من أية متاعب. وهكذا، فإني في اليوم التالي، بعد أن عملت حساب وقتي جيداً، عدت إلى «بيت الشاي».لم يكن الأوروبي قد أتى، وكان المعلم هنالك وحده، وعلى رأسه قبعة من القش. ونزع «المعلم» نظارته ووضعها على أحدالمقاعد، ثم غطى رأسه بمنشفته، وبخطوات واسعة سار منحدراً نحوالشاطيء الرملي، وكما فعل بالأمس، شقّ «المعلم» طريقه بين السابحين الصاخبين، إلى أن ابتعد عنهم وأخذ يسبح منفردا. وراودتني فجأة الرغبة بالانطلاق، واللحاق به. فاندفعت برأسي في مياه قليلة العمق، حتى بلغت مياه أكثرعمقا، ومن هناك، حدّدت المعلم كهدف لي، وأخذت أحاول بلوغ هذا الهدف. ولكن «المعلم» لم يتّبع نفس الطريق الذي اتّبعه بالأمس: بل سار منعطفا، واتجه إلى جهة غير متوقعة، ثم عاد متجهاً نحو الشاطيء. ولذلك فإني لم أستطع تحقيق غايتي. وبعد أن عدت إلى اليابسة، ذهبت إلى «بيت الشاي» ملوّحاً بذراعيّ اللذين كان يسيل منهما الماء. ولكن «المعلم» كان عند ذلك، قد ارتدى ملابسه بعناية، ومرّ بي وهو يخرج من البيت المذكور.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفي اليوم التالي، قفزت إلى البحر لاحقاً بالمعلم. ثم أخذت أسبح في نفس الاتجاه الذي كان يسبح فيه. وعندما قطعنا مايقرب من مائتي متراً باتجاه عرض البحر، التفت «المعلم» نحوي وأخذ يتحدّث اليّ. كان البحر يمتد، أزرق، منبسطاً، فسيحاً إلى ما لانهاية. لم يكن هنالك مايعوم أو يتحرّك حولنا، سوانا نحن الاثنين. وكان نور الشمس القوي ينير، على مدى البصر، الماء والجبال. كانت الحرّية والبهجة تغمران جسدي، الذي كنت أحرّكه في مياه البحرعلى شكل رقص جنوني. أثناء ذلك كفّ «المعلم» عن الحركة، واستلقى على ظهره، وأخذت الأمواج تتقاذفه كلوح خشبي. فعمدت إلى الاقتداء به وفعلت مثلما فعل. كان بريق السماء الزرقاء ينبعث متلألأ، يخترق العيون كالسهام الحادة، وكنت أشعر بألوانه التي كان يقذف بها بعنف على وجهي:

وصرخت بأعلى صوتي: «كم نحن سعداء، أليس كذلك؟»

بعد ذلك بقليل، غيّر «المعلم» وضعيته وبدا وكأنه يقف منتصباً فوق مياه البحر، وقال مقترحاً: «ألا نعود؟»

كنت بطبيعتي ميالاً للعناد والمقاومة، وكان بامكاني البقاء في البحر مستمراً في لعبي ومرحي. ولكن حالما عبّر لي «المعلم» عن رغبته، قلت بلطف وعن طيب خاطر: «بالتأكيد، بالتأكيد، هيا بنا ولنعد بسرعة!»

ومنذ ذلك اليوم توطدت صلتي بالمعلم. ولكن أين كان يسكن «المعلم»، هذا ماكنت لاأزال أجهله.

وانقضى يومان، وكان ذلك في اليوم الثالث، إذا لم أكن مخطئاً، أن رأيت «المعلم» ثانية في صالة الشاي. وفاجأني بالسؤال قائلاً: «أتنوي البقاء بعض الوقت أيضاً هنا؟».

كنت أعلم أني لم أكن مستعداً للاجابة على مثل هذا السؤال، ولذلك قلت له: «الحقيقة أني لاأعرف أبداً ان كنت سأبقى أيضاً بعض الوقت أم لا».

ولكن عندما التقت عيناي بوجه «المعلم» الباسم، شعرت بالارتباك، ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أرد له السؤال، قائلاً: «وأنت أيها «المعلم»؟ كانت تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها هذا الاسم: «المعلم» من فمي.

وفي ذلك المساء نفسه، زرت مسكن المعلم. لم يكن ذلك المسكن فندقاً، بل بناء على شكل «دارة» أقيم على الملحقات الفسيحة لأحد المعابد، وقد علمت أن لاأحد ممن يسكنون هناك يمتّ بصلة القرابة للمعلم. وخلال حديثنا، كنت أردد على الدوام، عند مخاطبتي إياه: «أيها المعلم» أو يا «معلم».

ولكن المعلم كان يبتسم حينئذ ابتسامة تنم عن المرارة، عند ذلك كنت أسارع إلى الاعتذار، قائلاً بأني هكذا اعتدت أن أخاطب كل من هم أكبر مني سناً. وحاولت بعد ذلك أن أسأله عمّا حدث للأوروبي الذي أتى معه ذلك اليوم. فأجابني «المعلم» أن ذلك الرجل كان فريداً من نوعه، ويمتاز بالأصالة وأنه قد غادر «كماكورا». ثم أضاف بعض التفاصيل، وقال أنه، وهو الذي كان قليل المعارف بين اليابانيين أنفسهم، استغرب هو نفسه كيف استطاع أن ينشيء علاقة مع ذلك الأوروبي. وفي نهاية حديثنا، قلت للمعلم بأني أظن أني قد سبق لي أن التقيت به، ولكني لاأستطيع تذكر مكان ذلك اللقاء. وكنت آمل بشكل غامض، وأنا على ماأنا عليه من سذاجة الفتيان، أن يكون قد حصل لديه نفس الانطباع. وكنت، في قرارة نفسي أتوقع من «المعلم» أن يؤكد ذلك. ولكنه، بعد لحظة من التأمل، قال لي:

ـ كلا، الحقيقة أن وجهك لايذكرني بشيء: ألا يمكن أن يكون قد التبس عليك الأمر؟

وبينما كان يقول ذلك، استولى علي شعور يشبه اليأس.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٤ -

وعدت في آخر الشهر إلى طوكيو. وكان «المعلم» قد غادر «كماكورا» قبلي بفترة طويلة. وكنت قد سألته عندما افترقنا:

- ألن أستطيع بعد الآن أن أزورك أحياناً؟

- نعم، تعال!، بهاتين الكلمتين، دون زيادة، أجابني المعلم.

وكنت عندما قدّمت له هذا الطلب، أظن أن المودّة وعدم الكلفة أصبحتا تسودان بيننا، وكنت أتوقع منه أن يوجه لي كلمات أكثر حرارة. ولكن جوابه المقتضب زعزع ثقتي.

وكثيراً ماكان «المعلم» هكذا، يخيب أملي. فهل كان يشعر بذلك أم لا؟ كان تارة يحدث لدي انطباعاً بأنه يشعر به، وتارة أنه لايلاحظه. ولكن رغم بعض اليأس الذي كنت أشعر به كل مرة بسبب ذلك، فإني لم أكن أستطيع تصوّر الابتعاد عنه. وعلى العكس من ذلك، كنت بعد كل صدمة، أشعر بالرغبة بأن أزيد من مودتي ومحبتي له. كان يبدو لي أني لو أحببته أكثر، فلابد أن يأتي اليوم الذي سأنال فيه كل ماكنت أنتظره منه. ولكوني كنت لاأزال صغير السن، فإني لم أكن أستطيع أن أدرك أن دمائي الفتية يمكنها أن تثير حماساً عفوياً إلى هذه الدرجة، دون أي تمييز، نحو شخص آخر. ولأي سبب كنت أحس بهذا الشعور المتميز، ينبعث مني نحو «المعلم» دون غيره من الناس، ذلك أمر لم أكن أفهمه: والواقع أني لم أبدأ فهم ذلك الاّ بعد موته. لم يكن

«المعلم» قد أبدى لي الكراهية الاّ في أول بداية علاقاتنا. وإذا كان يوجّه لي، من وقت لآخر تلك التحية التي كانت تبدو لي جافة، وتلك الاشارات التي كانت تبدو لي باردة، فلم يكن ذلك تعبيراً عن استيائه من رؤيتي ورغبة منه بابعادي. كان ذلك أن «المعلم» وهو في هذه الحالة جدير بالرثاء، يرى أن التعامل معه لاقيمة له على الاطلاق، ولذلك كان ينبه الآخرين إلى ذلك باقامته، من بروده، حاجزاً بينه وبينهم. وإذا كان «المعلم» يرفض مودة ومحبة الآخرين، فقد كان واضحاً أنه لايرمي من وراء ذلك الى احتقارهم بل إلى احتقار نفسه.

عندما عدت إلى طوكيو، كان من المؤكد أني كنت أنوي زيارة «المعلم». وكان مايزال بين عودتي وبين موعد بداية الدروس فترة أسبوعين. وكنت عازماً تماماً أن أغتنم هذه الفرصة كي أذهب لرؤيته في أحد الأيام. ولكن حالما عدت، وأخذت الأيام تمر الواحد تلو الآخر، كنت أحس بالمشاعر التي انتابتني في «كماكورا»، تتضاءل بالتدريج. وعلاوة على ذلك، كان جو العاصمة يجذبني كما في الماضي، ويبعث لدي ذكريات ذات احساسات قوية، ويمنح نفسي لوناً جديداً.

كانت الدروس قد استؤنفت، وكاد ينقضي شهر. وكنت أشعر براحة وانفراج في قرارة نفسي. ولكني كنت أسير في الشوارع دون أن ينمّ وجهي عن الرضى، وأحدق بناظري في جدران قاعة الدرس دون أن أعلم عمّا أبحث. وفي قرارة نفسي كان يرتسم من جديد وجه «المعلم». ومن جديد، كنت أشعر برغبة قوية لرؤيته ثانية.

وعندما ذهبت لزيارته للمرة الأولى، كان غائباً، فذهبت ثانية يوم الأحد التالي، على ما أذكر. كانت السماء الصافية تخترق بصفائها الأجساد، كأنها بذلك تريد أن تجعلنا نشعر كم كان جميلاً ذلك اليوم. وهذه المرة كان «المعلم» غائباً أيضاً. وكنت قد علمت في «كماكورا» من فم المعلم نفسه، أنه يبقى طيلة الوقت تقريباً في منزله، وأنه لايحب الخروج. وقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذكرت هذا الحديث، لأني أتيت مرتين وفي المرتين أصبت بخيبة الأمل. وبشكل غامض، ودونما سبب واضح، شعرت بما يشبه الاستياء. ومكثت بعض الوقت قرب الباب، محدقاً بالخادمة، وبقيت، متردداً، وأنا أقف في نفس المكان. كنت في المرة الماضية قد أعطيت بطاقتي للخادمة، ولذلك فانها عندما تذكرتني طلبت مني الانتظار، ثم ذهبت. عند ذلك أتت امرأة، انها زوجة «المعلم» دون شك. كم كانت جميلة:!

وعلمت منها إلى أين ذهب المعلم: لقد اعتاد أن يذهب كل شهر في مثل هذا التاريخ الى مقبرة «زوشيغايا» ليضع هنالك زهوراً على أحد القبور، وقالت مشفقة على خيبتي:

ـ لقد خرج لتوّه، ولم يكد يمضي على ذلك عشر دقائق.

فحييتها وانصرفت. سرت نحو مائة خطوة عبر الشوارع المزدحمة. ثم قررت أن أذهب أنا أيضاً إلى مقبرة «زوشيغايا». فهل سألتقي بالمعلم أم لا؟ كان الفضول يدفعني للقيام بالمحاولة. وجعلني ذلك أغيّر اتجاهي على الفور.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ آه، هذا حسن. ولماذا كان يمكن أن تقول لك ذلك، لك أنت الذي تراك للمرة الأولى. لم يكن هنالك أي مبرر لذلك، بالحقيقة.!.

كان المعلم يبدو أخيراً وكأنه قد ارتاح وزال ماكان يعاني منه. أما أنا، فان المعنى الذي كانت تتجه إليه أفكاره، لم أستطع ادراكه أبداً.

ولكي نعود، أنا والمعلم، سرنا باتجاه مباشر بين القبور: وكنا نقرأ على حجارتها: «ايزابيل بنت فلان «...» «لوجان، خادم الرب»...، وعلى قبور أخرى: «كل كائن يحمل في نفسه روح بوذا»... هذا ماكانت تعلنه اللوحات البوذية الجنائزية المغروسة مستقيمة فوق تلك القبور. وفي مكان آخر: «فلان، وزير مطلق الصلاحية»... ومررنا أيضاً أمام قبر صغير، يحمل اسم: «أندريه» بالأحرف الصينية، فسألت المعلم:

ـ كيف يجب أن تقرأ هذه الكتابة؟

فأجابني «المعلم» وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة:

ـ ربما كانت القراءة المطلوبة هي: «أندريه».

وهكذا كان كل قبر يبدي للأنظار طرازاً مختلفاً. ولكن لم يكن المعلم يبدو مقدراً مثلي الفكاهة أو السخرية في ذلك. قبور من حجارة مكورة، قبور من الغرانيت، دقيقة الشكل وعالية، وكنت أشير باصبعي إلى كل القبور، دون أن أفكر، بالنسبة لهذا القبر أو لذاك، الاّ بالسخرية منها جميعها. وكان «المعلم» قد تحمّل بصمت ثرثرتي. ولكنه، أخيراً قال لي:

ـ لاأظن أنك قد تصورت حتى الآن الموت بصورة جدية!.

عند ذلك لذت بالصمت. والمعلم صمت أيضاً ولم يتفوّه بعد ذلك بكلمة واحدة. وفي أحد مفترقات ممرّات المقبرة كانت تنتصب احدى أشجار «الجنكة» الضخمة التي تكاد

تحجب السماء. وعندما كنا نمر تحتها، ألقى «المعلم» نظرة نحو الأغصان، وقال:

- بعد انقضاء بضعة أسابيع، سوف تصبح هذه الشجرة جميلة جداً، بعد أن تصبح صفراء تماماً كلها! وتحت صفرة الأوراق الذهبية المتساقطة، ستبدو الأرض كأنها قد دفنت تحتها.!

كان من المؤكد أن على «المعلم» أن يمر كل شهر تحت هذه الشجرة! وفي الجهة المقابلة، كان هنالك عامل يشتغل في تسوية الأرض في ركن جديد من المقبرة. فألقى بمعوله وأخذ يراقبنا. فاتجهنا مباشرة إلى اليسار، وعند ذلك أصبحنا في الحال على قارعة الطريق.

لم يكن لي هدف آخر، ولذلك تابعت السير إلى جانب «المعلم» الذي كان صامتاً أكثر من عادته. ومع ذلك فإني دون أن أشعر بخيبة أمل كبيرة، كنت أسير بخطوات بطيئة إلى جانبه.

- أتعود مباشرة إلى المنزل؟

- نعم: فليس لدي ماأعمله في أي مكان آخر.

وهبطنا المنحدر من جهة الجنوب، بعد أن لذنا بالصمت ثانية، نحن الاثنين.

وقلت محاولاً أن أسأله:

- هل هذا القبر الذي تأتي لزيارته هو قبر أحد أقاربك؟

- كلا.

- ولكن لمن يكون اذن هذا القبر؟ هل هو قبر أحد أقاربك البعيدين؟

- كلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واقتصرت أجوبة «المعلم» على ذلك، فتوقفت عن القاء الأسئلة. ولكننا لم نكن قد سرنا أكثر من مائة خطوة، عندما استأنف «المعلم» الحديث، من تلقاء نفسه قائلاً:

- ان القبر الذي أذهب لزيارته هو قبر أحد أصدقائي.

- ألزيارة قبر أحد أصدقائك تذهب كل شهر؟؟

- نعم، كل شهر.

ولم يقل لي «المعلم» في ذلك اليوم، شيئاً زيادة على ذلك حول هذا الموضوع.

* * *

- ٦ -

واعتباراً من ذلك اليوم، أخذت أزور المعلم من وقت لآخر. وفي كل مرة أذهب لزيارته كنت أجده في المنزل. وكنت كلما رأيته أكثر، كلما ازددت رغبة في العودة لقرع باب منزله.

ولكن موقف «المعلم» ازائي، ظل نفسه موقفه عندما بادرته بالتحية للمرة الأولى «والألفة التي نشأت بيننا لم تحدث فيه تغييراً يذكر. فقد كان «المعلم» يبدي دائماً بعض التحفظ، بل كثيراً من التحفظ في بعض الأحيان. لدرجة أنه يبدو محزناً. وقد تبادر إلى ذهني منذ البداية، أن لديه لاأدري أي سر من الصعب اكتشافه. ولكني، بنفس الوقت كان لدي شعور غامض بأني لاأستطيع عدم التقرّب من المعلم، وكان هذا الشعور يدفعني نحوه بقوّة. وكنت واثقاً من أن لاأحد غيري يكنّ للمعلم مثل هذا الشعور، وأني ربما كنت الوحيد من بين الكثيرين، الذي يحس به. ومن الممكن ألا تشاطرونني شعوري حول هذه النقطة. ولكني عندما أكون قد قلت أن الوقائع قد أكّدت فيما بعد صحة حدسي، فانكم سوف تدركون كم هو قليل الأهمية بالنسبة لي أن أعامل كساذج وكمغفل. فقد كان حدسي قد تنبأ بشكل صحيح بكل شيء: وأنا من جهتي، أعتبر بكل فخر، هذا الحدس جديراً بالثقة. انسان جدير بأن يحب بني البشر، بل وأكثر من ذلك، انسان لايستطيع الاّ أن يحب بني البشر، ولكن ذاك الذي يريد هو أن يرتبط به قلبياً، تبين أنه انسان غير جدير بأن يتجاوب معه ويفتح له ذراعيه: ذاك هو «المعلم».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكما قلت، كان «المعلم» متحفظاً أكثر من اللازم. وبلاشك كان هادئاً جداً. ولكن ظلاً من الكآبة كان يغشى وجهه أحياناً. كأنه ظل عصفور، نراه من النافذة يمر في لحظة ثم يختفي في الحال. وهذا الظل، كنت قد لمحته في مقبرة «زوشيغايا» للمرة الأولى، عندما ناديت «المعلم» بصورة مفاجئة. وكانت تلك لحظة غريبة. كان الدم الذي كنت أشعر أنه يجري في أوردتي قد بدا وكأنه أبطأ في جريانه. ولم يدم ذلك الاّ لحظة قصيرة. وبعد ذلك ببضعة دقائق استعادت شراييني مرونتها المعتادة. وكنت قد نسيت بسرعة ذلك الظل الأسود وتلك السحابة التي مرّت على جبين «المعلم». وهاهو ذلك الظل يفرض نفسه، ويقتحم ذكرياتي بصورة غير متوقعة، في احدى أمسيات أواخر الخريف.

في تلك الأمسية، وبينما كنت أتحدّث إلى المعلم، تذكرت شجرة «الجنكة» الكبيرة التي أحب «المعلم» أن يلفت انتباهي إليها. وأخذت صورة الشجرة تبدو واضحة أمام ناظريّ. وفي ذهني شرعت أحسب وأعد الأيام، فتبين لي أن «المعلم» كما في كل شهر، سوف يذهب لزيارة قبر صديقه بعد ثلاثة أيام. وكان ذلك اليوم الذي سيؤدي فيه فريضة الحج هذه، يوماً مريحاً بالنسبة لي، إذ أن دروسي تنتهي فيه عند الظهر. ولذلك قلت له:

- أيها «المعلم»، لاشك أن شجرة «الجنكة» في مقبرة «زوشيغايا» قد فقدت كل أوراقها، ألا تعتقد ذلك؟

- لاأظن أنها قد تعرّت تماماً، بعد.

كان «المعلم» وهو يرد علي، يحدق بوجهي، ولم يحول ناظريه عني خلال فترة من الزمن. ودون أن أنتظر منه كلاماً آخر، سألته:

- في المرة القادمة التي ستذهب فيها إلى المقبرة، ألا يمكنني مرافقتك؟ فكم أحب الذهاب معك للتنزه هناك.

- انها فريضة حج أؤديها: وليست نزهة!.

- ولكن، بنفس المناسبة، ألا يمكننا أيضاً القيام بنزهة؟؟

ولم يرد علي «المعلم» بشيء في الحال.ولكنه قال لي بعد لحظة من الصمت:

- فيما يخصني، القصد من الذهاب إلى المقبرة هو تأدية فريضة حج حقيقية، ليس غير!.

وهكذا كان «المعلم»، دون أن يخضع أو يتراجع، يبدو أنه يريد الفصل والتمييز بين الحج والنزهة. فهل كانت تلك ذريعة لابعادي، أم لغاية أخرى؟ ومهما كان الأمر، فان«المعلّم» بدا لي في تلك اللحظة طفولياً وغريب الأطوار. وشعرت برغبة للذهاب إلى أبعد من ذلك، فقلت له:

- إذا كان الأمر كذلك، وليكن لتأدية فريضة الحج. خذني معك، أرجوك: سأذهب، أنا أيضاً، لتأدية هذه الفريضة.

والحقيقة أن وضع فرق بين الحج والنزهة كان يكاد يبدو لي أمراً لامعنى له. ولكن عند ذلك كان جبين «المعلم» قد أصبح كأنه مغطى بسحابة، وكان ينبعث من عينيه بريق غريب. فهل هو السأم؟ القرف؟ أم الخوف؟ كان من العسير جداً تحديد ذلك. ولكن في أعماق كل ذلك، كان هنالك مايشبه القلق الغامض. وعند ذلك تماماً، برزت في ذهني فجأة الذكرى القاسية لتلك اللحظة التي كنت قد ناديت خلالها «المعلم» في مقبرة «زوشيغايا» فقد كان التعبيران متماثلين تماماً.

وأجابني «المعلم»:

- ان لديّ.. ولا أستطيع أن أبوح لك به، السبب الذي لايسمح لأحد بمرافعقتي عند تأديتي لفريضة الحج، هذه. حتى أن زوجتي نفسها لم ترافقني فيها أبداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجـدت هذا الكلام غـريبـاً. ولكن لم يكن هدفي من الذهاب إلى بيت المعلم دراسة أخلاقه وأطواره، ولذلك تركت الأمور على حالها هذه المرة أيضاً، دون أن أذهب إلى أبعد من ذلك. والآن، عندما أفكّر في ذلك، يبدو لي سلوكي في ذلك الحين كأحد أفضل الأعمال التي قمت بها في حياتي. وأعتقد أني إذا كنت قد استطعت أن أعقد مع «المعلم» أقوى العلاقات الانسانية وأشدها حرارة، فانما كان ذلك بفضل هذا التروي. ولو كان قد بدر حينئذ، بعض الفضول، مهما قلّ شأنه، ودفعني للتعلق بدراسة قلب «المعلم»، لكان دون أدنى شك، قد انقطع إلى الأبد، ودفعة واحدة، رباط المودة الذي كان يجمعنا. ولم تكن حداثة سني تسمح لي بأن أدرك بدقة ومن تلقاء نفسي خلفيات سلوكي، وربما كان اللاشعور نفسه لهذا السلوك هو الذي يعوّض ذلك. ولكن ياله من مصير فاشل كانت ستنتهي إليه، بالتأكيد، علاقاتنا لو أنني كنت قد سلكت سلوكاً معاكساً!. فأنا أرتجف لمجرد افتراض ذلك. إذ أن «المعلم» كان دائماً، حتى قبل أن يبدي أحد نحوه اهتماماً خاصاً، يشعر بخوف شديد من التعرض لنظرات هادئة تتفحصه!.

وكان من عادتي في البداية أن أذهب بانتظام لزيارة «المعلم» مرّتين أو ثلاث مرّات في الشهر. ثم ازدادت زياراتي له. لدرجة أنه فاجأني ذات يوم بهذا السؤال:

- قل لي، مالذي يجذبك إلي، حتى تأتي كثيراً لزيارتي؟

فأجبته قائلاً:

ـ بذمتي، طالما أنت تلقي عليّ هذا السؤال، فإني أقول لك بأني أجد صعوبة كبرى في الرد على سؤالك بجواب دقيق ومحدّد. ولكني... ربما أكون أزعجك، أليس كذلك؟

ـ الحقيقة أني لم أقل أبداً أنك تزعجني!.

والواقع أن «المعلم» لم يكن يبدو منزعجاً من شيء. امّا كون علاقاته كانت محدودة جداً، فهذا أمر لم أكن أجهله. ولم أكن أعرف له الاّ اثنين أو ثلاثة من رفاق المدرسة القدامى، الذين كانوا يسكنون في طوكيو في ذلك الوقت. ولاشك أيضاً، أنه كان يحدث كثيراً أن يستقبل «المعلم» في ردهة منزله، أحياناً بعض الطلاب من أبناء منطقته: ولكنهم كانوا جميعاً في نفس الدرجة التي كنت فيها، وكان واضحاً بالنسبة لي أن لاأحد من بينهم كان يتمتع بألفة حقيقية مع «المعلم».

واستأنف «المعلم» حديثه، قائلاً:

ـ إني رجل حزين وأعيش في عزلة. ولأني أعيش في عزلة، فأنا أستقبلك دائماً بكل سرور. ولكوني رجل حزين، فقد أدهشني كثيراً أن تكثر من زياراتك لي.

ـ ماذا تعني بالضبط؟

وترك «المعلم» سؤالي بدون جواب، وكل ماهنالك أنه أخذ يحدق بي، ثم سألني:

ـ كم عمرك؟

كان ذلك الحديث بالنسبة لي لغزاً غامضاً. ولذلك فإني في ذلك اليوم قطعته وانصرفت دون أن أتمادى وأتعمّق فيه. ولكن لم تمض أربعة أيام حتى ذهبت ثانية لزيارة «المعلم». وعند باب الردهة، أخذ «المعلم» يضحك، ثم قال:

ـ أنت أيضاً، مرة أخرى!.

ـ نعم، أنا، مرة أخرى!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأخذت أنا أضحك أيضاً، وأنا أقول ذلك. ولاأظن أني كنت أقبل من أي شخص آخر مثل هذا الاستقبال دون أن أستاء. ولكن كون هذه الكلمات وجهت اليّ من قبل «المعلم»، فقد ولّد لديّ شعوراً معاكساً. إذ أني ليس فقط لم أشعر بالاستياء، بل كنت، بدلاً من ذلك، أشعر بالسعادة.

وقال «المعلم»، وهو يعود إلى موضوع حديثه في الزيارة السابقة: إني رجل حزين وأعيش في عزلة. ولكن من يعلم، ربما كنت أنت أيضاً حزيناً وتعيش في عزلة. ولكنّ عزلتي أنا، والوحدة التي أعيش فيها، وحزني، فاني أحافظ عليها، بعد أن تقدّمت بي السن، من كل اثارة وضجيج. أمّا أنت، فانك شاب، أفلا تعتقد أن هذا هو كل الفرق الكائن فيما بيننا. أنت تريد أن تنقضّ وتهاجم بكل قوة: تريد أن تهاجم وتقتحم الحواجز والعقبات، هاه، ماقولك في ذلك؟؟

- أنا، حزين وأعيش في وحدة!. كلاً وألف كلا!.

- ان الشباب هم الأكثر حزناً من كل من في العالم. ومهما دافعت عن نفسك بهذا الخصوص: لأنك لو لم تكن حزيناً في قرارة نفسك، فلماذا تأتي كثيراً لزيارتي؟؟

وعاد «المعلم» ثانية إلى موضوعه الذي تحدّث عنه في المرة الماضية..

- نعم، انك انسان حزين، هذا ما أستخلصه أخيراً، ثم أضاف «المعلم» قائلاً: حتى وأنت في قربي، فإني أراهن أنه يظل لديك شعور بالحزن لاأدرك كنهه. وهذا الحزن، كم أودّ أن أقتلعه من جذوره. ولكني لاأقوى على ذلك. ولهذا السبب فانك ستعمد قريباً إلى بسط ذراعيك نحو عون آخر، وفي ذلك اليوم، سوف تتحوّل خطاك عن منزلي...

كان «المعلم» وهو يتحدّث إليّ بذلك، يبتسم ابتسامة خاصة به، حزينة جداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولذلك، فإن «المعلم» الذي كان يشكل همزة الوصل فيما بيننا، لو ابتعد ولو قليلاً جداً، كنا نظل، هي وأنا، غريبين أحدنا بالنسبة للآخر.ولهذا يصبح مفهوماً أني من لقاءآتي الأولى مع زوجة«المعلم»، لم يبق لديّ أية ذكرى الاّ ذكرى جمالها.

وذات يوم، كان عليّ أن أتناول «السّاكي» في منزل «المعلم»، وكانت زوجته تقوم بيننا بمهمة الساقي. وقال «المعلم» لزوجته بمرح زائد وهو يناولها الكأس التي كان قد احتساها:

- هيا، تناولي كأساً، أنتِ أيضاً!.

ورفضت في باديء الأمر، قائلة:

- أنا؟ انك لاتقول ذلك جادا!.

ولكنها قبلت أخيراً، بعد أن اعتراها الخجل والارتباك، فقطبت حاجبيها الجميلين، ورفعت باستحياء إلى شفتيها الكأس الذي كنت قد ملأته بكل احترام إلى النصف. عند ذلك بدأ بين المرأة وزوجها هذا الحديث:

- إني نادراً مأأذوق شراب «الساكي» أو أنك تدعوني، أنت، لتناوله، أي أن ذلك كما يقال، لم يحدث في السابق أبداً.

- وما قولك في ذلك، أنت لاتحبين أن تشربي.. اذن كما تشائين... ولكن، مع ذلك فهذا أمر حسن من وقت لآخر: انه مفيد وله تأثير جيد!.

- أوه، ليس بالنسبة لي!. بل انه يؤذيني!. أما أنت، فإني بالتأكيد أعلم أنك تصبح أكثر مرحاً مهما كانت كمية «الساكي» التي تتناولها قليلة!.

- أحياناً، هذا صحيح: أما إذا قلت: دائماً، فيكون القول مبالغاً فيه!.

- وهذا المساء، ماهو شعورك؟

- أوه، هذا المساء، أنا بخير!.

- حسن، من الآن فصاعداً عليك أن تشرب قليلاً، كل مساء: فهذا سوف يفيدك!.

- كل مساء، كلا!. إني لاأستطيع ذلك!.

- بلى، أرجوك!. إن ذلك سوف يجعل المنزل أكثر بهجة ومرحاً، وأنا أقسم أني أفضّل كثيراً ذلك!.

والحقيقة، فانه لم يكن في ذلك المنزل الاّ «المعلم» وزوجته مع خادمتهما. ولذلك فإني في كل زيارة كنت أشعر بوطأة جوه الكئيب. أمّا قهقهات الضحك، أو رنين الأصوات فانها لم تكن تسمع فيه أبداً. وكنت أشعر أحياناً أنه لم يكن يوجد في ذلك المنزل كائن حيّ سوى «المعلم» وأنا.

وقالت عندئذ زوجة «المعلم» مستهشدة بي:

- لو كان فقط لنا طفل، لكم كنت أصبحت سعيدة!.

فأجبتها:

- نعم، أليس كذلك؟

ولكن لم أكن أشعر في أعماق قلبي بأي عطف نحوها. فأنا لم أكن بعد قد أصبحت أباً، ولذلك لم أكن أعتبر الأطفال حينئذ الاّ كائنات مزعجة.

- وسألها زوجها: أتريدين أن أتبنى طفلاً، لعلّ في ذلك عزاء لك؟؟ وأجابته زوجته، مستشهدة بي مرة أخرى:

- أن تتبنى طفلاً؟.. تباً لها من فكرة سيئة!. ألا تجدها كذلك؟؟ فقال المعلم:

- ولكنك تعلمين جيداً، أننا نحن الاثنين، حتى مع مرور الزمن، لن نستطيع الانجاب!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وظلّت زوجة «المعلّم» صامتة، فتكملت بدلاً منها، متسائلاً:

- ولكن لماذا يكون الأمر كذلك؟

فأجاب «المعلم»:

- انها عقوبة فرضتها الآلهة!. قال ذلك وهو يقهقه ضاحكاً.

* * *

- ٩ -

وحسب ماكنت أستطيع معرفته عن ذلك، فإن «المعلم» وامرأته كانا زوجين متحدين ومنسجمين تماماً. ولاشك أني لم أكن أحد أفراد الأسرة، وبالطبع لم أكن أستطيع النفاذ إلى داخل حياتهما وفهم أعماقهما. ولكن عندما كان «المعلم» يتحدّث الي في الردهة، كان يحدث أثناء الحديث، أن ينادي ليس الخادمة، بل زوجته. وكان اسمها «شيزو». ولم يكن «المعلم» ينادي أبداً:

- ايه، «شيزو»!.

دون أن يلتفت نحو الحاجز الذي يفصل الردهة عن غرفتها. وكنت أجد في ذلك تعبيراً عن العطف والحنان. كما أن الأسلوب الذي كانت تتّبعه زوجته في الرد عليه وفي المجيء كان يبدو لي طبيعياً جداً. وعندما كنت، بالمصادفة، أبقى لتناول طعام العشاء معهما، وكانت زوجة «المعلم» تظهر في الردهة، كان ذلك التفاهم التام يتأكد أيضاً في نظري بمزيد من الوضوح.

كان «المعلم» يصطحب زوجته، من وقت لآخر، إلى المسرح، وإلى الحفلات الموسيقية. وعلى ماأذكر، فقد كان الاثنان قد قاما برحلتين إو ثلاث رحلات استغرقت كل منها بضعة أيام. ومن مدينة «هاكوني» تلقيت منهما بطاقة بريدية مازلت أحتفظ بها. وخلال رحلتهما إلى مدينة «نيكّو»، تلقيت منهما في احدى الرسائل ورقة دلب حمراء.

هكذا كانت في ذلك الوقت، تبدو لنظري علاقات «المعلم» وزوجته. وقد كان هنالك مع ذلك حادثة مؤسفة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ان للكحول بالحقيقة، هذا المساء، تأثيراً بسيطاً عليّ.
فسألته باهتمام:

ـ ألا تستطيع حقاً أن تجد فيه بعض البهجة والمرح؟

وفي قرارة نفسي، كانت تستقر دون مهادنة، ذكرى المناقشة التي كنت قد سمعتها، ولو كان في حلقي حسكة لسبّبت لي، على ماأعتقد، مثل هذا الألم، ولذلك كنت أتساءل:

ـ هل أبوح له بكل شيء، أم الأفضل ألاّ أقول له شيئاً؟؟

وهكذا كنت أتردد، ولابدّ أن ذلك كان يجعلني أبدو قلقاً بشكل غريب.

وبدأ «المعلم» يتحدّث اليّ قائلاً:

ـ لست هذا المساء مرحاً كعادتك!. كما أنني أنا أيضاً لست كذلك: فأنا أشعر أني منزعج، وفي حالة غريبة من الانهاك!.

ولم أستطع الاجابة بشيء.

فتابع «المعلم» حديثه، قائلاً:

ـ ذلك لأني قد تخانقت قبل قليل مع زوجتي، كان الخناق بسيطاً، ولكن انتهى بي الأمر إل الانفعال والغضب دون جدوى...

ـ أوه!...

كان هذا هو كل ماأجبته به: فقد كانت كلمة «الخناق» هذه، لاتستطيع الخروج من حلقي.

ـ نعم، ان زوجتي تسيء فهمي. هذا ماكنت أشرحه لها، وهذا ماكانت لاتريد فهمه وتقبّله. وفي النهاية زعلت واستأت تماماً!.

ـ ولكن بماذا، وفي أيّ شأن، أيها «المعلم» زوجتك لاتستطيع فهمك؟؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولم يجب «المعلم» بشكل مباشر على هذا السؤال، بل قال:

- لو أنني كنت ذلك الرجل الذي تظنه امرأتي، لما كنت حرياً بأن أعاني وأتألم هكذا!.

ممّ كان «المعلم» يمكن أن يعاني ويتألم، هذا مالم أستطع أن أكوّن عنه أية فكرة.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ هل من الممكن أن أرافقك إلى باب منزلك؟

ولكن «المعلم» أوقفني في الحال، باشارة من يده قائلاً:

ـ أنت ترى أن الوقت متأخر: هيا أسرع بالعودة إلى منزلك!. وأنا عائد بسرعة أيضاً.. من أجل زوجتي!.

هذه العبارة: «من أجل زوجتي» التي أنهى بها «المعلم» جملته، لم تكفّ، ذلك المساء، عن بعث الحرارة في قلبي. وكان من تأثير هذه الكلمات، أني، عندما عدت إلى منزلي، نمت بسرعة نوماً هادئاً. ولم أستطع بعد زمن طويل، أن أنسى تلك العبارة: «من أجل زوجتي».

أن تكون السحابة التي انتصبت بين «المعلم» وزوجته، أمراً قليل الأهمية في الأساس، فان ماذكرته لتوي يكفي للايحاء بذلك. وألاّ يكون ذلك، من جهة أخرى، الاّ حادثاً نادر الوقوع، فإني أستطيع دون أية مجازفة، أن أحكم مسبقاً بذلك، بعد أن عايشتهما ومازلت أعايشهما دون انقطاع. وأكثر من ذلك أيضاً، فقد أسرّ لي «المعلم» بما يلي:

ـ اني لاأعرف الاّ امرأة واحدة في العالم. وليس هنالك أية امرإة، فيما عدا زوجتي، تستطيع اثارتي والتأثير بي. وبالنسبة لها أيضاً، لايوجد أي رجل آخر تحت السماء. ولذلك كان يجب أن نكون، هي وأنا، أسعد زوجين!.

أما بأية مناسبة أسرّ لي «المعلم» بذلك، فإني لم أعد أذكر. كما أنني لاأستطيع أيضاً أن أقول سبب ذلك بوضوح. والأمر المؤكد، هو أن موقف «المعلم» في تلك اللحظة كان ينم عن التحفظ والانكماش، ولهجته كانت جادة ووقورة: ومن كل هذا مازلت أحتفظ بالذكرى.

ولم يكن يتردد في أذنيّ ذلك اليوم الاّ جملته الأخيرة، ذات الرنين والصدى الغريبين: «كان يجب أن نكون، هي وأنا، أسعد زوجين»... فلماذا لم يحدّد «المعلم» بوضوح أنه

وزوجته كانا سعيدين؟ لماذا كان يقول أنه هو وزوجته «كان يجب» أن يكونا سعيدين؟ كان ذلك بالنسبة لي هو الأمر الوحيد الغامض. لأن «المعلم» كان قد ركّز تماماً على هذه الكلمات، وبلهجة تدعو للتفكير. فهل كان «المعلم» حقّاً سعيداً؟ أم أنه وهو الذي لديه كل شيء لكي يكون سعيداً، لم يكن بالحقيقة كذلك؟ لم أكن أستطيع، في قرارة نفسي، التخلص من هذا الشك. ولكن هذا الشك لم يشغل بالي سوى لبرهة وجيزة، ثم لاأدري أين تلاشى.

وبعد مرور بعض الوقت، وعندما كنت على انفراد، في غياب «المعلم»، مع زوجته، أتيحت لي فرصة التحدّث إليها. في ذلك اليوم كان «المعلم» غائباً. فقد ذهب إلى محطة «شينباشي»، لكي يودّع هناك أحد أصدقائه الذي كان ذاهباً إلى «يوكاهاما» لكي يسافر من هناك إلى الخارج. وكان المسافرون الذين يغادرون في ذلك الحين «يوكوهاما» إلى الخارج يستقلون عادة من «شينباشي» قطار الساعة الثامنة والنصف صباحاً. وكان يجب عليّ، أنا، أن أتحدّث مع «المعلم» بشأن بعض الكتب، ولذلك كنت قد أخذت منه قبل ذلك موعداً. على أن أقوم بالزيارة المتفق عليها في الساعة التاسعة. وقد اضطر «المعلم» إلى الذهاب إلى «شينباشي» بصورة طارئة تماماً وغير متوقعة. ففي اليوم السابق، كان صديقة قد أتى لتوديعه، وقد حرص هو على أن يبادله تلك المجاملة. وكان «المعلم» قد قال عند ذهابه أنه سيعود في الحال، وأن عليّ أن أنتظره. وعلى هذه الصورة، أتيحت لي، وأنا أنتظره في الردهة، فرصة التحدّث إلى زوجته.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١١ -

كنت في تلك الفترة قد أصبحت طالباً جامعياً. ومنذ زيارتي الأولى للمعلم في منزله، كنت أجد نفسي، لو أجرينا المقارنة، قد أصبحت أشعر بأني رجل أكثر مما كنت في السابق. وكنت قد أصبحت أيضاً، شيئاً فشيئاً، أتمتع ببعض الألفة والمودة مع زوجة «المعلم». وكنت أرتاح إليها. وفي ذلك اليوم، تحدّثت إليها بأمور مختلفة. والحقيقة أنه لم يتخلل ذلك الحديث أي موضوع خاص يتصف بالأهمية، وكان من الممكن أن أنساه بكامله، ماعدا بعض الجمل التي مازال صداها يتردد في أذنيّ. ولكن قبل التحدّث عن ذلك، هنالك نقطة يجب عليّ التوقف عندها.

كان «المعلم» خرّيج جامعة «طوكيو» الامبراطورية: هذا ماكنت أعرفه منذ بداية علاقتنا. ولكن أن يكون يقضي أوقاته دون أن يقوم بأي عمل، فهذا مالم أعرفه الاّ بعد عودتي الى «طوكيو» بقليل. وأن يستطيع «المعلم» أن يعيش هكذا حياة البطالة، فقد كان بالنسبة لي أمر يبعث على الدهشة.

كان «المعلم»، من الناحية الاجتماعية، مجهولاً من الجميع أما معلوماته، وأفكاره، فقد كنت، بقدر ماأستطيع الحكم على ذلك، الوحيد الذي أدركها عن قرب، ولم يكن هنالك آخر يستطيع بهذا الشكل تقديرها حق قدرها.

وكنت أقول للمعلم لكل مناسبة:

- يا للخسارة!.

ولكنه كان في كل مرة يقاطعني مكتفياً بالقول:

ـ ان رجلاً في مثل وضعي لايستطيع الخروج والاختلاط بالناس والمجتمع، ولاحتى أن يفتح فمه!.

وكنت أجد هذا الجواب ينم عن تواضع مبالغ فيه جداً لدرجة أني كنت أرى فيه مايشبه السخرية بالمجتمع. حقاً، كان هنالك بين أقران «المعلم« القدامى، أناس حققوا الشهرة لأنفسهم. فحتى هؤلاء، كان «المعلم» ينتقدهم من وقت لآخر، دون أدنى حرج. فكنت حينئذ أوضح له بصراحة جارحة التناقض الذي يحصل من احتقاره لنفسه وانتقاده للآخرين. ولم يكن ذلك رغبة مني في معاكسة «المعلم». ولكني كنت أعبّر عن أسفي الشديد أن يكون الناس، نتيجة خطأ «المعلم»، يجهلونه، ويقفون موقف اللامبالاة حياله:

ـ مهما كان رأيك في ذلك، فإني ذلك الشخص الذي ليس له الحق بأن يختلط بالناس ويعاشرهم: وهذا أمر ليس له أي علاج: بهذا القول الذي كان «المعلم» يلفظه بلهجة جادة، كان يحسم الموقف وينهي الحديث.

وكنت لاأدري أي تعبير كان يرتسم حينئذ على وجه «المعلم». أهو اليأس؟ أم الاستياء؟ أم الحزن؟ اني لاأستطيع قول شيء بهذا الخصوص. ولكن ذلك التعبير كان قوياً جداً لدرجة أنه كان يمنعني من الاسترسال في الكلام وينتزع مني الجرأة على قول أي شيء.

وأعود إلى حديثي مع زوجة «المعلم». كان حديثنا، بطبيعة الحال، يدور حول «المعلم»:

ـ إني لاأفهم جيداً موقف «المعلم». لماذا يكتفي بالقيام بمشاغله ويحتفظ بأفكاره في منزله، بدلاً من مخالطة ومعاشرة أمثاله وتقديم المنفعة والفائدة لهم؟

ـ هو؟ أبداً!. انه لايحب الناس.

ـ هل توصّل إلى تلك الدرجة من الحكمة كي يعتبر عبثاً وأمراً لاجدوى منه، كل مايمس الناس والعالم ويتعلق بهما؟؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أوَينو»، وبدلاً من أن تتوجه أنظار الجمهور نحو الزهور، كانت تتجه نحو ذينك الزوجين. وعلّق «المعلم» على ذلك قائلاً:

- أكاد أو أقول أنهما عريسان!.

فأجبته:

- يبدو لي أن الأمور تسير سيراً حسناً!.

ولم تبدر من «المعلم» أية ابتسامة، واتجه في طريق لايبدو منه الزوجان لأنظارنا. ثم سألني:

- هل سبق لك أن أحببت؟

فأجبته:

- كلا!.

- ليس الرغبة في ذلك هي التي تعوزك، أليس كذلك؟

- كلا، بالحقيقة!.

- لقد كنت تسخر قبل قليل، أليس كذلك؟ ولكن وراء تلك السخرية وفي أعماقها، كنت أنت تبحث عن الحب. ولعدم وجود الطرف الثاني الذي يجب أن يبادلك الحب، فقد كان في لهجتك شيئاً لاأدري ماهو، ولكنه ينم عن عدم الاشباع وعدم الرضى!.

- وهل أوحت لك لهجتي بهذا الانطباع؟

- حقاً: عندما يكنّ الانسان في قلبه حباً سعيداً، فالواقع أنه يصبح لصوته نبرة أكثر حرارة!. ولكن.. أصغ إليّ جيداً: ان الحب جريمة. فهل كنت تعرف ذلك؟

ووقفت مذهولاً، لاأجد ماأجيب به على هذا السؤال.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٢ -

كنا نسير بين ذلك الجمهور من الناس. ولم يكن هنالك الاّ الوجوه التي يعلوها البهجة والسرور. ثم ابتعدنا شيئاً فشيئاً، إلى أو وصلنا إلى تحت أشجار لايوجد بينها لاأشجار كرز ولاجمهور، دون أن تتاح لي فرصة العودة إلى الموضوع نفسه. ولكني مع ذلك، ألقيت فجأة هذا السوال:

- أحقاً، الحبُّ جريمة؟

- انه جريمة، بكل تأكيد!.

وكما في السابق، كانت لهجة «المعلم» حازمة وقاطعة، لاتفسح مجالاً للنقاش.

- ولماذا يكون الحبُّ جريمة؟

- لماذا، سوف تفهم ذلك فيما بعد... أقول فيما بعد، ولكنك، في الواقع، يجب أن تفهمه منذ الآن. أقول لك هذا لأن قلبك مضطرب منذ زمن طويل!. فعلاً، لقد تحسست قلبي مرة، وتفحصته. ولكن، على عكس مايمكن توقعه، فقد وجدته خالياً تماماً: ليس فيه، حتى مايمكن أن يشبه الحب!.

- كلا، ليس في قلبي أية صورة للحب الغرامي. وأنا لاأخفي شيئاً، على حد علمي، عن «المعلم»!.

- هذا بالضبط لأن حبك لم يجد غايته لذلك فقلبك مضطرب. وأنت تقول لنفسك أنك لو كان لديك أحد ماتحبه حباً غرامياً، فربما أصبح قلبك أكثر هدوءاً. وفي هذا الوهم انما يضطرب قلبك!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأقل لاتتعرّض لأي خطر. ولكن، صدّقني: يالها من اضطرابات سوف تصبح فريسة لها بمجرد أن تقع في شباك الشعر الأسود الطويل!.

كنت أحياناً أتخيل هذه الاضطرابات: ولكني لم أعانيها. ومهما كان الأمر، فأني لم أكن أفهم ماذا كان «المعلم» يعني بكلمة «جريمة». وبذلك لم أكن أشعر بالارتياح:

- ماذا تعني أيها «المعلم»، بكلمة «جريمة»: اشرحها لي، أرجوك!. أو إذا أردت ذلك، لندع هذا الموضوع، الى أن أكون قد أدركت تماماً معنى كملة «جريمة»، هذه!.

- لقد أخطأت. فقد كنت أريد تعليمك احدى الحقائق: ولكني لم أوفق سوى بجعلك تفقد الصبر. لقد أخطأت.

كنا، أنا والمعلم، ونحن نمر بالمتحف، نسير بخطى بطيئة نحو وادي «أوغيسوداني». ومن خلال الفجوة التي تشكلها الحديقة الواسعة خلف المتحف، كنا نلمح من تلك الجهة، شجيرات الخيزران القصيرة ذات الأوراق العريضة. وكانت تلك الطبيعة توحي بالهدوء العميق.

فاستأنف «المعلم» حديثه قائلاً:

- هل تعلم لماذا أذهب، كل شهر، لزيارة قبر أحد الأصدقاء، والصلاة من أجله، في مقبرة «زوشيغايا»؟ أتعلم لماذا؟

كان هذا السؤال مفاجأة كبرى بالنسبة لي. إذ أن «المعلم» لابد أنه يعرف تماماً أني لاأستطيع الاجابةعليه. ولذلك لزمت الصمت برهة. عندئذ قال «المعلم»، وكأنه لاحظ ارتباكي:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٤ -

وبما أني كنت حديث السن، فاني كنت ميالاً لأجعل نفسي، على العمياء، عبداً لعاطفة واحدة. هذا، على الأقل، ماكان يرتئيه «المعلم». وكنت أحصل على فائدة من أحاديثي مع «المعلم» أكثر مما كنت أحصل عليه من دروس الجامعة. وكانت أفكار «المعلم» أغلى لديّ من آراء أساتذتي. وخلاصة القول، أني كنت أجد للمعلم عظمة لاأجدها لدى كبار العلماء، الذين كانوا من أعلى منابرهم، يعطونني معلوماتهم، هذا المعلم، الذي كان يوالي سيره على طريقه الانفرادي، دون أن يحيد عنه، مكتفياً بأقل قدر من الكلام الموجز والواضح. وقد أفضيت بذلك للمعلم ذات يوم، فقال:

ـ لقد أخطأت وكأنك قد فقدت صوابك!.

ـ كلا، اني لم أفقد صوابي، وقد فكرت في الأمر جيداً: وأنا أعبّر لك الآن عن شعوري الحقيقي!.

وعندما كنت أرد على «المعلم» بهذا الجواب، كان هذا الشعور، بالحقيقة، يفرض نفسه عليّ. ولكن «المعلم» كان يتهمني بالغرور، قائلاً:

ـ انك تتكلم وكأنك تحت سيطرة الحمى. وعندما تزول الحمى، سوف يتبعها القرف. وكونك تكنّ لي هذه المحبة التي لاتكنّها لأحد غيري فان ذلك يسبّب لي بعض الألم. ولكن مجرّد التفكير، أنك فيما بعد سوف تتغيّر بالنسبة لي، يؤلمني أيضاً أكثر...

ـ هل أبدو لك سطحي التفكير ومتقلباً إلى هذه الدرجة؟ وبهذا القدر القليل من الجدية تنظر اليّ؟

- اني أسف فقط للمبالغة التي تتصف بها مشاعرك!.

- انك، باختصار، ترثي لحالي، ولكنك لاتستطيع أن تأخذ أقوالي وتصرّفاتي على محمل الجد: أليس هذا ماتعنيه تماماً؟

عند ذلك بدا الارتباك على «المعلم»، والتفت نحو حديقته، حيث كان يرى، هنا وهناك، مغطياً الأرض، اللون الأحمر لزهور الكاميليا. هذا من زمن غير بعيد، ومع أن تلك الزهور كانت قد اختفت جميعها، ولكن النظر إلى تلك الزهور كان يشكل لدى المعلم نوعاً من الهوس.

- عندما أقول أني لاأشعر بالثقة، فليس معنى ذلك أني أسيء الظن بك بشكل خاص، بل انما أعني أني أسيء الظن بالبشرية كلها ولاأثق مطلقاً بأحد.

في ذلك الوقت، كان يسمع، من الجانب الآخر لسياج الحاجز، مايشبه صوت بائع السمك. وفيما عدا هذا الصوت، لم يكن هنالك سوى السكون. كانت المسافة التي تفصلنا عن الشارع الرئيسي لاتقل عن مائتي متراً. وفي ذلك الممر الضيق المنعزل كان يسود هدوء يصعب تصوّره. وفي البيت أيضاً، كان يخيم نفس الهدوء الدائم. وكنت أعرف، في قرارة نفسيّ، أن زوجة «المعلم» كانت في الغرفة المجاورة، تعمل بصمت في خياطتها أو بأي عمل آخر، وأن صوتي كان يصل إلى أسماعها.ولكني في تلك اللحظة نسيتها تماماً وقلت:

- اذن أنت لاتثق بأحد، حتى ولابزوجتك أيضاً؟؟

فبدا على «المعلم» تعبير ينم عن القلق، وقال متحاشياً أن يردّ بجواب مباشر:

- اني أسيء الظن حتى بنفسي. فإذا كنت لاأثق بنفسي، كيف يمكنني أن أثق بالآخرين؟ اني لاأستطيع شيئاً حيال ذلك، سوى أن ألعن نفسي!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمستقبل أكثر حزناً، فإني أفضل أن أتحمل اليوم قدراً أقل من الحزن. حرية زائدة عن الحد المعقول، واستقلالية أكثر مما ينبغي، والكثير الكثير من الأنانية: ذلك هو عصرنا الحالي. وللتكفير عن خطيئة كوننا ولدنا فيه، فانها لضرورة لايمكن تجنبها، دون شك، أن نتقاسم جميعنا الحزن الناجم عن تلك الخطيئة!.

وحيال مثل هذا المفهوم عن العالم، لم أكن أدري ماذا أقول للمعلم.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٥ -

ومنذ ذلك اليوم، لم أكن ألتقي أبداً بالمعلم الاّ ويأخذ ذهني بالعمل.

فهل كان المعلم يقف من زوجته عادة نفس الموقف الذي يقفه من المجتمع؟ وهل يمكن أن يرضي ذلك زوجته؟ أمّا إذا كانت زوجة «المعلم» سعيدة أم لا، فهذا مالم أكن أستطيع تبيّنه أو الحكم عليه اعتماداً على مظهرها وتصرّفاتها. فلم تكن تتاح لي فرص كثيرة لمراقبتها عن كثب. وكانت زوجة «المعلم» في كل مرّة تبدو طبيعية!. وعلاوة على ذلك، ففي غير حضور «المعلم» لم أكن أراها الاّ نادراً جداً.

كانت شكوكي تتجه أيضاً إلى مجال آخر: هذا الموقف الذي يتّخذه «المعلم» ازاء الناس، من أين كان يأتيه؟ هل مجرّد كونه يتفحص نفسه بتأن وبرود، وبتمعّن يراقب ظروف وأحوال عصره، يمكن أن يكون سبباً كافياً لذلك؟ كان «المعلم» بطبيعته، ميالاً للتأمل الطويل الهادىء: ولكن لنفترض أخيراً وجود مراقب متمرس وموهوب كما كان «المعلم»، فهل يمكن أن يكفي المجرى الطبيعي للتأمل الهادىء في أحوال الناس والعالم لجعله يتخذ مثل هذا الموقف؟ كانت هذه التفسيرات تبدو في نظري غير كافية. ومما لاشك فيه، أن موقف «المعلم» كان موقفاً حياً. وعندما تلتهم النار بيتاً بني بالحجارة، فلا يبقى منه الاّ أطلال أسواره الباردة: ولم تكن تلك هي حالة «المعلم». حقاً لقد كان «المعلم»، في نظري، مفكراً. ولكن ذلك الفكر لم يكن سوى وجه، وكان لهذا الوجه قفا: قفا حقيقة قوية، ممتزجة بعمق، كما يبدو لي، مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«المعلم». كنت راغباً بالاطلاع على أسرار حياة «المعلم»، ولكن لعجزي عن التوصّل إلى ذلك، كنت أتلقّى، أنا أيضاً، وأختزن في نفسي، عن طيب خاطر، كمادة للتفكير نتف الحياة التي كنت أعلم أنها تشغل حيزاً في قلب «المعلم»، كذلك القبر ، على سبيل المثال. ولكن، بالنسبة لي، فقد كان ذلك القبر شيئاً ميتاً تماماً. وباب الحياة الذي كان ينتصب بين «المعلم» وبيني، كيف يمكن لذلك القبر أن يقدّم لي مفتاحه؟ لقد كنت أرى فيه، بدلاً من ذلك، وحشاً مخيفاً، يقف حائلاً بين قلبينا، ويغلق المرور بينهما.

وفي ذلك الحين، شاءت المصادفة أن يكون لي مع زوجة «المعلم» حديث جديد. كان ذلك في تلك الفترة التي يصبح فيها النهار قصيراً، حيث لايستطيع أحد أن يمتنع عن توجيه كل اهتمامه في فصل الخريف للأعمال الملحّة والمستعجلة. وكان قد بدأ يبرد الجو، وحدث أثناء ذلك أن سرقت، خلال يومين أو ثلاثة أيام متوالية، عدة بيوت مجاورة لبيت «المعلم». وكانت السرقة تحدث، في كل مرّة، ليلاً. وليس معنى ذلك أن اللصوص كانوا يسرقون أشياء ثمينة. ولكن لم يحدث أن زار اللص أحد المنازل دون أن يسرق منه شيئاً. وقد استولى الخوف على زوجة «المعلم» بسبب ذلك.

وفي غضون ذلك، اضطر «المعلم» للتغيب عن المنزل، ذات مساء. فقد كان أحد أصدقائه اليابانيين، وهو طبيب في أحد مستشفيات الريف، قد حضر إلى طوكيو، وأقام له أصدقاؤه حفلة عشاء. وبعد أن أوضح لي «المعلم» سبب تغيبه، طلب مني أن أحرس المنزل حتى عودته. فقبلت القيام بهذه المهمة دون تردد وبكل حماس.

* * *

- ١٦ -

وصلت إلى المنزل مساء، ولم تكن المصابيح قد أشعلت بعد. ولكن «المعلم»، وهو الدقيق جداً بشأن المواعيد، كان قد غادر المنزل.

وقالت زوجته وهي تدعوني لدخول المكتب:

- لقد خشي زوجي أن يتأخر عن موعد الحفلة: وقد ذهب للتوّ!.

كان هنالك بالاضافة إلى المنضدة والكراسي، عدد كبير من الكتب، التي كانت بغلافاتها الجميلة، تتلألأ في النور، عبر زجاج المكتبة. ودعتني زوجة «المعلم»للجلوس على احدى الأرائك، قرب الموقد، ثم قالت وهي تغادر المكتب:

- يوجد هناك كثير من الكتب، أرجو أن تقرأ منهامايروق لك.

كنت أحاول أن أتظاهر بيني وبين نفسي وكأنني شخص يقوم بزيارة رسمية، وقد جلس ينتظر عودة صاحب المنزل. وكان ذلك يزعجني، فأخذت أدخّن بصورة متكلفة تنم عن الارتباك. وكنت أسمع، من جهة الصالون الصغير، صوت زوجة «المعلم» وهي تتحدث مع الخادمة. كان المكتب يقع على نفس الممر الذي يقع فيه الصالون الصغير، وفي أحد منعطفات هذا الممر: أي آن مخطط البيت نفسه قد خصّه بمكان منزو أكثر من مكان الصالون الكبير، وبالتالي فقد كان أكثر هدوءاً. وسكت صوت ربة البيت، فساد الصمت والهدوء كل أرجاء المنزل. كنت شديد الشعور بمسؤولية مهمتي، ولذلك كنت أوزّع انتباهي بين كافة جوانب البيت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبعد نصف ساعة، عادت زوجة «المعلم» إلى المكتب، وبدرت منها صرخة تنمّ عن الدهشة، كما بدا ذلك واضحاً في نظراتها: وأدركت أن بقائي محتفظاً بملابسي وبوضعي الرسمي كشخص يقوم بزيارة رسمية كان يدهشها، خاصةً عندما قالت:

ـ ولكن لابد أنك غير مرتاح، هكذا!..

ـ كلا، أبداً!.

ـ على أية حال، لابدّ أنك تشعر بالملل!.

ـ كلا، اني أفكّر باحتمال دخول اللص في أية لحظة وبشكل مفاجىء، وشدّة انتباهي الى ذلك تطرد عني الملل!.

وأخذت زوجة «المعلم» تضحك، وهي تقف، دون أن تبدر منها أية حركة، حتى أنها لم تضعِ من يدها فنجان الشاي الذي جلبته لي.

فقلت عند ذلك:

ـ ليس هنالك سوى أن هذه الغرفة منزوية وبعيدة أكثر مما ينبغي عن بقية غرف المنزل، ولايمكن لمن يقيم فيها أن يحرس المنزل بشكل جيد!.

ـ إذا كان الأمر هكذا فأنا أعتذر عن ذلك، وسأجعلك تقيم في غرفة تتوسّط المنزل. وللترفيه عنك، جلبت لك قليلاً من الشاي: فإذا أردت ذلك، فإني سأقدّمه لك في الصالون الصغير!.

وانتقلت إلى الصالون الصغير، ترافقني زوجة «المعلم». وعلى موقد جميل كان ابريق الشاي يرسل لحناً عذباً. وهنالك قدّمت لي الشاي والحلوى. ولكن زوجة «المعلم» لم تمسّ فنجانها، خشية أن يمنعها الشاي من النوم.

ـ هل يحدث للمعلم أن يخرج هكذا، من وقت لآخر؟

ـ كلا، أبداً على وجه التقريب . خاصة منذ بعض الوقت، إذ يبدو أن مجرّد رؤية الناس أصبحت أمراً مزعجاً بالنسبة له.

ولم يبد على زوجة «المعلم» أي أثر للقلق وهي تقول ذلك، فتشجّعت على متابعة الحديث، قائلاً:

ـ في هذه الحالة، تكونين أنت، الاستثناء الوحيد!.

ـ كلا: اني مثل الآخرين تماماً لاأكثر ولاقل!.

فقلت لها: انك مخطئة، وتعلمين جيداً أنك مخطئة، أليس كذلك؟

ـ كلا. ولكن لماذا أكون مخطئة؟

ـ اسمحي لي أن أصارحك بفكرتي: ان «المعلم» يحبك بالقدر الذي يكره به الناس تماماً!.

ـ يبدو أن الدراسة جعلتك ماهراً في تكوين الأفكار واطلاق الأحكام، حتى الفارغة منها. وأن يكون زوجي يكرهني بقدر مايكره الناس تماماً، فهذا القول يمكن أن يصح أيضاً ويكون سليماً جداً استناداً إلى نفس المنطق!.

ـ ان القولين يمكن أن يصحّا أيضاً ويكونان منطقيّين. ولكن هنا، وفي هذه الحالة، أنا المصيب!.

ـ كلا، لاحاجة للمناقشة!. ان الرجال يحبون كثيراً المناقشات الفارغة: وكأن في ذلك أقل متعة!. ان هذا الأمر بالنسبة لي كالقول بأننا يمكن أن نكتفي ونرضى بتبادل الأنخاب والكؤوس الفارغة إلى ما لانهاية!.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان في تلك الكلمات نبرة عنف. ومع ذلك، فانها لم تكن تصدمني بشيء وأنا أسمعها. ذلك لأن زوجة «المعلم» لم تكن تتحدّث بزهو وغرور، رغبة منها بأن تثبت أنها تتمتع بعقل كبير. فهي لم تكن عصرية إلى هذه الدرجة، بل هي أبعد ماتكون عن ذلك. ولكنها كانت، بدلاً من ذلك، تحترم «الحقيقة» الكامنة في قرارة الأمور والأشياء، ولذلك فهي تحرص كثيراً على أن تجعل الآخرين يحترمون أيضاً هذه «الحقيقة» نفسها.

* * *

- ١٧ -

لم يكن معنى ذلك أنه لم يكن قد بقي لديّ ماأقوله. ولكن ماكان يزعجني هو أن تعتبرني زوجة «المعلم» شخصاً يدعوها للدخول في مناقشات فارغة.

ولذلك التزمت جانب الحذر والتحفّظ. وأخذت أتأمل بصمت فنجاني الفارغ. ولكن زوجة «المعلم» سألتني، وكأنها تريد بذلك أن تضع حداً لانزعاجي:

- هل تريد مزيداً من الشاي؟

وفي الحال قدّمت لها فنجاني.

- كم قطعةِ سكر تريد: واحدة؟ اثنتين؟

كانت زوجة «المعلم» تنظر إليّ وقد رفعت بيدها ملقط السكر. لم تكن بالحقيقة قد ذهبت إلى حد التملق والتودد لي: ولكنها كانت تبدو بالنسبة لي في غاية اللطف وهي تحاول جاهدة ازالة أثر كلماتها القاسية السابقة.

وأخذت أرشف الشاي صامتاً، وبعد أن فرغت من ذلك، كنت مازلت ملتزماً الصمت. عند ذلك قالت لي زوجة «المعلم»:

- ها أنت مازلت غارقاً في صمت عميق.

فأجبتها:

- لو تكلمت، فانك سوف تتّهمينني مرة أخرى بالشروع بالمناقشة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فكرّرت زوجة «المعلم» الاعتراض مرتين، قائلة:

كلا، كلا.

وهكذا، بعد أو وصلنا ماانقطع، استأنفنا حديثنا. ولاهتمامنا المشترك بالمعلم، فقد أخذنا نتحدّث عنه.

- أرجوك أن تسمحي لي بالعودة إلى نفس موضوعنا الذي كنا نتحدّث فيه قبل قليل.ولاأعلم إذا كان ماسأقوله لن يقع على مسامعك وكأنه أيضاً رأي تافه وحجة فارغة، ولكن الأمر المؤكد هو أنني أبعد ماأكون عن التكلم دون روية وتفكير، كمن يلقي الكلام جزافاً!.

- حسناً، هيا تكلم!.

- لنفترض أنك قد فارقت الحياة، فهل تعتقدين أن «المعلم» يستطيع الاستمرار في العيش وكأن شيئاً لم يحدث؟؟

- ياله من سؤال!. كيف تريد مني أن أعلم ذلك!؟ انّ هذا السؤال يجب أن يوجه إلى زوجي: وهو وحده الذي يستطيع الاجابة عليه. وعلى أية حال، هذا السؤال لايلقى عليّ أنا!.

- إني أتكلم جدياً. فلا تتهربي من الاجابة، وأرجو أن تجيبي بكل صراحة!.

- إني لاأتهرب من الاجابة. وبكل صراحة وصدق، أنا لاأعرف!.

- والآن قولي لي: الى أي مدى يصل حبك للمعلم؟ فهذا السؤال لاتعود الاجابة عليه للمعلم، بل تعود إليك.ولذلك أطرحه عليك أنت!.

- لست بحاجة، على ماأعتقد، لالقاء مثل هذا السؤال عليّ!.

- ألاّ أكون بحاجة لالقاء مثل هذا السؤال عليك، فهذا يعني تماماً أن حبك للمعلم هو أمر بديهي، أليس كذلك؟

- نعم، انه كذلك، تقريباً!.

ـ ولكن لو فارقت الحياة، أنت التي تحبينه بكل اخلاص، ماذا سيحدث للمعلم؟ في هذا المحيط الذي حيثما التفت فيه، لايجد الاّ الحزن يحاصره من كل الجهات، فإذا فارقت الحياة، أنت، كيف ستصبح حاله؟؟ لاتجيبيني من وجهة نظر «المعلم»، بل من وجهة نظرك، أنت. فما قولك: من وجهة نظرك الخاصة، هل سيكون «المعلم» سعيداً، أم تعيساً؟

ـ من وجهة نظري أنا، الأمر واضح.وأنا أجهل فيما إذا كان شعور زوجي لايختلف عن شعوري، ولكني أعتقد أني إذا فارقته، فلا يمكن الاّ أن يكون تعيساً. بل ربما أدى به الأمر إلى عدم استطاعته الاقتناع بمتابعة العيش. وأنا أعلم أني، وأنا أقول هذا أبدو وكأنني أمتدح نفسي: ومع ذلك فاني أعتقد أني أوفّر لزوجي، كرجل، أكبر قدر ممكن من السعادة. وأنّ أي شخص في العالم لايستطيع أفضل مني أن يجعله سعيداً: فهذا أمر متأكدة منه تماماً: وهذا مايجعلني أحافظ على هدوئي التام.

ـ إن اقتناعنا بمثل هذه القوة لايمكن، على ماأظن، الاّ أن يولّد له صدى في قلب «المعلم»!.

ـ آه، ان هذه مسألة أخرى!.

ـ هل تعنين بذلك، في نهاية المطاف أن «المعلم» لايحبك؟

ـ لاأظن أني لست محبوبة: فربما ليس هنالك أي سبب لذلك.ولكنه يكره الناس، ويبدو لي أنه، منذ بعض الوقت، أكثر من الناس أيضاً، أخذ يكره البشرية بأجمعها. وأنا كذلك جزء من البشرية: فلماذا، على هذا الأساس لايكرهني أنا أيضاً؟؟

فبأي معنى كانت زوجة «المعلم» يمكنها القول أنها ليست محبوبة، هذا أخيراً مافهمته حينئذ.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٨-

واستولت عليَّ دهشة كبيرة من هذا الفهم العميق. وأن تكون زوجة «المعلم» ضعيفة الانتماء بهذا القدر الى «اليابان القديمة» فهذا ماكان يسبب لي مايشبه الصدمة. ولكن زوجة «المعلم» كانت، في نفس الوقت، تتحاشى دائماً، على وجه التقريب، استخدام المفردات الحديثة والعصرية، التي كانت قد أصبحت، في تلك الفترة، شائعة الاستعمال.

لم يكن لي أية خبرة في مجال العلاقات الحقيقية مع النساء: وفيما يتعلق بذلك، كانت مرحلة شبابي خرقاء وتتّسم بالغباء. ولاشك في أن الرجل الذي كان يستيقظ في داخلي، كان يتّجه غريزياً نحو المرأة، وكانت لديَّ رغبة غامضة تجعلني أحلم دائماً بالمرأة. ولكن كانت تلك حالة نفسية مشابهة تماماً لتلك الحالة التي تجعلك تتأمّل باعجاب سحب الربيع المحبوبة: فقد كنت أحلم، ولاشيء سوى ذلك. كما أنني، عندماكانت تتحوّل أحلامي مجسَّدة امرأة حية، كثيراً ماكان يحدث لي أن تتبدّل مشاعري وعواطفي وتنقلب رأساً على عقب: فبدلاً من أن تجذبني تلك المرأة الحيّة، كنت أشعر بوجود قوة غريبة ومعاكسة تتصاعد في داخلي، تبعدني عنها، وتجعلني في الجانب الآخر المقابل لها.ولكن أمام زوجة «المعلم» لم أكن أشعر بشيء من ذلك. وهنالك عادة، بين الرجل والمرأة، عدم مساواة أساسية في مستوى الأفكار. أمّا مع زوجة «المعلم» فإني لم أكن أشعر بهذا الفرق. وكنت أنسى فيها المرأة التي كانت تجسّدها، والشيء الوحيد

الذي كان يسترعي انتباهي لديها كانت نظرتها الصادقة والمخلصة لزوجها والوفاق العميق الذي كانت تعيش فيه معه.

ـ لقد مضى زمن طويل على الحديث الأخير الذي أجريته معك على انفراد، الذي سألتك خلاله لماذا تخلى «المعلم» عن كل نشاط اجتماعي. وقد أجبتيني حينئذ، بأنه لم يكن هكذا في السابق...

ـ نعم، هذا صحيح: لقد كان في السابق مختلفاً تماماً، كما تعلم!.

ـ وكيف كان حينذاك؟

ـ لقد كان كما نرغب أنت وأنا أن يكون قد بقي حتى الآن: رجلاً يمكن الاعتماد عليه بكل ثقة وأمان!.

ـ ولكن كيف يمكن أن يتغيّر طبع كهذا، بشكل مفاجيء؟

ـ أوه كلا، ليس بشكل مفاجيء!. لقد تغيّر بالتدريج!.

ـ وخلال ذلك الوقت، أنت لم تفارقي «المعلم» أبداً، أليس كذلك؟

ـ كلا، بالتأكيد: ألسنا زوجاً وزوجة؟

ـ اذن، فأنت لابدّ تعرفين سبب ذلك التغيّر، أليس صحيحاً؟

ـ هذا هو بالتحديد الأمر الذي يسبّب لي حرجاً كبيراً. اني بالحقيقة منزعجة جداً لأني لاأعلم بماذا أجيبك. ولكن كيفما قلّبت أفكاري، فاني لاأتوصّل إلى ادراك ذلك. أمّا هو، فكم مرّة حتى اليوم توسّلت إليه ان يفتح لي قلبه!.

ـ وماذا كان «المعلم» يقول؟

ـ انه لايخفي عني أيّ سر، وأني لايجب أن أقلق مطلقاً، وأن طباعه وحدها هي المسؤولة عن ذلك... كانت تلك هي أجوبته الوحيدة على الدوام: ثم ينسحب ويتوارى في الحال.

كنت ألزم الصمت... وكذلك زوجة «المعلم» لم تعد تقول شيئاً. والخادمة، في غرفتها، لم تكن تحدث أية جلبة. وقد نسيت، أنا، تماماً، اللص الذي كان يمكن أن يأتي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفجأة سألتني «زوجة المعلم»:

ـ انك تعتبرني مسؤولة بعض الشيء، أليس كذلك؟

ـ أنت؟ كلا!. هكذا أجبتها، عند ذلك قالت:

قل لي ذلك دون مواربة!. أمّا أن يكون الحكم عليّ هكذا، فانه سيؤلمني كما لو أنني أفرم وأنا حيّة. فأنا كما أنا، ولكني أشعر أني أعمل من أجله كل مايمكنني عمله من الناحية الانسانية!.

ـ أمّا هذا، فان المعلم يعترف به. وأنا متأكد من ذلك. كوني مطمئنة: وأنا أضمن لك أن هذا صحيح!.

وأخذت زوجة «المعلم» تسوّي رماد الموقد ثم أضافت قليلاً من الماء إلى ماكان في ابريق الشاي، فكفّ عن ارسال أنغامه السابقة.

بعد ذلك استأنفت حديثها قائلة:

ـ كان ذلك الوضع قد أصبح أخيراً ثقيل الوطأة عليّ لدرجة أني طلبت منه أن يقول لي بصراحة إذا كان يلاحظ أني أرتكب بعض الأخطاء. وإذا كان يجد لي مثل هذه الأخطاء، وكان من الممكن اصلاحها، فإني أعد بالقيام باصلاح تلك الأخطاء، بل وباصلاح كل تصرّفاتي وسلوكي. فقال لي: «كلا، كلا، ان الأخطاء هي من جانبي فقط!.» وعندما ردّ عليّ بهذا الجواب ترغرغت عيناي بالدموع. وكم كنت أودّ، بمزيد من الصدق والاخلاص لو كان ذلك ممكناً، أن يكون قد اكتشف لي حقاً بعض الأخطاء!.

وحينما كانت زوجة «المعلم» تقول ذلك، كانت عيناها طافحتين بالدموع.

* * *

كنت أتحدّث في البداية مع زوجة «المعلم» وكأنها لم تكن الاّ العقل المجرّد بعينه. ولكن بينما كنت أتحدّث اليها انطلاقاً من هذه القناعة، لاحظت أن موقفها أخذ يتبدل شيئاً فشيئاً. فلم تعد كلماتها تتوجّه لعقلي وحده، بل أخذت تؤثر في قلبي أيضاً. ولم يكن بينها وبين زوجها ماينم عن أي خلاف أو اضطراب: وماذا يمكن أن يكون هنالك؟ ومع ذلك فقد كان يوجد شيء من الاضطراب. وكونها تجعل تظراتها مصوّبة باصرار لكي تحاول أن تتبيّن شيئاً مافي ذلك اللاشيء، فهذا ماكان يشكل لدى زوجة «المعلم» الموضع الأشد ألماً.

وماكانت قد صرّحت فيه في البداية، هو أن النظرة المتشائمة التي يرى «المعلم» من خلالها الناس كانت تكفي لكي تفسّر أن حب «المعلم» لها لايمكن أن يبلغ درجة الكمال. ولكن قلبها لم يكن يركن لهذا التصريح لكي ينعم بالهدوء والاطمئنان. ذلك لأنها في قرارة نفسها كانت تظنّ عكس ذلك تماماً. إذ أن ماكانت تتخيله هو أن «المعلم» لأنه لايحبها، قد ذهب به الأمر، نتيجة لذلك، الى عدم محبة أحد في مجتمع بني البشر. ولكنها مهما بذلت من جهد وعناء لتثبيت هذه الفرضية، فانها لم تكن تتوصّل أبداً للتحقّق من سلامتها. فقد كان موقف المعلم مثالياً من جميع جوانبه: متحلّياً بالانتباه والرعاية واللطف. بينما كانت هي، تغلّف شكوكها، وكأنها نواة، بمجموعة من الملاطفات اليومية وتحتفظ بها مكتومة بين خفايا قلبها. في ذلك المساء فقط، باحت زوجة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«المعلم» أمامي بما كانت تكتمه جيداً حتى ذلك الحين. فقد قالت مستأنفة حديثها:

ـ هيا، قل لي: هل بسببي، أم بسبب ماتسمّيه مفهومه للحياة، كان تبدل طباعه بهذا الشكل؟ أرجو أن تقول لي رأيك بكل صراحة ووضوح!.

لم أكن بالحقيقة أقصد أن أكتم أي شيء من مشاعري. ولكن إذا كان هنالك حقاً مفتاح وحل لذلك اللغز، لاأملكه، فهنالك أيضاً احتمال كبير أن يظل جوابي، أياً كان شكله، عاجزاً عن ارضاء زوجة «المعلم». احتمال كبير.

وبكل صدق زقول أنه كان في كل ذلك، جوانب وأمور، كنت أجهلها ولم أستطع التوصّل إلى تبينها. ولذلك أجبتها:

ـ ان الأمر ليس واضحاً في نظري!.

ورأيت نفس التعبير الحزين الذي كان يبدو على زوجة «المعلم» عندما كانت تشعر بخيبة الأمل، يظهر فوراً على وجهها. وبسرعة، أكملت التعبير عن فكرتي:

ـ على كل حال، ليس معنى ذلك أن «المعلم» لايحبّك: فهذا أمر أؤكده لك وأقسم على ذلك!. ولاأقول لك الآن شيئاً لم أسمعه من فم «المعلم» نفسه. وهو ليس، على ماأعلم، بالرجل الذي يكذب!.

ـ ولم تجبني زوجة «المعلم». ولكنها بعد برهة، قالت:

ـ بالحقيقة، لديّ ذكرى تجعلني أمعن التفكير...

ـ هل لذلك علاقة مع التغيّر الذي طرأ على «المعلم»؟

ـ هنالك علاقة مؤكدة. وإذا كان من الممكن أن يكون ذلك هو السبب الوحيد لذلك التغيّر، فاني، على الأقل، لن أشعر بأني مسؤولة عن شيء في ذلك، ويزول الهم عن قلبي ويرتاح!.

- ماذا تقصدين بذلك بالضبط؟

كانت زوجة «المعلم» تودّ الكلام ولكنها كانت مترددة، وقد وضعت يديها على ركبتيها وثبّتت نظراتها عليهما. وأخيراً قالت:

- سأتكلّم: وعليك أن تحكم!.

- سأصارحك بشعوري، وعسى أن أكون جديراً بالحكم!.

- لاأستطيع أن أروي لك كل شيء: فهذا غير مسموح لي به. ولكنني أستطيع أن أبوح لك بما هو مسموح لي أن أقوله.

كنت أزدردّ لعابي وأنا شديد الانتباه.

- عندما كان زوجي لايزال في الجامعة، كان له صديق ودود. وقبل أن يتقدّم إلى فحوص التخرّج، مات هذا الصديق... لقد مات فجأة...

ولم يعد عند ذلك صوت زوجة «المعلم» في أذنيّ سوى تمتمة خافتة. ثم أضافت.

- الحقيقة، أنه لم يمت ميتة طبيعية!... ولكنها قالت ذلك بلهجة لايمكن للمرء لدى سماعها الاّ أن يسأل كيف مات صديق المعلم.

- هذا كل ماهو مسموح لي بقوله. ولكن عندئذ أخذت طباع المعلم تتغيّر شيئاً فشيئاً. فماذا كان السبب الحقيقي لموت ذلك الصديق، هذا مالا أعرفه. ومع ذلك، فاننا إذا اعتقدنا تماماً أن تغيّر طباع «المعلم» انما قد بدأ مع تلك القضية ومرتبط بها، فلن تكون هذه الفكرة غير صائبة!.

- هذا الصديق هو المدفون في مقبرة «زوشيغايا»؟

- ليس مسموحاً لي الاجابة على هذا السؤال، ولن أفعل ذلك. ولكن قل لي: هل مجرّد كون المرء قد فقد صديقاً عزيزاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يمكن أن يفسّر أو يبرّر تغيّره بهذا القدر؟؟ هذا ماأتحرّق لمعرفته، وهذه هي النقطة المحدّدة التي أودّ أن أطلب منك ابداء رأيك بشأنها!.

كنت بالأحرى أميل إلى الحكم بأن ذلك لم يكن تفسيراً أو مبرّراً كافياً للتغيّر الذي طرأ على طباع «المعلم».

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان «المعلم» يبدو مرحاً. ولكنّ صوت زوجته كان يعبّر أيضاً عن مزيد من المرح. مع أنها قبل لحظة فقط، كانت عيناها الجميلتان طافحتين بالدموع، وحاجباها السوداوان مقطبين تماماً: وأنا الذي رأيتها هكذا قبل قليل، أخذت أتابع بانتباه شديد هذا التحوّل العجيب حقاً. فإذا كان حديثها الذي أسرّته لي لم يتضمّن في أساسه بعض الكذب، وأنا بالحقيقة لاأعتقد أن فيه شيئاً من ذلك، فان افتراضاً آخر قد تبادر إلى ذهني: فماذا لو كانت زوجة «المعلم» لم تبثّ لي شكواها بالمصادفة، الاّ لمجرّد التسلية والترويح عن نفسها عاطفياً، معتبرة اياي مشاركاً معها في أمور واهتمامات نسائية تماماً!. يا آلهي، لم يكن من المستحيل اعتبار الأمر هكذا! ولكني في الحال توقفت عن التفكير في ذلك ولم أذهب بعيداً في تحليلي. فقد كان موقف زوجة «المعلم»، الذي أصبح على الفور رائعاً، يبعث الاطمئنان في نفسي: وأخذت أفكر بأنه ليس هنالك أية حاجة للمبالغة بالهموم والوساوس التي كانت تساورني بشأنها!.

وأثناء ذلك، قال لي «المعلم» ضاحكاً:

- أشكرك على المشقة التي تحمّلتها!. وماذا عن اللص، ألم تره؟؟ ثم أضاف قائلاً:

- ألم تصب بشيء من خيبة الأمل لأنه أخلف موعده معك؟؟

وبينما كنت أهمّ بالانصراف مودّعاً، قالت لي زوجة «المعلم» وهي تحيّيني:

- اني أعبّر لك عن أسفي...

ولكنّ لهجتها كانت تدعو إلى الالتباس وتحتمل تأويلين: فهل كانت آسفة لأني، لكي أؤدي لها خدمة، قد أهملت عملي ومشاغلي، أم أنها كانت آسفة لأن اللص لم يأت إلى منزلها تلك الليلة، كما أتى في الليالي السابقة إلى

بعض المنازل الأخرى؟؟ لقد بدا لي أن المقصود هو بالأحرى، المعنى الثاني، وكان وقع ذلك في أذنيّ كما لو أنها أرادت أن تمازحني.

وبينما كانت زوجة «المعلم» تقول ذلك، سلّمتني، يداً بيد، علبة حلوى. فوضعتها في جيبي، وأسرعت الخطى، في تلك الليلة الباردة، سائراً في الأزقة الضيقة المتعرّجة، حيث يندر وجود المارّة، متّجهاً نحو الشوارع التي تذخر بالحركة والحيوية.

وماكان قد حدث في تلك الأمسية، عمدت الى استعادته من ذاكرتي لكي أكتبه هنا بكل دقّة: لأن له أهمية أساسية. ولكن والحق يقال، عندما عدت ومعي الحلوى التي أعطتني اياها زوجة «المعلم»، لم أكن أشعر بأهمية حديثنا. وكل ماهنالك، أني في اليوم التالي، بعد انتهاء الدروس، عندما عدت لتناول طعام الغداء، وجدت على مائدتي الحلوى التي جلبتها بالأمس. وبسرعة، اخترت قطعة منها، بالشوكولا. وبينما كنت ألتهمها، كنت أفكّر أن الزوجين الذين أهدياني اياها كانا في هذا العالم زوجين سعيدين حقّاً. وكانت تلك القناعة تضيف نكهة خاصة إلى طعم الحلوى.

وانتهى فصل الخريف وحل الشتاء، دون أن يحدث أيّ حادث يستحق الذكر. واغتنمت فرصة زياراتي لبيت «المعلم» كي أطلب من زوجته أن تؤدّي لي خدمة بسيطة وذلك بمساعدتي على اصلاح بعض ملابسي اليابانية: «الكيمونو» وتجديدها. ولم أكن حتى ذلك الحين قد ارتديت ملابس داخلية يابانية.ومنذ ذلك الوقت اعتدت أن أرتدي فوق ملابسي الداخلية «كيمونو» داخلي له ياقة سوداء. وكانت زوجة «المعلم» تقول لي أن هذا العمل يعتبر تسلية لها، لأنها لم ترزق أيّ طفل، بل ان انصراف نشاطها إلى ذلك، كان مفيداً لها من الناحية الصحيّة:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ان هذا قد حيك باليد، ولم يسبق لي حتى اليوم أن خطت أي «كيمونو» بلحمة مثل هذه الكثافة!. ومن الصعب جداً خياطته: إذ أن الابرة لاتنفذ منه، ولقد كسرتها مرّتين!.

هذا ماكانت تقوله، معبّرة عن بعض الشكوى: ولكن لم يحدث أبداً أن استقبلتني ببرود.

* * *

- ٢١ -

ورأيت نفسي مضطراً في ذلك الشتاء للعودة إلى بلدي في الريف. فقد كان والدي مريضاً منذ زمن طويل. وكانت والدتي قد كتبت لي، ذاكرة كل التفاصيل، بأن حالته الصحية تزداد سوءاً. لم يكن هنالك أيّ خطر مباشر: ولكن السن هي السن، وبقدر الامكان، كان عليّ أن أدبّر أموري من أجل العودة. فقد كانت رسالة والدتي تتضمّن مايشبه الرجاء.

كان والدي يشكو من مرض في الكلى، وقد أصبح ذلك المرض مزمناً، كما يحدث غالباً للمتقدّمين في السن. والحقيقة أنه مع الكثير من الاحتياطات المتأنية، لم يكن هنالك أية خشية من أن تزداد حالته خطورة بشكل مفاجيء: كان أبي على يقين من ذلك، على الأقل، هو وكل أقاربنا. وهكذا فإن أبي بفضل نظام الحمية الذي كان يتبعه، قد قاوم المرض، بشكل أو بآخر، وكان يتباهى بذلك، حتى أمام أولئك الذين كانوا يأتون لزيارته. ولكنه، كما قالت أمّي في رسالتها، خرج ذات يوم إلى الحديقة، وأخذ يقوم ببعض الأعمال، وهنالك أصيب بدوار مفاجيء وسقط على الأرض. وقد اعتبرت الأسرة الأمر، في ذلك الحين، مجرّد نوبة بسيطة، وأعطيت له على عجل الأدوية والمعالجة المعتادة في مثل هذه الحالة. ولكن بعد مرور بعض الوقت، استبعد الطبيب فرضيّة النّوبة، ورأى في ذلك، بما يشبه اليقين، أحد أعراض اصابة في الكليتين. وهذا ماأقنع أقاربي أن ذلك الاغماء ماهو الاّ نتيجة لالتهاب الكليتين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولم يكن قد حان موعد عطلة رأس السنة، ولذلك لم أر في بداية الأمر، أيّ مانع من التريّث وتأجيل السفر حتى نهاية الفصل المدرسي. وأرجأت ذلك، يوماً أو يومين. ومع ذلك؛، فان صورة والدي وهو مستلق في سريره وصورة وجه أمي القلق كانتا تساوراني في بعض اللحظات، وهذا ماكان يجعلني أشعر بالقلق الشديد. ولذلك قرّرت العودة إلي بيت أهلي. بقيت مسألة نفقات السفر. ولكي أتحاشى أن أسبّب لأهلي ازعاجاً لاطائل تحته، وأكسب بعض الوقت، فكرت أن أطلب من «المعلم» عند ذهابي لتوديعه، أن يقر ضني بعض النقود.

كان «المعلم» يشعر أنه مصاب بالزكام. وقد فضّل عدم المرور في الصالون، فأدخلني الى المكتب. وكان من الصعب جداً أن نرى، منذ بداية الشتاء، نوراً أكثر جمالاً وأشدّ عذوبة، من ذلك النور الذي كان يتسرّب من النافذة ويقع على غطاء المنضدة. وفي تلك الغرفة التي تغمرها تماماً أشعّة الشمس، كان «المعلم» قد أمر بوضع منقل كبير، وفي داخله على منصب صغير، اناء مملوء بالماء، الذي كان بخاره يقي البلعوم من الجفاف.

وقال «المعلم» وهو يرفع نظره نحوي، مبتسماً ابتسامة ساخرة:

ـ المرض الحقيقي يمر وينقضي كذلك: ولكن الزكام هو بالحقيقة أمر مزعج.

ولم يكن قد سبق للمعلم أن أصيب بمرض يمكن بسببه اعتباره «مريضاً»، ولذلك عندما سمعت ماقاله، شعرت برغبة حقيقية بالضحك، وقلت:

ـ أمّا أنا، فاني أرى عكس ذلك: فالزكام يذهب أيضاً، ولكنّ المرض الحقيقي، آه شكراً!. وأظن أن الأمر بالنسبة للمعلم لايختلف عن ذلك في شيء: أجر التجربة، وسوف ترى!.

- آه، حقاً!.. أنا، فيما لو مرضت، أتمنى أن أموت عند ذلك!. لم أعر أيّ انتباه لكلمات «المعلم». ودون أن أنتظر أكثر من ذلك، حدّثته عن رسالة أمّي وطلبت منه أن يقرضني المبلغ الذي كنت بحاجة اليه:

- اني أتفهّم متاعبك. وإذا كان المطلوب ليس سوى مبلغاً صغيراً، فلابدّ أن يكون بحوزتي هنا في المنزل، وسوف تحصل عليه!.

ونادى «المعلم» زوجته، وطلب مني أن أعدّ النقود التي أحضرتها من الغرفة الداخلية، بعد أن أخرجتها من درج خزانة صغيرة، ووضتها بعناية أمامي على قطعة من الورق الأبيض، قائلة:

- لابدّ أنّك قلق جداً!.

وسألني «المعلم»:

- هل وقع والدك عدّة مرّات؟

- لاتذكر الرسالة شيئاً من ذلك، ولكن، أيمكن في هذه الحالة أن يقع المريض مرّات عديدة، مغمياً عليه؟

- نعم، بالتأكيد!.

كانت حماة «المعلم» قد أصيبت بنفس المرض الذي يعاني منه والدي: هذا ماعلمته حينئذ.

- على أية حال، فان هذا المرض لايرحم، أليس كذلك؟

- أخشى أن يكون الأمر كذلك.ولو كنت أستطيع أن أحلّ محل أبيك، لفعلت ذلك بكل طيبة خاطر، ولكن... هل يحدث في الواقع لأبيك أن يشعر بالغثيان؟

- لاأعرف شيئاً عن ذلك. وأمي لم تذكر لي شيئاً عنه، ولكني لاأظن أنه يحدث له شيء من هذا القبيل!.

فقالت زوجة «المعلم»:

- إذا كان لم يصل به الأمر بعد، إلى الغثيان والتقيؤ، فليس هنالك خطر داهم!.

وبقطار المساء، غادرت طوكيو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تكن حالة أبي الصحية سيئة إلى الدرجة التي ظننت. ومع ذلك فقد وجدته في السرير عند وصولي وقد شبك ساقيه فوق أغطيته المبطّنة.

وقال لي:

ـ انهم قلقون: ولذلك أبقى هكذا. ولكني الآن أستطيع النهوض تماماً!. وفي اليوم التالي، كان ينهض ويقف على قدميه دون أن يقيم أيّ وزن لكون والدتي كانت تمنعه من ذلك. وكان من الصعب جداً عليها، وكثيراً ماكان يبدو عليها الاستياء، عند طي الأغطية الحريرية السميكة.

ـ منذ أن أتيت، أخذ والدك يستعيد الهدوء والاطمئنان!. هذا ماقالته لي والدتي.

أمّا بالنسبة لي، فلم أكن أستطيع الظن، أن أبي، بدافع من مجرّد الشعور بالكرامة، كان يمكن أن يجهد نفسه إلى تلك الدرجة.

كانت مسؤوليات أخي الوظيفية تحتجزه بعيداً، في جزيرة «كيوشو»، وفيما عدا حصول مناسبة خطيرة، فقد كان من الصعب جداً عليه أن يتغيّب لكي يأتي لرؤية والديه. وأختي، وهي متزوجة، كانت تقيم في ولاية أخرى. وهذه أيضاً لم يكن ممكناً أبداً استدعاؤها بصورة مستعجلة بل لقد كان من المشكوك فيه أن تستطيع حتى حضور اللحظات الأخيرة من حياة والدها. وخلاصة القول، أني كنت الوحيد من بين الثلاثة، المتمتع بكامل حريتي باعتباري طالباً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالواقع من أي دوّار أو غثيان. وأخيراً سألت «المعلم» عن أخبار زكامه.ولكن الحقيقة هي أن ذلك الزكام كان يبدو لي أمراً لايستحق الاهتمام أساساً.

ولم أكن آمل أن أتلقى أي جواب من «المعلم» على هذه الرسالة. وبعد أن أودعتها مكتب البريد، تحدّثت مع والديّ عن «المعلم». وبينما كنت أفعل ذلك كنت أرى بعين الخيال المكتب الذي أعرفه جيداً.

- عندما تعود إلى طوكيو، عليك أن تأخذ معك للمعلم بعض الفطر المجفّف!.

- للمعلم، فطر مجفّف؟ ولكن هل يحبّه «المعلم»؟

- انه ليس ذلك الطعام اللذيذ جداً: ولكن في النهاية، لاأحد يكرهه!. وكان، بالنسبة لي، هذا الربط بين «المعلمَ» والفطر المجفّف، يبدو غريباً ومضحكاً جداً!.

وعندما وصلني جواب «المعلم»، دهشت لذلك كثيراً. وقد دهشت أكثر بعد أن تبيّنت أنه لم يكن لديه أيّ سبب أو مبرر خاص يدفعه للكتابة لي. ولذلك ظننت أنه انما أجابني على رسالتي بدافع من الصداقة فقط. وعندما توصلت لهذا الاستنتاج، أفرحتني تلك الرسالة البسيطة كثيراً وبالاضافة إلى ذلك، فقد كانت أول رسالة حقيقية تلقيتها حتى ذلك الحين من «المعلم»، أستطيع تأكيد ذلك دون أن يكون هنالك أيّ خطأ محتمل.

وعندما أقول الرسالة الحقيقية الأولى، ربما يتبادر إلى الأذهان أنه قد جرى تبادل رسائل عديدة بين «المعلم» وبيني. ولكن أرجو أن يسمح لي بايضاح ذلك هنا، وهو أن الحقيقة هي شيء مختلف تماماً. إذ أني طيلة حياة «المعلم» لم أتلقّ منه إلا رسالتين حقيقيّتين: الأولى كانت الرسالة الجوابية التي ذكرتها آنفاً. والثانية والأخيرة، كتبها «المعلم»، قبيل وفاته، لي وحدي، وكانت رسالة طويلة جداً...

وكان أبي بسبب طبيعة مرضه يكاد لايستطيع أن يمارس أي نوع من التمارين. ومع أنه لم يعد مضطراً لملازمة الفراش، ولكنه كان لايخرج الاّ نادراً.

ومع ذلك فانه، في أصيل يوم هادىء جداً، نزل إلى الحديقة. ولأنني كنت أخاف عليه، فقد بقيت إلى جانبه، بل ملتصقاً به تقريباً، في ذلك اليوم. وبسبب قلقي، كنت أحاول أن أضع ذراعه على عنقي. ولكن أبي كان يضحك، ويرفض أن يتّكيء عليّ.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٣ -

كثيراً ماكان أبي يشعر بالملل. عند ذلك كنت أجلس واياّه إلى منضدة الشطرنج. كنا نحن الاثنين ذوي طبيعة تتصف بالخمول، ولذلك كنا نستدفيء تحت الغطاء،على الموقد المثبّت في الأرضية الخشبية، ونضع رقعة الشطرنج على منضدة فوق الموقد. ولكي نحرّك البيادق، كنا في كل مرة نخرج يدنا من تحت الغطاء. بل كان يحدث أن يضيع منا بيدق دون أن نلاحظ ذلك قبل الجولة التالية. وكانت أمي تجده في رماد الموقد وتسترده بالملقط. تلك كانت مهزلة لعبتنا اليومية.

وكان أبي يقول: انها لعبة المفاجآت كما ترى، فهي غير مريحة: إذ أن رقعة اللعب تصبح هكذا عالية جداً،مع القوائم التي تضاف اليها، فكيف تريد أن تضعها على منضدة الموقد؟!. بل على العكس من ذلك كم هي عملية ومريحة رقعة الشطرنج، وكم هو مريح اللعب عليها!. وبالنسبة لنا نحن الكسالى، ليس هنالك أفضل من ذلك. هيا بنا، ولنلعب جولة أخرى!.

وعندما كان أبي يربح الجولة، كان يبدي رغبة بمتابعة اللعب، ولكنه عندما كان يخسر كان يريد أن يتابع اللعب أيضاً. وباختصار، فانه، ان كان رابحاً أو خاسراً، فلم يكن يفكر الاّ بالمباشرة في جولة جديدة، في ذلك الجو الدافيء المنبعث من الموقد. وفي البداية، كانت تلك التسلية التي يمارسها ذلك الشيخ المسن الذي لايقوم بأي عمل، تجذبني بسحرها كأي جديد، وتلقى مني بعض الاهتمام. ولكن مع

مرور الأيام أخذت أشعر بالملل، لأن شبابي وقوتي كانا يتطلّبان حقوقهما، ولم يكن ليرضيني كثيراً أو أن يثير اهتمامي إلى أمد طويل محرّض هزيل كهذا. وكنت أتمطّى باسطاً ذراعيّ إلى اليمين وإلى اليسار، وقد أمسكت بيدي أحد البيادق كالفيل أوكالقلعة. وأحياناً أتثاءب بلا حياء.

وبدأت أفكر بالعودة إلى طوكيو وأحلم بها وبأجوائها. كان الدم الذي يتدفق إلى قلبي يبدو وكأنه يدوّي في داخلي كالصدى، قائلاً دون انقطاع مع كل خفقة: «هيّا، تحرّك، تحرّك!.» ولدى كل نبضة وكل خفقة، كنت أشعر بذلك، في أدقّ الحالات النفسية، وكأني أستمدّ الدعم من قوة الطباع ذاتها التي كانت تثير اعجابي لدى «المعلم».

كنت أجري، في قرارة نفسي، مقارنة بين أبي و«المعلم»، لم يكن من الممكن القول عن الاثنين، كليهما، من الناحية الاجتماعية، فيما إذا كانا كائنين حيّين أم كائنين ميّتين، وذلك لشدّة انزوائهما. ولو قيّما بمعيار التقديرالعام، لكانا، كلاهما، صفرين خالصين. فقد كانا متشابهين في ذلك. ومع ذلك، فاني تبيّنت بينهما فرقاً جوهرياً. لم يكن والدي، وهو لاعب الشرنج المتمرّس، يحظى مني بالرضى، أو الاعجاب التام، حتى باعتباره مجرّد شريك في اللعب. أمّا «المعلم»، فلا أذكر أني رافقته أبداً لغاية التسلية. ومع ذلك، فقد كان له عليّ تأثير روحي أقوى من الروابط التي تنشأ عن طريق ممارسة التسلية بصورة مشتركة، دون أن يكون بامكاني تحديد وقت حدوث ذلك التأثير. وعندما أقول تأثيراً روحياً، فاني أتكلم كما يحلو لي وبكل برود. بينما كان يجب أن أقول سيطرة حية وفاعلة. ولو أنني قلت أن قوة «المعلم» قد تغلغلت في كياني، وأن حياته نفسها أصبحت تسري في دمي، لما بدت لي هذه العبارات مبالغ فيها. ولكن والدي هو أبي الذي تربطني به صلةالدم، بينما من البديهي أن «المعلم» لاتربطني به أية رابطة مماثلة. تلك هي الحقيقة التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تبدّت لي، وعندما تفحّصت تفاصيلها بانتباه، شعرت بأني، قد اكتشفت، للمرّة الأولى، حقيقة مؤكدة كبرى.وقد فوجئت بذلك وأصبت بما يشبه الدهشة.

وفي نفس الوقت الذي بدأت أشعر فيه بالملل، حدث أيضاً، أني في نظر والديّ، أنا الذي، كنت أنعم بميزة الغياب الطويل، وبعد أن تمتّعت لدى وصولي، بتقدير الجميع، هذا التقدير الذي يمنح عادة لأولئك الذين يتغيّبون طويلاً، ولايراهم ذووهم الاّ نادراً، لم أعد الاّ كائناً عادياً ويومياً. ولابدّ أن كل أولئك الذين اعتادوا العودة إلى مقاطعاتهم في عطلة الصيف قد تعرّضوا، كما أتصور، لمثل هذه التجربة. فخلال بضعة أيام، لايعاملونهم الاّ باللطف وبمزيد من المدارارة. وبعد اجتياز هذه المرحلة التقليدية، تتلاشى شيئاً فشيئاً تلك الاثارة الشديدة التي كان يبديها الأقارب نحوهم. وفي النهاية، لايصبحون الاّ مجرد كمية مهملة تعامل باستخفاف كبير. وخلال تلك الاقامة لدى أهلي، شهدت أنا أيضاً، نهاية المرحلة السعيدة. ثم كان هنالك مجموعة من الصعوبات والمتاعب كذلك. وفي كل مرّة كنت أعود من طوكيو، كنت أجلب معي كما يقال، شيئاً لاأدري كنهه، ملتصقاً بشخصي، وهذا الشيء كان يبدو لأبي وأمي،غريباً ولايمكن فهمه.وفي لغة الزمن القديم الصالح، كان يمكن أن يقال أن ذلك يعني أني أنقل إلى أسرة تعتنق مبادىء «كونفوشيوس»، لمحة من الديانات المسيحية. وهذا الشيء الذي كنت آتي به، لم يكن، على كل حال، يرضي أبي ولا أمي. ولاشك بأني كنت أبذل جهداً كبيراً كي أكتم ذلك. ولكن هذا الشيء الذي لم أكن أدري كنهه كان مستقراً تماماً في نفسي، ولذلك فان جهدي مهما كان كبيراً، فان عينيّ والديّ كانت تكتشفه في الحال. كلا، اني لم أعد أجد لدى أهلي أقلّ بهجة أو متعة.ولم يكن لديّ الاّ رغبة واحدة، هي العودة دون ابطاء إلى طوكيو.

ومن حسن الحظ أن مرض والدي ظل مستقراً، ولم يبد شيء يدل على أن حالته تزداد سوءاً. وزيادة في الاطمئنان، أيضاً، استدعينا من بعيد طبيباً معروفاً.ولم تكن الفحوص والتحريات الدقيقة التي أجراها الاّ لتؤكد ماكنا نعرفه سابقاً: أي أنه ليس هنالك أي من الأعراض التي تدل على خطورة الحالة المرضية. وهكذا فإني قرّرت الرحيل قبل نهاية عطلة رأس السنة بقليل.

وحالما حدّد تاريخ رحيلي ـ يا للقلب البشري، كم هو معقّد!. ـ أخذ أبي وأمي يحاولان اقناعي بتأجيله، فقد قالت أمي:

ـ أهكذا ترحل الآن، وبهذه السرعة؟!.

وقال أبي:

ـ ابق أربعة أو خمسة أيام أخرى: ان ذلك لن يمنعك من أن تكون هنالك في الوقت المناسب!.

ولكني سافرت في اليوم المحدّد.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٤ -

عندما وصلت إلى طوكيو، كانت قد نزعت زينات العام الجديد.وكانت اشوارع المقفرة مفتوحة الأجواء لرياح الشمال الباردة، وإلى أية جهة وجّه المرء أنظاره لايري أبداً أيّ أثر لذلك الزحام الذي ينسبه الذهن بكل يسر لأعياد رأس السنة الجديدة.

وذهبت في الحال إلى بيت «المعلم» كي أردّ له النقود التي استدنتها منه.وفي نفس الوقت جلبت له معي بعض الفطر المجفف الذي تحدّثت عنه. ولكني خوفاً من أبدو وكأني أطلب له ثمناً فيما إذا اكتفيت بتقديمه دون أيّ تعليق، قلت وأنا ألحّ في ذلك عن عمد:

ـ إليك ماكلّفتني أمي بحمله إليك!.

كانت نبتات الفطر في علبة جديدة من الخشب الأبيض، من تلك العلب المخصصة عادة للحلوى. وشكرتني زوجة «المعلم» بلطف، وبعد أن تناولت العلبة، همّت بحملها إلى الغرفة المجاورة. ولكن هل كانت خفّة وزن العلبة هي التي أدهشتها، لست أدري. إذ أنها قالت:

ـ أية حلوى، هذه؟!.

وهكذا، كانت زوجة «المعلم» تبدو أحياناً ذات روح ساذجة طفولية، فيما لو تمعنّا في تصرّفاتها العفوية.

وأخذ «المعلم» وزوجته، القلقان بسبب مرض والدي، يلقيان عليّ مائة سؤال وسؤال. وأذكر هنا ماقاله لي «المعلم» بشكل خاص:

- إذا ماحكمت على ذلك من خلال الأخبار التي أوردتها لي، فاني لاأظن أن هنالك خطراً مباشراً. ولكن المرض هو المرض، ولابدّ من اتخاذ احتياطات هامة وكثيرة..

وفيما يتعلق بأمراض الكليتين، كان «المعلم» يعرف أكثر مني بكثير، وهكذا تابع حديثه:

- كثيراً مايصاب المرء بهذا المرض دون أن يشعر بذلك، ودون أن يتألم. انها حالة خاصة جداً. وقد عرفت ضابطاً أودى به هذا المرض نفسه. ايه، لقد فارق الحياة وكأنه في حلم. حتى أن زوجته، التي كانت ترقد إلى جانبه، لم يتح لها الوقت، كما يقال، لكي تقدّم له أية معالجة أو اسعافات. فقد ناداها خلال الليل، وأخذ يشكو قليلاً. وعند الصباح، كان قد فارق الحياة. في حين أن زوجته كانت تعتقد أنه مازال مستغرقاً في النوم!.

كنت حتى تلك اللحظة ميالاً إلي التفاؤل، ولكني،على الفور شعرت بالقلق:

- بالنسبة لأبي أيضاً، ربما حدث ذلك بصورة مفاجئة كما حدث لذلك الضابط: وهذا، على الأقل، ليس مستحيلاً، أليس كذلك؟

- ولكن ماذا يقول الأطباء؟

- انهم يقولون، أنه ميت لامحالة، ودون وجود أي أمل ممكن لانقاذه، ولكنهم من جهة أخرى يقولون أنه لاخطر على حياته لفترة زمنية أخرى.

- يمكنك اذن أن تطمئن قليلاً، وتطرد القلق الذي يساورك، طالما أن الأطباء أبدوا رأياً كهذا. والحالة التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حدّثتك عنها مختلفة جداً. ليس لأن المريض لم يشعر بشيء وحسب، بل لأن الأمر، في تلك الحالة، كان يتعلّق برجل عسكري، يعيش حياة قاسية ويفرط في استنزاف طاقاته.

شعرت بشيء من الاطمئنان، ولابدّ أن «المعلم»، الذي كان يراقبني بانتباه شديد، قد لاحظ ذلك في أسارير وجهي. ولذلك أضاف قائلاً:

- ولكن، ألا ترى أن الكائن البشري شيء هش وضعيف، ان كان سليماً معافى، أو معتل الصحّة. فمتى، ومن أيّ شيء، وكيف يجب أن يموت، من يستطيع معرفة ذلك؟!.

- هل «المعلم» أيضاً يفكر بهذه الأمور؟

- نعم: فمهما كنت بصحّة جيدة، لايفوتني أن أفكر بها!. كان يبدو حينئذ على شفتي «المعلم» ظل ابتسامة. وتابع قائلاً:

- غالباً مايموت البعض فجأة، كمن يسقط أرضاً: فهذا موت مفاجيء وطبيعي. ولكنها ميتة تسبّبها قوة غاشمة غير طبيعية...

- ماذا تعني بالقوة الغاشمة غير الطبيعية؟

- يا الهي، انّ معناها العميق ليس واضحاً تماماً، حتى في نظري، وبالنسبة لي، أنا نفسي. ولكن، أولئك الذين ينتحرون مثلاً، ألا يستخدمون جميعهم قوة غاشمة وغير طبيعية؟

- في هذه الحالة، فإن الذين قتلوا، ماتوا أيضاً بفعل قوة غاشمة وغير طبيعية!.؟؟

- لم يخطر ذلك على بالي ولم أفكر به. ولكن هذا صحيح.

بعد انتهاء هذا الحديث، تركت «المعلم» وعدت إلى المنزل، وحالما بلغته، لم يعد يساورني ذلك الهمّ الكبير الذي كنت أحمله بسبب مرض والدي. كذلك لم أعر كبير اهتمام لحديث «المعلم» الذي ميّز خلاله بين الموت الطبيعي والموت الناتج عن قوّة غاشمة غير طبيعية. لأنه في حينه لم يسترع كل انتباهي.ولم يسبب لي أيّ قلق أو اضطراب. وفضلاً عن ذلك، فقد كان لديّ شاغل آخر: هو موضوع أطروحتي لنيل الشهادة الجامعية. فقد رغبت مرات عديدة أن أباشر العمل بها، وفي كل مرّة كنت أرجيء ذلك. وأخيراً قلت في نفسي أن عليّ في حقيقة الأمر أن أبدأ العمل بها بصورة جديّة.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في حزيران من ذلك العام، كان يجب عليّ أن أنتهي من اجازتي وأن أنهي كل دراستي. وكان عليّ أن أنجز بأي ثمن، أطروحتي قبل نهاية نيسان حسب نصوص النظام. وعندما عملت حسابي تبين لي أنه لم يبق لديّ الاّ ثلاثة أشهر. وكنت أتساءل فيما إذا كانت لديّ الهمّة لانجاز هذا العمل خلال تلك الفترة. كان رفاقي قد بدؤوا منذ زمن طويل بجمع المعلومات والمواد وتسجيل الملاحظات والمذكرات اللازمة لرسائلهم: لدرجة أنه حتى مظهرهم الخارجي كان يدل على أنهم مستغرقون في ذلك. وكنت أنا الوحيد الذي لم يقم بعد بأي عمل. وكل ماهنالك أني قلت لنفسي أني عندما يبدأ العام الجديد، سوف أضاعف جهودي. وهكذا فقد حزمت أمري وبدأت العمل. ولكني في الحال وجدت نفسي في ورطة كبيرة، لأني حتى ذلك الحين كنت قد اكتفيت بتصوّر تخطيط في الفراغ لبنية رسالتي، وكنت أراها بعين الخيال وكأنها قد أنجزت تقريباً. ولكني عندما واجهت الواقع، أصبت ويالللأسف بالاحباط والارتباك، فوضعت رأسي بين يديّ وبدأ القلق يستولي عليّ. عندئذ شرعت بتحديد موضوعي. ولكي أتجنب عناء تقليب وترتيب أفكاري الشخصية، قررت الاكتفاء بتبويب مواد أجمعها من الكتب، على أن أضيف لها خاتمة مناسبة.

كان الموضوع الذي اخترته على صلة قوية بالدراسات التي تخصص بها «المعلم»، وعندما اخترته، استشرت «المعلم» فقال لي:

ـ ربما كان الموضوع مناسباً ومن الممكن أن توفّق فيه!.

هذا، ولأنني كنت مرتبكاً وأجد صعوبة كبيرة في مباشرة كتابة الرسالة، ذهبت في الحال أطلب من «المعلم» أن يدلني على المراجع الضرورية. وبسط لي «المعلم» كل معلوماته، ووعد باعارتي بعض الكتب التي تفيدني في بحثي. أمّا فيما يتعلّق بانشاء الرسالة وكتابتها نفسها، فقد رفض أن يتحمّل مسؤولية ارشادي إلى كيفية مباشرتها، قائلاً:

ـ إني، منذ بعض الوقت، قليلاً ماأطالع وأقرأ، ولم أعد على اطلاع كاف وجيد على تفاصيل ودقائق هذا البحث، ولذلك يصبح من الأفضل على ماأعتقد، أن تطلب ذلك من أساتذتك!.

لقد مرّت فترة من الوقت كان «المعلم» يقرأ خلالها كثيراً. ولكن، دون أن يعلم تماماً أحد سبب ذلك، تضاءل الاهتمام الذي كان يبديه نحو الكتب. كانت زوجته نفسها قد قالت لي ذلك منذ بضعة أيام فقط، وقد تذكّرت بالمصادفة حينئذ ماقالته. فتركت جانباً مسألة الرسالة، وبشكل مفاجيء، سألته:

ـ لماذا لم يعد «المعلم» يولي المطالعة نفس الاهتمام الذي كان يوليها اياه في السابق؟؟

ـ ليس لذلك أي سبب... وثقافة الانسان ومعارفه لاتقدّر تماماً بعدد الكتب التي قرأها، ربما كانت هذه الفكرة قد سيطرت عليّ وأوقفتني. ثم..

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم... ليس ذلك بالسبب الذي له شأن كبير... ولكني، أخيراً أذكره: كنت، في السابق، عندما يطرح عليّ سؤال لاأستطيع الاجابة عليه وأنا في جمع من الناس، أشعر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان ينتابني القلق، ولكني كنت أشعر أيضاً بالنشاط والهمّة. ففي كل يوم، كنت أجلس إلى منضدتي، وأعمل بكل قواي. أو أني كنت أنقّب في الرفوف العالية، عبر ظلام المكتب: كما يفعل جامع التحف، باحثاً بناظريّ ومتفحصاً الأسماء ذات الأحرف الذهبية على غلافات الكتب.

كانت أشجار الخوخ قد أزهرت، وبدأت الرياح الباردة تتحوّل إلى رياح جنوبية،وبعد انقضاء بعضة أسابيع، تناهت إلى مسامعي أولى الأخبار عن أزهار شجر الكرز. لم يكن لذلك أية أهمية: فقد كنت كالحصان الذي يجرّ العربة، مثبتاً ناظري إلى الأمام، وفكرة الرسالة تجلدني كالسياط. كانت نهاية نيسان قد اقتربت. ولكني طالما لم أنجز كتابة الرسالة فقد امتنعت عن اجتياز عتبة بيت «المعلم».

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولمّا ألفيت نفسي في نهاية الأمر حرّاً، وكانت آخر زهرات الكرز قد سقطت، ونبتت بدلاً منها، دون أن يشعر أحد بذلك، أولى تلك الأوراق الخضراء التي يكاد يقول المرء أنها مغلّفة بالضباب. وكان كل مافي الطبيعة يعلن بشائر قدوم الصيف، أخذت أشعر كأني عصفور هارب من قفصه، حلّق في الأجواء متأملاً كل الكون المترامي الأرجاء، ثم انطلق بكل حرية مصفقاً بجناحيه. وقصدت في الحال بيت «المعلم». كانت النبتات الغضة على أغصان السياج المكون من شجيرات الليمون، التي يشوبها السواد، زاهية، حديثة العهد، تماماً كتلك الأوراق الحمراء المتلألئة النابتة على جذوع شجيرات الرمان اليابسة والتي كانت تعكس برفق نور الشمس. كل ذلك كان يسحرني ويخلب لبّي وأنا في طريقي إلي بيت «المعلم». وكان هذا المنظر يبدو لي نادر الوجود وعظيم القيمة، كما لو أني كنت أراه لأول مرة في حياتي.

ولاحظ «المعلم» تلك الفرحة على وجهي، فقال لي:

- هاأنت قد انتهيت، بل تخلّصت أخيراً من اطروحتك: اني أهنئك!.

- نعم، لقد انتهيت منها، وذلك بفضل مساعدتك لي. والآن انتهى العمل!.

والواقع، أني منذ تلك اللحظة، كنت قد تخلّصت من كل التزاماتي، وكما لو أني قد حصلت آنذاك على الحق بأن

أفخر بتمتّعي بفترة بطالة، كنت أشعر بفرحة كبرى تغمر قلبي. أما الأطروحة التي كنت قد أنجزتها لتوي، فقد ملأتني ثقة ورضى، ولم أكفّ عن الثناء عليها وامتداح محتواها على مسامع «المعلم». ولكنه كان يقول بلهجته نفسها المعتادة دائماً:

- حقاً، انها هكذا بالفعل!.

أو أنه كان يكتفي بايماءة بسيطة معلناً موافقته وقائلاً:

- هكذا اذن!.، دون أن يعبّر عن أيّ نقد لما ورد في الرسالة.

كانت تلك اللامبالاة تجعلني أشعر ليس بعدم الرضى فحسب، بل بشيء من خيبة الأمل. لدرجة أني، وأنا المتوثّب الذهنّ في ذلك اليوم، شعرت بالرغبة بمعاكسة ذلك التردد الذي كان يبديه «المعلم» والاعتراض عليه. وإلى رحاب الطبيعة الواسعة ذات الخضرة المتجدّدة، حاولت اقناع «المعلم» بالخروج، قائلاً:

- أيها «المعلم» هيا بنا نتنزّه: فالجو رائع في الخارج!.

- إلى أين تريدنا أن نذهب؟

لم يكن للمكان الذي يجب أن نقصده أية أهمية بالنسبة لي: فلم أكن أبغي الاّ الخروج بصحبة «المعلم». وبعد ذلك بقليل، كنا قد أرضينا رغبتنا وأصبحنا، أنا و«المعلم» بعيدين عن جو المدينة. فهل كنا مانزال في المدينة، أما أننا صرنا في الريف، حقاً لقد كان التمييز بينهما صعباً جداً: ولكن كل ماهنالك أننا كنا نرى أنفسنا نسير في مكان هادىء دون هدف محدّد. وقطفت من نباتات السياج ذات الأشواك السوداء ورقة غضّة نضرة، وأخذت أصفر فيها. كان لي صديق من مدينة «كاغوشيما» قد علّمني استعمال أوراق الشجر كصافرة، بصورة طبيعية تماماً، وهكذا استطعت أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أصفِّر بمهارة كبيرة. وكنت أسير وأنا أصفِّر بكل زهو وافتخار. ولكن «المعلم» كان ينظر إلى جهة أخرى، متابعاً سيره، دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئاً.

وبعد مرور بعض الوقت، وصلنا قرب مرتفع صغير، تكاد تغطيه الخضرة الوارفة المكونة من الأوراق الزاهية المتجدّدة. كان هنالك بيت صغير، وفي الأسفل على المنحدر طريق ضيق. وكانت اللوحة المثبتة على ركن المدخل تحمل عبارة: «حديقة الزراعة...» أضيف إليها نعت، لم أعد أذكر ماهو. وكان واضحاً أن البيت لم يكن معداً للسكن. ووجّه «المعلم» ناظريه إلي الباب الذي يؤدي إلى الطريق الضيق المنحدر بهدوء نحوالوادي، وقال:

- هل ندخل؟

- بالتأكيد: انها حديقة زراعية، مسموح بدخولها وتأملها باعجاب والتمتع بجمالها!.

وسرنا عبر الغراس والمزروعات، وتابعنا سيرنا في منعطفات الطريق الضيق المتجه صعوداً نحو أعلى المرتفع. كان البيت الصغير إلى يسارنا، وكانت أبوابه المفتوحة تتيح رؤية داخله: كان فارغاً، لاظل فيه لأيّ كائن حي.وفي حوض ملاصق لذلك البيت الصغير، كان هنالك فقط بعض الأسماك الحمراء، تدور سابحة.

قال «المعلم»:

- ياله من هدوء!. لقد دخلنا بدون اذن، ولكن، أوه، ليس هذا بالأمر الخطير!.

فقلت مؤيداً:

- كلا، بالتأكيد!.

وتابعنا سيرنا بنفس الطريقة نحو داخل الحديقة. وهنالك أيضاً لم يكن يوجد أثر لأيّ كائن حيّ. ولكن الأزهار

الحمراء الزاهية كانت متفتحة هناك على شجيرات الزينة. وأشار «المعلم» إلى نوع من الشجيرات الداكنة الباسقة والنامية بين النباتات الأخرى المتشابكة، وقال لي:

- انظر، هاهي شجيرات الزينة المسماة «كيريشيما»!.

كان هنالك أيضاً نحو أربعين متراً مربعاً زرعت بأزهار الحقول.ولكنّ موسمها لم يكن قد حان، ولم تتفتّح منها بعد أية زهرة. وغير بعيد عنها كان يوجد مقعد عريض. استلقى عليه «المعلم» وبسط ذراعيه. أمّا أنا، فجلست على طرف المقعد وأخذت أدخّن. كان «المعلم» يحدّق بالسماء التي كانت شديدة الزرقة والصفاء لدرجة أنها كانت تبدو شفّافة. بينما كنت أنا أحدّق في الأوراق الغضّة، الحديثة العهد، مستسلماً لسحر ألوانها. وعند تأمل تلك الأوراق واحدة واحدة، لم يكن لأيّ منها نفس لون بقية الأوراق. لم يكن هنالك أية أشجار، حتى أشجار الدلب ذات النوع الواحد، لم ينبت على أغصانها وريقات غضّة ذات ألوان مختلفة ومتنوعة جداً.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٧ -

كانت قبعة «المعلم» معلقة على غرسة ورد نحيلة، فسقطت عندما هبّت الريح. فالتقطتها في الحال.وكان قد علق بها قليل من التراب الأحمر، أزلته عنها بطرف أظافري، وقلت للمعلم:

ـ لقد سقطت قبعتك، يا معلم!.

ـ شكراً جزيلاً!.

ونهض «المعلم» قليلاً كي يتناول قبعته.وفي ذلك الوضع غيرالمستقر، وهو بين المستلقي والواقف، ألقى علي السؤال الغريب التالي:

ـ سوف تفاجأ بسؤالي وتستغربه، ولكن... هل تملك أسرتك أية ثروة؟

ـ ليست من الأهمية، على أية حال، لكي نستطيع القول بأنها تملك ثروة!.

ـ اغفر لي هذا الالحاح: على وجه التقريب، ماذا تملكون؟

ـ أقسم بأني لاأستطيع معرفة ذلك. فنحن نملك بعض الحراج، وبعض الحقول. أمّا السيولة النقدية، فلا نملك منها شيئاً على ماأعلم.

أن يكون «المعلم» قد ألقى عليّ بشأن وضع أسرتي سؤالاً حقيقياً، فتلك كانت، بالتأكيد، المرة الأولى. ومن جهتي أنا، فإني لم أكن قد سمحت لنفسي بعد بأن أوجّه له عن وضعه، هو، أيّ سؤال. حقاً، في بدايات صداقتنا، كثيراً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مـامنـعنـي مـن الـرد عليـه بـأيّ جـواب، فـانـقـطـع حـبـل الحـوار، الأمـر الذي جعلـنـي ألزم جانب الصمت.

وتابـع «المعلم» وفـي نـظـرتـه ابـتسـامـة:

- نعم، كما هي الحال بالنسبة لي، حقاً لقد كنت غنياً!.

وفـي هذه المرّة أيضـاً لم أتـفـوّه بـأي جـواب: لأنـي كنـت أخشى أن يبدو أيّ جواب أردّ به، عارياً من اللياقـة ويدل على عدم التـهذيب. عنـد ذلك غيّر «المعلم» موضوع الحديث، قائلاً:

- ووالدك، كيف حاله؟

لم أكن قد تلقيت أية مـعلومات جديدة عن مـرض والدي منـذ شـهـر كـانـون الـثـانـي. وكل شـهـر، كنـت أتلقى مـن أهـلي حـوالـة بـريـديـة ورسـالـة. ولكـن الـرسـائل كـانـت، كـمـا هـي فـي العـادة، دائـمـاً، بـخـط والـدي، ويمكـن الـقـول أنـه لـم يكـن يشكـو فـيـهـا مـن أيّ شـيء علـى الاطـلاق. بـل وأكـثـر مـن ذلك، فـقـد كـان خط والـدي مـحكمـاً ينمّ عن ثبـات الـيـد، ولـم يكن ذلك المرض، الذي يسبب عادة نـوعـاً من الارتـعاش الـعـصبي، يشـوّش بـشـيء خـط والـدي.

ولذلك أجبت «المعلم» عن سؤالـه قـائلاً:

- لم يحدّثـوني عن مرضه، يبدو أن صحتـه قد تحسّنت!.

- إذا كـان الأمـر كـذلك، فـهـذا مـن دواعـي سـعـادتـي: ولـكـن المرض هو المرض!.

- أيـكـون أبـي اذن فـاقـد الأمـل، لايـجـدي فـي مـرضـه أيّ عـلاج؟ علـى أيـة حـال، لقـد تمتّع بـشـيء مـن الـراحـة والـهدوء فـي الـفـتـرة الأخـيـرة. هذا مـاأظنّه، علـى الأقـل: إذ أنـه لـم يحـدّثـنـي بـأي جديد عن مـرضه!.

- آه!.

أن يكون «المعلم» قـد سـألـنـي عن وضع أهلي المالي وعن

ثروتهم، ثم عن مرض والدي، فان ذلك لم يكن ليبدو لي الاّ عبارة عن حديث اعتيادي: حديثاً من تلك الأحاديث المعتادة التي تتوارد بصورة طبيعية من الذهن إلى الشفتين. وعلى هذا الأساس، كنت أستمع إليه في ذلك الحين، ومن خلال هذا الاعتبار فقط. ومع ذلك، فقد كان هذان السؤالان مترابطين بالأساس،وبشكل مقصود، وكان لهما معناهما التام. وكل ماهنالك أني لم تكن لديّ الخبرة الكافية والمعرفة التامة بشخصية «المعلم» كي أستطيع النفاذ خفايا نفسه وفهم عميق أفكاره.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٨ -

ـ إذا كانت أسرتك لديها أملاك، فيجب أن تجعل أباك يرتّب أموره منذ الآن. ويمكنك الظن، إذا بدا لك ذلك مناسباً، أني أتدخل فيما لايعنيني: ولكن طالما أن والدك مازال محافظاً على نشاطه، فعليك أن تجعله يحدّد لك بوضوح مايجب أن يؤول إليك، صدّقني!. وهذه هي الحال دائماً عندما تحدث وفاة: لاشيء يسبّب المزيد من المتاعب الاّ المسائل المالية...!

ـ نعم، دون شك...

والحقيقة أني لم أكن أعير أيّ اهتمام لكلام «المعلم». فلم يكن لدى أحد من أفراد أسرتي مثل هذه الاهتمامات: لاأنا، ولاأبي، ولاأمي، ولاأيّ فرد آخر. هذا على الأقل، ماكنت أعتقده. كما أن كلام «المعلم» كان يبدو لي، من جهته هو، عملياً بصورة مبالغ فيها لدرجة أنه أصابني بما يشبه الدهشة. ومع ذلك، هنا أيضاً، كان الاحترام الذي أكنّه عادةإلى من هم أكبر مني سناً، يجعلني متحفّظاً، قليل الكلام.

وتابع المعلم حديثه:

ـ إني أسبّب لك صدمة، دون شك، عندما أعتبر منذ الآن وفاة والدك أمراً حتمياً، ولكن أرجو أن تغفر لي ذلك: فكل انسان لابد ميت في يوم من الأيام، وليس هنالك كائن، يمكن أن نعرف متى يموت، مهما بلغت قوته!.

كانت لهجة «المعلم» تشوبها مرارة غريبة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان على جانبي المقعد الذي كنا نجلس عليه، بعض نباتات الزينة، وكانت تنبت خلفه، على مساحة يبلغ اتساعها نحو عشرة أمتار مربعة، شجيرات الخيزران القصيرة المتكاثفة وكأنها تكاد تغطي الأرض. كان الكلب ينبح بشدّة وقد برز رأسه وأعلى ظهره خارج شجيرات الخيزران. عند ذلك أتى صبيٌ في العاشرة من العمر، يضع على رأسه قبعة مدرسية سوداء ووقف أمام «المعلم»، وبعد أن حيّانا، بادره بالسؤال:

- ألم يكن يوجد أحد في المنزل، يا سيدي، عند دخولكم؟

- كلا، لم يكن يوجد فيه أحد!.

- ولكنَّ أختي الكبرى وأمّي، كانتا مع ذلك في المطبخ!.

- هاه، حقاً!.

- نعم، لقد كان من الأفضل مع ذلك أن تلقيا عليهما تحيّة سريعة، عند دخولكما!.

ولاحت على شفتي «المعلم» ابتسامة مغتصبة. ثم أخرج من محفظته قطعة نقود صغيرة ووضعها في يد الصبي، قائلاً:

- كن لطيفاً، والتمس لنا من أمّك أن تدعنا نرتاح قليلاً هنا!.

هز الصبي رأسه موافقاً، وقد تجلّت في عينيه الماكرتين ضحكات الفرح،

- هاأنا أهرب الآن: إني رئيس دورية!.

وبعد أن قال الصبي ذلك، أسرع في هبوط المنحدر عبر شجيرات الزينة. ولحق به الكلب رافعاً ذنبه إلى الأعلى كبوق كبير. وفي الحال ظهر طفلان أو ثلاثة، في مثل عمر رئيسهم، ومرّوا من أمامنا، وهبطوا المنحدر في نفس الاتجاه.

* * *

الحديث الذي قطعته حادثة مرور الكلب والأطفال، لم أستطع ادراك معناه البعيد. وتلك الاهتمامات التي كان يبديها «المعلم» بالدراهم والأموال، لم أكن أشاطره اياها بشيء: ربما كان ذلك بسبب طبيعتي، أو أنه ناشيء من تأثير الظروف، فأنا لم أكن أرى أيّ مبرر لحشو رأسي بتلك الهموم المادية. والآن، عندما أفكر في ذلك، يبدو لي أن ذلك الزهد وعدم الاهتمام بالأمور المادية يمكن تفسيرهما بدون مشقّة: فمن جهة لم يكن لديّ أية خبرة أو تجربة فيما يتعلق بالناس وبالعالم، ومن جهة أخرى، لم تكن حتى ذلك الحين مسائل المصلحة والمنفعة مطروحة أبداً بالنسبة لي. ومهما كان الأمر، فالواقع هو أن كل مايمس النقود أو يتعلق بها كان يأخذ حينئذ بالنسبة لي شكل مشكلة بعيدة جداً.

لم يكن في كلام «المعلم» أبداً الاّ نقطة واحدة كنت أرغب في التعمق باستيضاحها: وهي القائلة أنه عندما تسنح الفرصة، فليس هنالك أيّ انسان لايمكن أن يصير سيئاً. وهذه الكلمات، باعتبارها كلمات، لم أكن عاجزاً عن فهمها: ولكني كنت أودّ معرفة المزيد بشأنها حول هذا الموضوع.

عندما اختفى الكلب والأولاد عن الأنظار، عاد الهدوء إلى الحديقة ذات الأوراق الكثيرة، الغضة المتجددة، وبقينا أنا و«المعلم» لانبدي حراكاً وقد خيّم علينا الصمت. والسماء التي كانت حتى ذلك الحين شديدة الضياء، أخذت أضواؤها تخفت شيئاً فشيئاً. والأشجار التي كانت تبدو لأنظارنا، وأكثرها من فصيلة الدلب، هي أيضاً أخذ منظرها يتغيّر:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبعد أن اجتزنا الباب، سرنا بضع مئات من الخطوات، عند ذلك قلت للمعلم:

- لقد قلت منذ قليل أنه لايوجد أيّ انسان لايستطيع، في لحظة معينة، أن يصبح سيئاً. فما هو معنى هذا الكلام؟

- معناه؟ ولكن ليس فيه أيّ معنى خفي: انه يعبّر عن حقيقة رائعة، لاعن رأي أو فكرة!.

- أن يعبرٍ عن حقيقة واقعة، فليست هذه هي المسألة: انّ ماأودّ معرفته هو ماتعنيه بقولك «في لحظة معينة». هذه هي الكلمات التي أريد الحصول على شرحها. فأية لحظة تقصد بالضبط؟

أخذ «المعلم» يقهقه ضاحكاً: وكأنه أراد بذلك أن يعلن أنه لم يعد لديه أية حماسة في ذلك الوقت، لشرح أفكاره وتفسيرها، بعد انقطاع حبل الحوار:

- اللحظة المعينة، أو المناسبة؟ ولكنه المال، هل تسمعني وتفهم ماأقوله!. إذ ليس هنالك من رجل شريف الاّ ويصبح شريراً حيال المال!.

لقد بدا لي جواب «المعلم» مبتذلاً، ولم يرضني مطلقاً.وكما أن «المعلم» كان قد تخلّى عن حماسته، فاني أنا أيضاً، من جهتي، كنت أشبه بمن أصيب بخيبة الأمل. وأسرعت الخطى، بلا مبالاة، تاركاً «المعلم» يتخلّف عني قليلاً. ولكنه بعد برهة ناداني قائلاً:

- ايه!. ايه!. أنت ترى جيداً!.

- ماذا؟؟

- أنت ترى جيداً أنك أنت أيضاً، عواطفك ومشاعرك متقلّبة، تتبدل وتتغيّر حسب الأجوبة التي أوجّهها إليك، وتبدو متوقفة ومتعلّقة بهذه الأجوبة!.

كنت قد التفتّ منتظراً «المعلم»، وقد قال لي «المعلم» ذلك وهو يحدق في عينيّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٣٠ -

في تلك اللحظة، كنت، في قرارة نفسي، أجد «المعلم» قليل الحظ من الأنس والجاذبية. لدرجة أني، ونحن نسير جنباً إلى جنب، امتنعت عن القاء الأسئلة التي كنت أودّ القاءها عليه. فهل كان «المعلم» يستطيع النفاذ إلى أفكاري وتبيّنها، لاأدري: ولكنه لم يكن يبدو أنه يعلق أقل أهمية على موقفي. وحسب عادته المستديمة، كان يسير صامتاً، بنفس خطواته ومشيته الهادئة، وبلا مبالاة. الأمر الذي كان يزيد من استيائي. لدرجة أني شعرت فجأة برغبة شديدة بمحاولة القاء نكتة، من الممكن أن تثيره.

- أيهاالمعلم!.

- ماذا؟

- منذ قليل احتدّ «المعلم» وغضب قليلاً، أليس كذلك، عندما كنا نأخذ قسطاً من الراحة في الحديقة. وحتى ذلك الحين، لم أكن قد رأيت «المعلم» يغضب الاّ نادراً: واليوم يبدو لي أنه قد أتاح لي رؤية مشهد نادر جداً.

ولم يردّ المعلم.

فقلت في نفسي:

- لقد أصبت الهدف!.

ولكني في الحال، شعرت، على العكس من ذلك، بأني قد أخطأت الهدف. وبدا لي أنه لاجدوى أبداً من متابعة الحديث في هذا المنحى وفي نفس اللهجة. أثناء ذلك، ابتعد «المعلم» فجأة إلى جانب الشارع، وهناك، قرب سياج شذّب بصورة

فنية، رفع طرف ثوبه وقضى حاجة بسيطة. ومكثت أنتظره وأنا شارد الذهن.

- أرجو المعذرة!.

قال «المعلم» ذلك واستأنف السير. وقد تخلّيت في نهاية الأمر عن أية فكرة تتعلق بمهاجمته. كان الطريق الذي كنا نسير فيه قد أخذ يزدحم شيئاً فشيئاً ويعج بالحركة. وهناك، حيث لم يكن يرى هنا وهناك، حتى ذلك الحين. الاّ المدرجات والحقول المنبسطة علي السفوح والمنحدرات، هاهي الحقول تختفي الآن عن الأنظار خلف صفوف المنازل المنتظمة على جانبي الشارع. كانت ترى فقط، في بعض الأماكن من مناطق السكن، نباتات الحمّص تتسلّق على شكل لوالب، مستندة إلى ركائز من الخيزران، أو بعض الدجاجات المحتجزات خلف حاجز من شبك حديدي: كل ذلك كان يعطي انطباعاً يوحي بالسكينة والهدوء.كانت الخيول المحمّلة تمر بنا لدرجة أن الأسئلة التي كانت قبل قليل على لساني، لاأدري أين توارت الآن. ولكن في تلك اللحظة بالذات التي نسيت فيها تلك الأسئلة، قال لي «المعلم» فجأة:

- هل شعرت بأني غضبت ذلك الغضب الشديد؟

- ليس إلى هذه الدرجة، ولكن أخيراً...

- أوه، حتى هكذا، تباً!. حقاً اني أثور وأغضب لمجرّد أن أتحدّث عن المال، وهذا يحدث لي في كل مرّة أفعل ذلك!. لاأعلم ماهو الانطباع الذي تكوّن لديك عني، ولكن، كما تراني، أنا رجل حقود جداً، لأني عندما أتلقى الاهانات، ويصيبني الأذى من الآخرين، فان عشر سنوات، عشرين سنة يمكن أن تنقضي دون أن أنسى ذلك: ماالعمل، لقد خلقت هكذا!.

أكثر من السابق أيضاً، كان كلام «المعلم» يتّصف بمزيد من الحماس. ومع ذلك لم تكن اللهجة التي قيل بها الكلام هي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليوم أيضاً انتهى حديثنا بسرعة. كان موقف «المعلم» يكاد يخيفني، ولم تكن لديّ أية رغبة بمتابعة الحديث.

وعند حدود المدينة، استقلينا الترام، ولم يدر بيننا أيّ حديث خلال الوقت الذي استغرقته الرحلة. وحالما نزلنا من الترام، وحانت لحظة الفراق، بدر من «المعلم» تصرّف يكاد يكون غير اعتيادي، فقد قال لي بلهجة مرحة أكثر بكثير من المعتاد:

- من الآن وحتى حزيران، انها بالنسبة لك فترة سهلة ومريحة. من يدري، ربما كانت أسهل فترة في حياتك كلها!. اغتنمها: امرح واله بكل ماأوتيت من قوة!.

أخذت أضحك، ثم رفعت قبعتي محيياً واستأذنت بالانصراف. وفي تلك اللحظة تفرّست في وجه «المعلم». وتساءلت في نهاية الأمر، في أيّ مكان من قلبه يمكن أن يكون قد أخفى كراهيته لبني البشر: فلم تكن عيناه ولاشفتاه تعكسان أقل ظل لليأس.

بالنسبة لكل مايتعلق بمجالات الأفكار، فقد حصلت من «المعلم»، وعليّ أن أعترف بذلك، على فوائد كبيرة. ولكن في نفس تلك المجالات، كنت أودّ على الدوام أن أستكشف حتى الأعماق النتائج التي كانت تلوح لي: وأنّ «المعلم» كان يوقفني أحياناً وأنا أسعى بنجاح إلى ذلك الهدف المفيد، فهذا أيضاً أرى نفسي مضطراً لذكره. كان «المعلم» يجري، من وقت لآخر، بعض الأحاديث التي كانت تنتهي دون أن تعطي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نتيجة تستحق الذكر. واليوم، تبدو لي ذكرى حديثنا في تلك النزهة الريفية منقوشة في ذهني كذكرى لنموذج بالذات لتلك الأحاديث التي كانت تنتهي على ذلك الشكل. وقد دفعتني الجرأة، ذات يوم، أن أشكو هذا الأمر للمعلم. وضحك «المعلم» عند ذلك. فتابعت، قائلاً:

- إذا كان بعض التشويش الذهني هو السبب في عدم تمكنك من افهامي معنى بواطن الأمور، فإني لاألومك على ذلك. ولكن إذا كنت أنت نفسك لديك مفهوم واضح لكل شيء، ومع ذلك تتعمّد بألاّ تتكلم بوضوح، فان ذلك بالحقيقة يزعجني ويسبّب لي صدمة قوية!.

- إني لاأخفي عليك شيئاً!.

- بلى، انك تخفي عليّ وتكتم عني الكثير!.

- كلاّ. ولكن ألا يمكن أنك لاتميز بوضوح بين مايسمى فكرة أو رأي، وبين ماهو ماض، هذا الماض الذي أعتبره أمراً شخصياً بالنسبة لي؟؟ وأنا لست دون أيّ شك سوى مفكر بسيط. ولكن الأفكار التي أتوصل لصياغتها، لاأخفيها عن أحد: وماهو المبرر الذي يمكن أن أتذرع به لافخائها؟ أمّا بشأن ماضيّ، فإذا لم يكن هنالك أي شيء ليس عليّ أن أكشف لك النقاب عنه... فتلك، دون شك، قضية أخرى!.

- أن تكون تلك، كما تقول، قضية أخرى، فإني لست متأكداً من ذلك. إذ أنّ أفكار «المعلم» هي وليدة مامضى من حياته، وقد تكوّنت عبر هذا الماضي: وهذا الأمر هو الذي يشكّل قيمتها في نظري. ولو فصلنا أفكارك عن ماضيك لفقدت، برأيي، هذه الأفكار قيمتها: فدمية بلا روح ليست تلك الهدية التي ترضيني!.

كان «المعلم» يحدق بي بدهشة تكاد تنم عن الغضب. وكانت تشوب أصابعه التي كانت تمسك بالسيجارة رعشة خفيفة، ثم قال:

- انك تبدي جرأة كبيرة!.

- كلاّ. وكل ماهنالك أني صادق وصريح. وبهذه الروح الصادقة والصريحة انما أرغب بالاستفادة من تجربة الآخرين والاستنارة بها!.

- وهل يجب عليّ من أجل ذلك أن أنبش ماضي حياتي وأبسطه أمامك! كان لكلمة «أنبش» هذه، وقع مخيف رنّ فجأة في أذنيّ. وكانت يبدو لي أنّ الكائن الجالس أمامي ليس سوى مجرم، وأنه لم يعد ذلك «المعلم» الذي سبق لي أن أحطته بالاحترام على الدوام. كان وجه «المعلم» قد أخذت تشوبه مسحة من اللون الأخضر عندما قال لي فجأة وهو يتفرّس في وجهي محاولاً سبر أعماق فكري:

- أحقاً أنت صادق وصريح؟ لقد حكم عليّ بأن أشكّ ببني البشر وذلك عقوبة لي على مااقترفت من خطايا. ولذلك فإني، في قرارة نفسي، أشكّ بك، أنت أيضاً. ومع ذلك، فإني، دون أن أستطيع أنا نفسي فهم ذلك جيداً، كنت أودّ أن تكون الوحيد الذي لاأشكُّ به. انك شديد الجدّية لدرجة يصبح من الصعب معها الشكّ بك. وقبل أن أموت كم أودّ أن أستطيع تصديق شخص واحد، والايمان به ومنحه ثقتي، حتى ولو كان شخصاً واحداً. أن أؤمن ثم أموت. فهل تشعر بأنك جدير بأن تصبح بالنسبة لي ذلك الشخص الوحيد الفريد؟ هل توافق على ذلك؟ وباختصار، هل أنت صادق وصريح حتى أعماق قرارة نفسك؟

فأجبته وصوتي يرتعش:

- حقاً إني صادق وصريح وبقدر نظرتي للحياة هذه النظرة الجدّية، بالقدر ذاته يتصف كلامي بالصراحة

و و على و

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عند ذلك قال «المعلم»:

ـ حسن!. سأحكي لك اذن، لك أنت، سأكشف النقاب عن ماضي حياتي. فقط، مقابل ذلك... كلا، بالحقيقة، لاجدوى من ذلك... كما أنّ ماضي حياتي، هذا، ربما ليس له تلك القيمة الكبيرة بالنسبة لك... كلا، اني لاأستطيع... كلاّ، في الوقت الحاضر أنا لاأستطيع الكلام، وعليك أن تعلم ذلك!. وطالما أنّ الوقت لم يحن، فإني لاأريد أن أتحدّث عن ذلك الماضي. هكذا هي الحال!.

ولوقت طويل بعد عودتي إلى المنزل، كنت لاأزال أعاني من شعور بالقلق الشديد استولى عليَّ، وسبّب لي بعض الألم.

* * *

- ٣٢ -

كان لي على مايبدو، بشأن أطروحتي لنيل الاجازة الجامعية، رأي أكثر تسامحاً من رأي الأساتذة الذين تولوا تقييمها والحكم عليها. ولكنّ أملي لم يخب، فقد نجحت. ويوم توزيع الشهادات، أخرجت من حقيبتي بزّتي الشتوية القديمة، التي كانت تفوح منها رائحة العفن، وارتديتها. وفي قاعة الاحتفالات حيث كنا منتظمين في صفوف، كان كل فرد منا، بل جميعنا نكاد نختنق من الحر. وأنا الذي كنت حبيس تلك البزّة ذات القماش الكثيف الذي لاينفذ منه الهواء، لم أكن أعراف ماذا أفعل بجسمي. وبعد بضعة دقائق من وقفة الاستعداد تلك، كان المنديل الذي كنت أمسكه بيدي قد أصبح مبتلاً تماماً بالعرق.

وحالما انتهى الاحتفال، عدت إلي المنزل وخلعت ملابسي. ثم فتحت النافذة، وأخذت أنظر إلى العالم الخارجي بتمعّن والحاح مستخدماً شهادتي الملفوفة كمنظار مقرّب. أخيراً ألقيت بالشهادة على المنضدة، واستلقيت على الحصير وقد ضممت ذراعيّ وباعدت مابين ساقيّ. عدت وأنا مستلق هكذا، إلى ماضي حياتي أتأمله، ثم أخذت أفكر بمستقبلي وأتصوّره. وبين الماضي والمستقبل، كانت شهادتي تبدو لي كعلامة فاصلة، وكانت وهي على هذه الحال خرقة غريبة من الورق، كبيرة المعنى وفارغة منه بنفس الوقت.

ذهبت مساء ذلك اليوم لتناول طعام العشاء مع «المعلم» إذ أني كنت قد دعيت لذلك. فقد كان قد تقرّر منذ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

زمن طويل أن أتناول تلك الوجبة في منزل «المعلم»، وليس في أيّ مكان آخر، مساء يوم توزيع الشهادات.

وقد حافظ «المعلم» على وعده: وتكريماً لي وضعت المائدة خصّيصاً في الصالون قرب الممر الخارجي. وكان غطاء تلك المائدة يسترعي انتباهي بتزييناته وزركشته المنسوجة في القماش الكثيف المصقول الذي كان يعكس بنعومة ووضوح نور المصباح. وعندما كنت أتناول طعام العشاء على مائدة «المعلم» كانت دائماً على هذا الغطاء الأبيض تصفّ الحلوى والفناجين. كان ذلك يشكل نوعاً من الطقوس الدينية: وكان الغطاء بلونه الأبيض الذي لايتغيّر قد أحضر لتوّه من الغسيل، وكان يشبه تماماً أغطية الموائد التي تستعملها المطاعم الأوروبية.

وبهذه المناسبة كان «المعلم» يقول:

- إنّ غطاء المائدة يعتبر مثل ياقات القمصان وأكمامها. وفي حا استعمال ملابس لايهتم بنظافتها، يتمّ في الحال اختيار ملابس ملوّنة. ولكن عندما نختار اللون الأبيض، فيجب أن يكون هذا اللون أبيض بالفعل!.

كان كلام «المعلم»، بالنسبة لي، يبرز هوسه بالنظافة. كما كان مكتبه أيضاً، بين العديد من الأشياء الأخرى، يبدي نظافة حقيقية. بينما كنت أنا بطبيعتي قليل الاهتمام بكل ذلك وكان وضع «المعلم» هذا، يبدو غريباً جداً في نظري. وأذكر أني قد أبديت في الماضي ملاحظة بهذا الشأن لزوجة «المعلم»، قائلاً:

- إنّ لدى «المعلم» هوساً بالنظافة!.

ولكنها أجابتني بقولها:

- أوتعتقد ذلك؟ ايه، بالنسبة لكل مايتعلّق بالملابس مثلاً فهو ليس دقيقاً ومتزمّتاً بهذا القدر!.

أما «المعلم» الذي كان موجوداً فقد سمعنا وقال:

- بالحقيقة، أنا، انما في داخلي لديّ هوس النظافة. وبسبب ذلك أعاني وأتألّم على الدوام.ومع ذلك فاني عندما أفكر في هذا الأمر أجده ينمّ عن الحمق والغباء!.

وضحك «المعلم» وهو يقول ذلك.ولكن ماذا كان يعني تماماً بقوله أنه «يشعر أنّ لديه في قرارة نفسه هوس النظافة»؟؟ هل كان ذلك يعني أنه كان يجد نفسه مصاباً بحساسية تتّصف بعصبية تكاد تكون زائدة عن الحد المألوف، أم أنه كان يعني أن النظافة التي كان مهووساً بها كانت نظافة أخلاقية، ومعنوية تماماً؟؟ اني لم أستطع فهم ذلك جيداً، وقد بدا لي أن زوجة «المعلم» أيضاً لم تفهمه.

جلست ذلك المساء إلى المائدة قبالة المعلم. وكانت زوجته تشغل بيننا المكان المواجه للحديقة.

وقال «المعلم» وهو يرفع رأسه تكريماً لي:

- إني أهنئك!.

ومع ذلك فإني لم أكن أشعر ازاء هذه الكأس المرفوعة، بقدر كبير من السرور. إذ لاشك أنّ النجاح في امتحانات الاجازة لم يكن أمراً عجيباً لدرجة أن يكون صداه في القلب بهجة تجعلك ترقص طرباً: وكان ذلك أحد أساب ضعف حماسي. ولكن خاصّة لأنّ صوت «المعلم» لم يكن فيه تلك النبرة القويةالتي تحثّك على الشعور بالبهجة. كان «المعلم» يضحك وهو يرفع كأسه: فإذا كنت لم أتبيّن في تلك الضحكة أيّة سخرية خبيثة، فاني، مع ذلك، لم أتوصّل أيضاً لأن أجد فيها النبرة العميقة المعبرة عن التهاني الحقيقية. وماكانت تعنيه تماماً بصراحة ضحكة «المعلم» بالنسبة لي هو مايلي:

- إنّ من مقتضيات العادة، بدورها، في مثل هذه الحالة، تقديم التهاني، أليس كذلك؟

ولكن زوجة «المعلم» بدورها، قالت لي بلطف:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ هذا حسن جداً، أنت تعلم كم سيكون أبوك وأمك سعيدين.!

وعلى الفور صدمتني صورة والدي المريض، فقلت في نفسي: علي أن أحمل له شهادتي بأسرع مايمكن!

عند ذلك خطر لي أن أتساءل:

ـ وشهادة «المعلم» ماذا حدث لها وأين أصبحت؟؟

فسأل «المعلم» زوجته:

ـ حقاً، ماذا فعلت بها؟ هل تحتفظين بها في مكان أمين؟

ـ أوه، كان من المؤكد أن عليّ أن أحتفظ بها في مكان أمين! ولكن كان يبدو لي آنذاك أنّ لا «المعلم» ولا زوجته يذكران بالضبط المكان الذي كانت توجد فيه الشهادة.

* * *

خلال مأدبة العشاء، وعندما حان وقت تناول الأرز، صرفت زوجة «المعلم» الخادمة التي كانت تقف بجانبها، وأخذت تقدّم هي بنفسها الطعام. كانت تلك هي طريقتها في معاملة أصدقاء الأسرة. وفي البداية، كنت قد شعرت لمرة أو لمرتين ببعض الحرج: ولكنني بعد ذلك وبحكم العادة، لم يعد هذا الأمر يسبب لي أقل حرج، ولم أعد أشعر بالخجل من زوجة «المعلم» وهي تقدّم لي الطعام قائلة عندما كنت أقدّم لها فنجاني:

- ماذا تريد: قليلاً من الشاي أم مزيداً من الأرز؟؟ يالها من شهية! كانت زوجة «المعلم» تتحدث عن كل شيء بوضوح وصراحة ودون أيّ شعور بالحرج. ولكن الفصل كان فصل الصيف والحرّ على أشدّه، ولم تكن لديّ مساء ذلك اليوم تلك الشهية التي تتيح لزوجة «المعلم» ممارسة سخريتها المعتادة، ولذلك قالت:

- هل انتهيت من تناول الطعام الآن؟ لقد أصبحت قنوعاً جداً هذه الأيام، أليس كذلك؟.!

- ليس معنى ذلك أني أصبحت قنوعاً: بل هو الحرّ الشديد الذي يزيل شهيّتي! عند ذلك استدعت زوجة «المعلم» الخادمة، وبعد أن رفعت الأطباق عن المائدة، طلبت منها احضار المثلجات والفاكهة، وقالت:

- إنّ المثلجات، كما تعلم، صنعتها بنفسي، هنا في المنزل!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنمّ عن اللامبالاة وعدم الاهتمام! ولكن لو وضعنا مكانك شخصاً آخر يشعر ببعض الضائقة لما استطاع أبداً أن يعلن عن مثل هذه اللامبالاة بكل اطمئنان!

والحقيقة، أنه كان بين أصدقائي من أخذ يبحث في المدارس عن وظيفة مدرس، حتى قبل الحصول على الاجازة: وكنت أشعر في قرارة نفسي أنّ زوجة «المعلم» كانت على صواب. ولكني مع ذلك، قلت لها:

- أوه، ربما كانت طباع «المعلم» هي التي، دون أيّ شك، قد أثّرت عليّ. فردّت زوجة «المعلم» بقولها:

- ليس هذا التأثير بالشيء الحسن الذي يستحق الثناء والشهرة! أما «المعلم»، فقد بدرت منه ضحكة مغتصبة، ثم قال:

أن يكون أو لايكون لي تأثير عليك، فليس لذلك أية أهمية في هذا المجال. والأمر الهام هو أنك، كما نصحتك بهذا الشأن ذلك اليوم، تتدبّر الأمور لكي تحصل على مايخصّك شخصياً، في الوقت الذي مايزال فيه والدك على قيد الحياة. وحتى ذلك الحين، لن يرتاح بالك ثانية واحدة!

يذكر القارىء أني كنت قد رافقت «المعلم» في أحد الأيام إلى احدى الحدائق الكبرى الواقعة خارج المدينة، ويذكر الحديث الذي جرى بيننا في ظل الأشجار المزهرة، عندما كنا في مطلع شهر أيار. لقد عاودتني تلك الذكرى. كان «المعلم» قد قال لي ذلك اليوم، ونحن في طريق العودة، بصوت متهدّج ينمّ عن الانفعال، كلاماً قاسياً جداً. بل انّ النعت «قاسياً» ضعيف جداً: اذ كان يجب القول: «كلاماً فظيعاً»، غير لأني كنت أجهل كل شيء عن ماضي «المعلم» فلم يكن لذلك الكلام تأثير قوي في نفسي...

وفجأة قلت:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ وأنت والمعلم، سيدتي، هل تملكان ثروة كبيرة؟؟

ـ ايه، ولماذا هذا السؤال؟

ـ لأني كثيراً ماألقيته على «المعلم»، دون أن أحظى أبداً منه بجواب! ضحكت زوجة «المعلم»، ونظرت إلى زوجها تستشيره، ثم قالت أخيراً:

ـ ذلك لأننا ليس لدينا بالحقيقة تلك الثروة التي تستحق أن نتحدث عنها!

ـ ولكن، على وجه التقريب، كم تملكان؟ وإليك سبب الحاحي: عندما أعرف المبلغ الذي أحتاجه كي أستطيع العيش بمستوى أسلوب الحياة الذي يتّبعه «المعلم»، حينئذ سأتّخذ من هذا المبلغ أساساً للمناقشة، عندما أعود إلى جوار والدي!

كان «المعلم» ينفث دخان سيجارته، وقد حوّل أنظاره نحو الحديقة، دون أن يبدي أيّ اهتمام بحديثنا. ولم يكن هنالك للاجابة على أسئلتي سوى زوجته.

ـ إنّ ذلك لايستحق عناء القيام بتقييم حقيقي: انه، بين بين، وعلى وجه التقريب، فإني أتوصل في نهاية الأمر، لأن أحقق التوازن بين طرفي المعادلة، مكتفية بالدخل المحدود لتسديد نفقات المنزل، وهذا كل ماهنالك. ولكن ليس هذا هو الأمر الهام. الأمر الهام، هو أن تختار، أنت، لنفسك مهنة: والاّ، فانك ترتكب خطأ كبيراً. أن تتخذ مهنة تمارسها، لاأن تعيش عاطلاً عن العمل، تتقلّب على الدوام، متمطياً، من جنب إلى آخر، كما يفعل «المعلم»!

ـ أتقلّب، متمطياً، من جنب إلى آخر! انك تبالغين!

قال «المعلم» ذلك، محتجاً على كلام زوجته، وقد التفت قليلاً نحونا.

* * *

- ٢٤ -

مساء ذلك اليوم، وعندما تجاوزت الساعة العاشرة، تهيأت للانصراف. وكنت قد عزمت على العودة إلى بلدتي بعد بضعة أيام، وقبل أن أنهض، قلت مستأذناً بالانصراف:

- هذه المرة أيضاً، سوف أبقى بعض الوقت دون أن أراكم ثانية... فقالت زوجة «المعلم»:

- ولكنك ستعود في أيلول!

بما أني قد أنهيت دراستي، فلم يكن هنالك مايلزمني بالعودة في أيلول. ولم يكن هنالك أية حاجة أيضاً للعودة، في عزّ الحر، لتمضية شهر آب في طوكيو: إذ أنّ قضية ايجاد عمل لم تكن بالنسبة لي بمثل تلك الضرورة التي تستدعي مني العمل من أجلها دون هوادة أو راحة. ولكني قلت:

- نعم، على أية حال، إلى اللقاء في أيلول!

- إذن، أتمنى لك الصحة والعافية!.، نحن أيضاً ربما سافرنا في هذا الصيف: يقال أنّ الحر سيكون شديداً هنا! وعلى كل حال، إذا سافرنا، فسوف تصلك منا بطاقات بريدية!

- وإذا قرّرتما السفر، فإلى أين ستذهبان؟

كان «المعلم» يضحك بعصبية واضحة أثناء هذا الحديث.

- ولكننا غير متأكدين حتى الآن فيما إذا كنا سنسافر أم لا! وهممت بالنهوض، ولكنّ «المعلم» استوقفني باشارة من يده، وقال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ وأبوك، كيف حاله؟

لم أكن أعرف المزيد من الأمور الخاصة بأبي: إذ لم أكن قد تلقيت منه أية أخبار خاصة، ولم أكن أظن أنّ حالته قد ساءت.

وأضاف «المعلم» قائلاً:

ـ ليس مرض أبيك من الأمور التي يمكن النظر إليها باستخفاف: فحالما تحدث أولى نوبات تبول الدم، يصبح الأمل بانقاذه مفقوداً تماماً!

لم أكن أفهم معنى هذه الكلمة «تسمم الدم» أو «تبول الدم» بسبب تسممه. وكنا في عطلة الشتاء الماضي قد أجرينا مشاورات مطولة مع الطبيب المختص، ولكني لم أسمعه يلفظ هذه الكلمة العلمية.

ومن جهتها، قالت زوجة «المعلم»:

ـ أقول لك بكل جد، يجب أن تعتني جيداً بمعالجة والدك! لأن هذا المرض يؤدّي في النهاية إلى تسمم الدماغ: وهو أمر خطير كما تعلم!

وبما أنني كنت أجهل كل شيء عن ذلك، فقد تبدّى قلقي نفسه بضحكة عصبية، وقلت دون أن أتعمّد ذلك أو أتبيّن جيداً ماقلته:

ـ ومالعمل!. إذا كان هذا المرض لايرحم حقاً، فإن أيّ هم نحمله أو أيّ قلق نبديه بسببه، لاجدوى منهما!

فقالت زوجة «المعلم» معلقة على ماقلته:

ـ أوه، إذا كنت تتقبّل ذلك بهذا الشكل، أي بهذا القدر من الخضوع والتسليم، فأنا، بذمتي، لم يعد لديّ ماأقوله!

فهل كانت زوجة «المعلم» ماتزال تذكر أن أمها قد ماتت بنفس المرض؟ لاأدري: ولكنها عندما تلفّظت بكلماتها بتلك

اللهجة الجادة والوقورة، كانت مطرقة وقد أخفضت عينيها. من كل ذلك أدركت أن والدي مقضيٌّ عليه، وأخذت أشعر نحوه بشفقة كبيرة.

وفجأة التفت «المعلم» نحو زوجته، قائلاً:

ـ وأنت، «شيزو»، أتظنين أنك ستموتين قبلي؟

ولماذا هذا السؤال؟

ـ لماذا، إني لاأدري أبداً: إني أطرحه عليك، وهذا كل مافي الأمر... أو، هل أنا سأرحل عن هذا العالم قبلك؟ بشكل عام، الزوج هو الذي يفارق هذا العالم أولاً، وتبقى الزوجة بعده على قيد الحياة ردحاً من الزمن!

ـ هذه ليست قاعدة مطلقة: ولكن الزوج وهوالأكبر سناً، فمن المؤكد اذن...

ـ نعم، ان هذه الفكرة معقولة. وفي هذه الحالة، وبناء على ذلك، فإني أنا أيضاً الذي سأرحل قبلك!

ـ أوه، كلا، بالنسبة لك، الأمر مختلف!

ـ ايه، ولماذا؟

ـ لأنك، أنت، قوي البنية: ولم تصب تقريباً بأيٍّ مرض! اذن، فبالضرورة، أنا التي سأرحل قبلك!

ـ أنت، ستكونين أول من يرحل!

ـ نعم، بالتأكيد!

وألقى «المعلم» نظرة نحوي، وعند ذلك لم أتمالك نفسي من الضحك.

ـ أخيراً، لنفترض أني متّ قبلك، فماذا ستفعلين؟

ـ ماذاسأفعل، ماذا تعني بذلك؟

كان هنالك تردد واضح في كلمات زوجة «المعلم».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فبتصورها موت المعلم بدا وكأن الحزن قد غمر قلبها. ولكنها عندما رفعت رأسها ونظرت نحونا، كانت قد عادت إلى روعها، فقالت:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل؟ ولكن لاشيء... فماذا بامكاني أن أفعل؟ لقد قال بوذا: «ستموت، شاباً كنت أو مسناً، فالموت لايتقيد بقاعدة!»

كانت زوجة «المعلم» بقولها ذلك وهي تلتفت نحوي، تبدو وكأنها تمزح.

* * *

- ٣٥ -

كنت قد هممت بالنهوض كي أستأذن بالانصراف، ولكني عدت فجلست: إذ أنّ الحديث لم ينته، وكان أدب المجاملة يقضي أن أبقى برفقة «المعلم» وزوجته. عند ذلك سألني «المعلم»:

- وأنت، ماهو رأيك بخلافنا؟

كيف كان بامكاني أن أجزم فيما إذا كان على «المعلم» أن يموت قبل زوجته، أو أن على زوجته أن تموت قبله؟ كنت مرتبكاً جداً فلم أستطع سوى الضحك، وكان كل ماقلته:

- إنّ مدّة الحياة أمر خفيّ، أجهله أنا، كما يجهله الجميع!

فقالت زوجة «المعلم» مؤيدة قولي:

- نعم، ليس هنالك بالأساس سوى حقيقة واحدة: وهي أنّ الحياة من الأمور التي يحدّدها القدر بشكل مسبق. فمنذ الولادة، يكون الحساب محدّداً والانسان عاجزاً عن تغيير أيّ شيء فيه! فهل تعلم أن عمي، على سبيل المثال، وزوجته قد توفيا تقريباً بنفس الوقت؟

- بنفس اليوم بالضبط؟

- كلاّ، ليس بنفس اليوم بالضبط: ولكن في فترة متقاربة جداً! مات أحدهما بعد الآخر...

كانت تلك أول مرة أسمع بذلك. وقد وجدت الأمر غريباً، فقلت:

- هل ماتا سوية؟ ولكن كيف كان ذلك؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كـادت زوجـة «المعلم» تجـيـبـني على ســؤالي، ولكن «المعلم» منعها من ذلك، قائلاً:

- هيا، لاتتـحـدثي بعد الآن عن هذا الأمـر: فـلا جدوى من ذلك!

كان «المعلم» يحدث أكثر مايمكن من الضجة بالمروحة التي كـان يمسك بهـا، ومن جديد، وجّه أنظاره إلى زوجتـه وقـال:

- شيزو! عند موتي، سوف أمنحك هذا البيت!

فأطلقت الزوجة ضحكة قوية، وقالت:

- أعطني أيضـاً قطعـة الأرض وأنت مـازلت على قـيـد الحياة في هذا البيت، أتريد ذلك؟

- كلا: لأنّ قطعة الأرض لاتخصني، ولاحيلة لي في ذلك. ولكني سوف أعطيك أيضاً كل ماأملك، كتعويض لك عن ذلك!

- شكراً جـزيلاً! ولكن مـاذا تريدني أن أعـمل بكل تلك الكتب الأوروبية؟!

- يمكن بيعها!

- وكم سأجني من بيعها؟

لم يجب «المعلم» على سؤال زوجتـه. وكان واضحـاً أن تفكيره ظل منصرفاً باستمرار إلى نفس الموضوع البعيد: ألا وهو مـوضوع موته، هو. وكنا نشعر أنه حسب تفكيره، هذا الموت نفسه، يجب أن يسبق موت زوجته.

في البداية، كانت زوجة «المعلم» تتظاهر بأنها لاتعلق على هذا الحديث أيّ أهمـيـة، ولاتأخذه بأيّ شكل من أشكال الجدّية. ولكن الموضوع انتهى، بصورة لاشعورية، بالضغط والرزوح على قلبها، وهو بطبيعة الحال قلب امرأة، فقالت:

- «عندما أموت... عندما أموت»... هلاّ انتهيت أخيراً

من ترديد هذه الحماقة! أرجوك،كفّ نهائياً عن ترديد هذه العبارة: «عندما أموت»! فهي تجلب الشؤم! وعندما تموت، ايه، فإني سوف أنفذ رغباتك كلها، وألتزم بها في كل المجالات، إني أعدك بذلك! وهاأنت راض الآن، على ماأظن!

أخذ «المعلم» يضحك وهو يلتفت نحو الحديقة، ولكنه في تلك اللحظة كفّ عن متابعة ذلك الحديث الذي لم يكن يروق لزوجته. وكنت أنا، من جهتي، قد تأخرت كثيراً: ولذلك نهضت بسرعة. فرافقني «المعلم» وزوجته حتى مدخل البيت، وقالت لي زوجة «المعلم» أخيراً:

ـ اعتن جيداً بمريضك!

أما «المعلم» فقد قال:

ـ اذن، إلى اللقاء، في أيلول!

وبعد أن ودّعتهما، أغلقت خلفي الباب الداخلي. وكان يوجد بين ذلك الباب والباب الخارجي شجرة من أشجار الزينة متشابكة الأغصان، كانت تشكل أمامي بأغصانها الكثيفة، حاجزاً قوياً في ذلك الظلام الحالك. خطوت خطوتين أو ثلاث، وتأملت الشجرة الداكنة ذات الذروة المورقة، وتخيلتها، بشكل مسبق، مغطاة بالزهور، تفوح منها رائحة عطرية، كما ستصبح في الخريف المقبل. كان منزل «المعلم» وهذه الشجرة متلازمين بشكل لايمكن معه الفصل بينهما، في ذهني وفي ذاكرتي، منذ زمن طويل. وأطلت التفكير، وقد وقفت أمام تلك الشجرة، بذلك الخريف المقبل، الذي سيشاهد من جديد اجتيازي عتبة بيت «المعلم». وفجأة لاحظت أن المصباح الذي كان ينير المدخل قد أطفيء: كان «المعلم» وزوجته، دون أن ينتظرا أكثر من ذلك، قد انسحبا إلى غرفتهما. وخرجت أنا وحدي لأسير في الشارع المظلم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أرجع مباشرة إلى المنزل. فقد كان عليّ، قبل عودتي إلى بلدتي، أن أشتري بعض الحوائج، كما كان يجب عليّ أن أتمشّى قليلاً كي أساعد معدتي في عملية الهضم: ولذلك أخذت أتسكع في الشوادع المزدحمة. كان الوقت مايزال عند ذلك، في بداية الأمسية. والتقيت، بين أولئك الذين لاعمل لديهم والذين كانوا يزرعون الشوارع جيئة وذهابا، بأحد رفاقي في امتحانات الاجازة. دفع بي رفيقي إلى أحد المقاهي، وهنالك كان عليّ أن أتحمّل ثرثرته الفارغة الشبيهة برغوة البيرة. وعندما عدت إلى المنزل كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.

* * *

في اليــوم التـــالي، لم أبال بالحــر، وذهبت لأقـــوم بالمشتريات التي طلبتها مني أسرتي. كنت عندما تلقيت الرسالة التي تطالبني فيها القيام بذلك، قد اعتبرت شراء تلك الحاجيات أمراً بسيطاً للغاية: ولكن، عندما حان وقت التنفيذ، وجدت ذلك العمل مملاً جداً. وفي الترام، كنت وأنا أجفّف العرق الذي كان يسيل على جبيني، ألعن أولئك القرويين لكونهم يعتبرون اضاعة الوقت والازعاج الذي يسببونه لي، واجباً، بل ديناً من الطبيعي أن أؤديه لهم.

كنت أكره قضاء الصيف دون القيام بأيّ عمل وفي بطالة تامّة، ومن أجل العودة إلى القرية، كنت قد وضعت لنفسي مسبقاً مخططاً للعمل، أحتاج من أجل تنفيذه، لبعض الكتب. ولذلك قررت مسبقاً قضاء نصف نهار بكامله في الطابق الأول من مخزن «ماروزين» الكبير، حيث توجد الكتب الأوروبية. كنت وأنا أقف أمام الرفوف المخصصة للمؤلفات المتعلقة باختصاصي، أتفحص الكتب واحداً واحداً.

كان أكثر مايربكني بين الأشياء التي كان عليّ أن أشتريها، هو شراء قبات حريرية داخلية لملابس «الكيمونو» النسائية. كان يكفي، بالتأكيد، أن أطلب ذلك من البائع، كي يعرض أمامي مجموعة كبيرة منها: ولكن الأمر الصعب كان تحديد الاختيار، فقد كنت أحتار في ذلك وأجد نفسي ضائعاً تماماً. ثم كانت هنالك مشكلة الأسعار التي كان بينها فروق كبيرة جداً. فما كنت أظن أنه يجب أن يكون رخيصاً، كان بالحقيقة غالياً جداً. وعلى العكس من ذلك، فما كنت لاأجرؤ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا وكنت قد كتبت إلى أخي الأكبر بهذا المعنى، وكان يقيم في «كيوشو»: «أن يستطيع والدنا استعادة صحته التي كان ينعم بها في السابق، فهذا أمر يجب أن نقطع منه الأمل.»، هذا ماقلته لأخي في احدى رسائلي. وفي رسالة أخرى، أضفت على ذلك وأفصحت أكثرعن أفكاري، إذ كتبت له قائلاً: «انه مهما كانت التزاماته هامة، فانّ عليه أن يتدبّر أموره كي يعود إلى المنزل خلال فصل الصيف، حتى وان كان لفترة وجيزة من الوقت، يرى خلالها مرة أخرى وجه أبيه، كما كتبت له قائلاً أن عليه أن يفكر جدياً بما طلبته منه، وأضفت على ذلك قولي: «لأن تلك الوحدة بالنسبة للعجوزين اللذين يعيشان هناك وحدهما لابدّ وأن تكون بائسة ومحزنة جداً، وأننا، نحن، ولديهما، لايمكننا تجاهل الاحساس بتأنيب الضمير الشديد بسبب هذا الوضع.»

هكذا كنت أعبر بعطف وحنان في الرسائل التي كنت أبعث بها لأخي الكبير. وبكل صدق، كانت الأفكار نفسها التي ترد إلى ذهني، هي نفسها التي كنت أعبّر عنها في رسائلي لأخي. ومع ذلك، فاني بعد كتابة الرسائل، كنت في كل مرة أجد نفسي في وضعية، وحالة نفسية أخرى، مختلفة تماماً عن الحالة التي كنت فيها عندما كنت أكتبها.

وانما على هذا التناقض بالذات، كان تفكيري منصباً أثناء رحلتي في القطار الذي استقليته إلى بلدتي. ومن خلال هذا التفكير، كنت أبدو لنفسي كائناً متغيّراً جداً وساذجاً. وكان ذلك يترك في نفسي نقمة كبيرة. وأخذت في نفس الوقت تقريباً أفكر بالمعلم وبزوجته. وتوقفت في تفكيري طويلاً عند ذكرى الحديث الذي دار بيننا على المائدة أثناء زيارتي الأخيرة، كان «المعلم» قد سأل زوجته:

- من منّا نحن الاثنين سيموت قبل الآخر؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان هذا السؤال الذي طرحه «المعلم» على زوجته يتردد على شفتيّ. وبالحقيقة، لم يكن هنالك أحد يستطيع الاجابة عليه بثقة وبشكل جازم. ولكن لو افترضنا أننا استطعنا أن نعرف بوضوح من من الاثنين سيموت قبل الآخر، فكيف سيكون وضع «المعلم» وسلوكه؟ أو كيف سيكون وضع زوجته وسلوكها؟ ايه، ان كان «المعلم» وان كانت زوجته، فماذا بامكان أيّ منهما، هو أو هي، أن يفعل، ان لم يكن التسليم بالمقدّر الذي لامرد له؟ وكذلك أنا، عند دنوّ أجل والدي، ماذا أستطيع أن أفعل، ان لم يكن الخضوع والتسليم؟ وإلى أية درجة كان الانسان شيئاً تافهاً ومسكيناً، فهذا ماكنت أشعر به حينئذ في قرارة نفسي. وأنّ الانسان مهما فعل، فهو عاجز، لاحيلة له ولا قوة حيال هذا العجز الطبيعي، وهذا بالضبط، هو الذي جعل من الانسان شيئاً مسكيناً وضعيفاً إلى هذه الدرجة.

* * *

الجزء الثاني

أنا وأهلي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١ -

شعرت بمفاجآة سارّة لدى وصولي إلى بيت أهلي عندما لاحظت أن صحة والدي لم تسوء كثيراً بعد زيارتي الأخيرة:

- هاأنت قد عدت! آه، اني مسرور جداً! ثم حصولك على الشهادة، هذا أمر حسن! انتظرني قليلاً: سأغسل وجهي وأحضر في الحال!

كان أبي في الباحة، لاأدري ماذا كان يعمل. كان يغطي رأسه بقبعة قش عتيقة، ولكي يحمي نفسه من الشمس بشكل أفضل، كان قد أضاف لها كغطاء للرقبة، منديلاً وسخاً بعض الشيء، وقد تدلّت أطرافه. كانت البئر موجودة خلف البيت، الذي أخذ أبي يتمشى حوله.

كان الحصول على الاجازة يبدو لي أمراً طبيعياً جداً. أما أن يبدي أبي بسبب ذلك هذا الفرح الشديد، فإن هذا الأمر كان يحيرني ويجعلني مرتبكاً جداً.

- حصولك على شهادتك، هذا أمر حسن!

لم يكن على شفتي والدي سوى هذا المديح. وأنا في سرّي، لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من المقارنة بين هذا الفرح الذي يبديه والدي وبين الموقف الدي اتخذه مني «المعلم» على المائدة، في نفس اليوم الذي وزّعت فيه الشهادات.

فقد قال لي يومذاك:

- تهانيّ!

وإني لأذكر مع ذلك اللهجة التي قال لي بها ذلك. فقد هنأني من طرف شفتيه: وفي قرارة نفسه كنت أستشفّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظرك، أستطيع أن أفهم موقف اللامبالاة الذي تتخذه من تهاني الآخرين لك لمجرّد حصولك على الاجازة. ولكن ضع نفسك مكاني. انّ هذه الاجازة، القليلة الأهمية بالنسبة لك، هي بالنسبة لي، وأنا في الحالة التي تراني فيها، شيء عظيم جداً! وهذا ماكنت أعنيه بقولي: «هذا حسن!» أفهمت الآن؟؟

كان الشعور بأخطائي يعقل لساني ويجعلني عاجزاً عن الكلام. فلم أجرؤ حتى على مجرد الاعتذار، وبدا لي أنّ الاطراق وخفض النظر، هو الموقف الوحيد المناسب. هكذا، كان أبي اذن قد سلّم بدنو أجله وخضع بكل هدوء لفكرة قرب موته! وهكذا كان يتوقع أنِ يأخذه الموت حتى قبل أن أنهي دراستي! وتلك الاجازة، أيّ صدى وجدت في قلبه! وكم يجب أن أكون بليداً، حتى لاأشعر بذلك!

عندئذ أخرجت الشهادة من حقيبتي، وقدّمتها لوالديّ كي يريانها، وكأنها شيء ثمين. كانت ملفوفة وقد تجعّدت أثناء الرحلة. ولكي يزيل أبي منها التجعّدات أخذ يفتحها بعناية كبيرة وهو يقول:

ـ هذه ليست شيئاً يستهان به ويمكن ازدراؤه، كما تعلم! وكان عليك أن تحملها بيدك كما هي!

ومن جهتها، أمي قالت:

ـ أو على الأقل، كان عليك أن تلفها على شيء ما!

ظل أبي يتأمل الشهادة برهة من الزمن، ثم نهض واتجه نحو مكان الصدارة في المنزل ووضعها فيه بشكل تبدو جيداً للعيان.

لو أنني كنت في حالتي الطبيعية لكنت في الحال اعترضت بشدة على هذه المبالغة. ولكني كنت أشعر أني قد تغيرت تماماً، ولم تعد لديّ أية رغبة بأن أنتقد بشيء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تصــرفــات والديّ، ولذلك لزمت الصــمت وتركت والدي يتصرّف كما يحلو له. ومع ذلك فإن ورق الشهادة القاسي، الكثير التجعدات لم يكن من السهل التعامل معه والتحكم به: فلم يكد يفتح ويعرض بشكل صحيح، حتى يعود من تلقاء نفسه إلى طياته وتجعداته، وفي كل مرة كان يسقط من مكانه.

* * *

انتحيت بأمي جانباً، وأخذت أسألها عن حالة والدي:

- هل أبي قد أصبح اذن بصحة جيدة؟ انه يخرج، ويشتغل... هل هذا حقاً معقول؟

- أتعلم أنه على مايبدو لم يعد يشكو من شيء ذي بال، بل انه، من يدري، ربما يكون قد شفي!

كان هدوء أمي مذهلاً حقاً. وبعيداً عن المدينة، لم تكن سوى امرأة بين تلك النسوة اللواتي، بسبب عيشهن وسط الغابات وحقول الأرز، يمكثن جاهلات تماماً بكل الأمور الطبية. ومع ذلك ففي المرّة الأخيرة التي أصيب فيها أبي بنوبة اغماء، كانت قد انهارت وتألمت لدرجة أني، بيني وبين نفسي شعرت، بسبب ذلك، بدهشة يشوبها التأثر...

وقلت ملحّاً:

- لكنك تعلمين جيداً أنّ الأطباء قد صرّحوا في الشتاء الماضي أنه لم يكن هنالك أبداً أيّ أمل بانقاذه!

فأجابتني قائلة:

- ماذا تريد أن أقول لك، انّ الجسم البشري شيء غريب جداً! هل قرّر الأطباء أن حالة أبيك خطيرة؟ وبعد ذلك! فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون اليوم على قيد الحياة! أتعلم أني، أنا أيضاً، بدأت تساورني الوساوس والشكوك! وكنت أحاول طيلة الوقت منعه من التحرّك: ايه، كان الأمر سهلاً! أنت تعرفه، أليس كذلك؟ فبشأن العناية، هو يعتني بنفسه.ولكنه عنيد! وعندما يدور في خلده شيء، فاني مهما صرخت: لايبدر منه مايدل على الأقل، أنه يسمعني!

تذكرت بالفعل أنّ أبي، خلال اجازتي الأخيرة، كان، بشكل غير معقول أبداً، قد طلب نزع أغطيته، ثم نهض،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحلق ذقنه، وقال محتجاً، بلهجته الخاصة به، أنّ الخطر قد زال عنه تماماً، وأنّ كل ماهنالك هوعبارة عن مبالغة من قبل أمي. كانت تلك الذكرى تمنعني من أن ألقي على أمي كامل المسؤولية عن تصرّفات أبي التي تنم عن الطيش.

ومع ذلك، فقد تبادر إلى ذهني أنّ على من هم بجوار أبي أن يبدوا بعض الحذر والانتباه. ولكني وان كانت لديّ رغبة بابداء ملاحظة بهذا الشأن، فاني قد امتنعت، بدافع الحرص الشديد، عن التلفظ بأية كلمة يمكن أن يستاء منها أحد. وقد اكتفيت بشرح طبيعة مرض والدي بقدر مااستطعت. ولم يكن هنالك شيء، مع ذلك، في هذا الشرح، الاّ ماكنت قد سمعته من أقوال «المعلم» وأقوال زوجته. كما أنّ أمي لم تتأثر بذلك الشرح على مايبدو، اذ أنها اكتفت بالقول:

- آه، هكذا اذن! فحماة «المعلم» ماتت بهذا المرض نفسه! انه لأمر محزن جداً! وفي أيّ سن ماتت تلك المرأة؟

وبعد نفاذ الحديث، وفي حالة من اليأس، تركت أمي هناك، وتوجهت مباشرة للتحدّث مع أبي، فهو على الأقل، نظر إليّ نظرة أكثر جدّية. ولكنه في النهاية قال:

- إنّ الأمر هو كما تقول، فليكن ذلك! ولكن في آخر المطاف، جسمي هو جسمي الخاص بي، أليس كذلك؟ وفيما يتعلق بالعناية التي يجب أن تقدّم له، فمنذ أن اعتدت على القيام بذلك، إذا كان هنالك من يعرف ماذا يجل عمله في هذا المجال، على أفضل وجه، أكثر من أيّ شخص كان، ربما كنت أنا، أليس كذلك؟

- هذه العبارات الحماسية التي كان يلقيها أبي بلهجة حماسية، كانت أمي تستمع إليها وهي تضحك ضحكة مغتصبة، ثم قالت، موجهة كلامها لي:

- حسناً، هاأنت قد نلت نصيبك، أنت أيضاً، فهل يكفيك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تماماً. فعندما يصرخ المريض قائلاً: «إني أموت، إني أموت!» ليس هنالك سابقة تدل على أنه على وشك الموت، ويمكن لمن هم حوله أن يناموا ملء جفونهم وبكل اطمئنان. ووالدك الذي يردد دائماً هذه الكلمات، سوف يعيش أيضاً سنيناً طويلة! ولكنّ أولئك الدين لايشكون مطلقاً، أولئك الذين يبدون بأجسام صلبة كشجر السنديان، هؤلاء، يمكنك أن تكون واثقاً أنهم الأكثر تعرّضاً للخطر!

لم أكن أعلم ان كان ذلك حكماً منطقياً أم معلومات احصائية، ولكن أحاديث أمي، هذه، كانت تبدو لي شيئاً من هذا القبيل: ولذلك كنت أصغي إليها صامتاً، ومستغرقاً في حزن لانهاية له ومبعثه تلك الأفكار التي كانت تتزاحم في أعماق ذهني.

* * *

- ٣ -

قرّر والديّ فيما بينهما القيام بمشروع وليمة، على شرفي وتكريماً لي، يطبخ خلالها الأرز بالفاصوليا الحمراء ويدعى إليها الجيران. ومنذ اليوم الأول لعودتي، كنت أظنّ أن لابد من حدوث ذلك، وكنت، بيني وبين نفسي، ودون أن أدرك السبب بشكل واضح، أخشى احتمال حدوث ذلك. ولهذا فاني رفضت في الحال هذا المشروع، وقلت محتجاً.

- كلا: انّ هذا، بالحقيقة، أكثر مما ينبغي!

كنت أكره هذه الولائم الريفية. حيث يجري فيها دائماً المزيد من الشراب والمزيد من الأكل، تلك كانت الغاية القصوى لتلك التجمعات من القرويين، الذين لم يكن يشغلهم شيء بقدر البحث مسبقاً عن أية مناسبات وفرص مواتية يمكن أن تتيحها لهم المصادفات في المستقبل. وكنت منذ طفولتي أعاني من التعامل مع هؤلاء الناس. وأن تقام تلك الوليمة خصيصاً لتكريمي، فانّ ذلك كان يزيد أيضاً من معاناتي ومن عذابي. ولكني تقديراً مني لوالديّ، لم أجرؤ على أن أقول لهما بصراحة، أن ليس هنالك أية حاجة لهذا القدر الكبير من الجلبة، وأنّ عليهم أن يتركوا أولئك الناس السمجين حيث هم. ولذلك فقد اكتفيت بالالحاح على قولي أني لاأستحق هذا التكريم المبالغ فيه.

عند ذلك قالت أمي محتجة:

- مبالغ فيه، مبالغ فيه! دعك من ذلك، إني لاأجد فيه أية مبالغة! إذ أنّ انهاء المرء لدروسه لايحدث الا مرة واحدة في الحياة، وانه لأمر طبيعي جداً أن يحتفل بذلك مع بعض المدعوين! فلا عليك اذن من ذلك!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومن جهته قال أبي:

- ليس معنى ذلك أنه لايمكن اذا اقتضى الأمر، الاستغناء عن هذه الوليمة، ولكن، كما تعلم، إذا لم ندعهم، سوف يتكلمون... اذن...

كان أبي يخشى ألسنة الجيران. وفي مثل هذه الحالة، والحق يقال، لو أنّ انتظارهم انتهى بالخيبة، لما قصّرت ألسنتهم أبداً بممارسة ثرثرتها.

وأضاف أبي قائلاً:

- أنت تعلم، هنا، الأمور أصبحت مختلفة عنها في طوكيو! هذا هوالريف، الريف وأموره التافهة وجوانبه الصغيرة!

وأخيراً قالت أمي:

- ثم، انّ ذلك بالنسبة لأبيك مسألة ماء وجه وحياء!، كانت بقولها هذا تلح لاقناعي بالموافقة على اقامة الحفلة.

وبدا لي أنه من المستحيل الاستمرار في العناد أكثر من ذلك، ووجدت نفسي مرغماً تماماً على الموافقة على ماأراده أبي وأمي، ولذلك قلت:

- أكرر لكم ماقلته سابقاً، إذا لم يكن ذلك الاّ من أجلي أنا، فاتركوا جانباً هذا المشروع! والآن، إذا كان مايشغل بالكم بالدرجةالأولى خوفكم من ثرثرة الناس ومن القيل والقال، فهذااذن شيء آخر: وإذا كان عدم اقامة حفلة، ودعوة الناس إليها، أمر يسيء اليكم، فاني لن أصر على مطالبتكم بذلك!

كان كل ماقاله أبي عندئذ، بلهجة تنم عن المرارة:

- كفّ عن البحث وايراد الأفكار والآراء المنمّقة، والاّ فانك ستجعلني في الحال عاجزاً عن النطق والكلام!

وقالت لي أمي بلهجة العتاب:

- لايمكنك أن تفترض، على أية حال، أنّ والدك لايهتم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حصولي على الاجازة، الاّ غباراً تذروه الرياح:

ـ يفضّل الامتناع عن اقامة هذه الحفلة، في الوقت الحاضر! كان هذا كل ماقاله أبي، وقد وضع نظارته التي كان يقرأ الصحيفة من خلالها.

ولكن لاشك أن أبي، في تحفظه، كان يفكر بمرضه هو. أما بالنسبة لي، فمن بين الذكريات الكثيرة الأخرى، عاودتني ذكرى زيارة الأمبراطور الأخيرة، التي مازالت قريبة العهد، والتي قام بها هذه السنة، كما في السنين السابقة، وكرّم بها احتفالنا بتوزيع الشهادات.

* * *

- ٤ -

كنا قليلي العدد جداً، كساكنين، بالنسبة لبيت عائلتنا، وهو بيت قديم واسع الأرجاء. وفي ذلك الهدوء الذي يخيم عليه، أخرجت كتبي وبدأت المطالعة. ولكن لم أكن أشعر أنّ نفسي آمنة مطمئنة، دون أن أعرف لذلك سبباً واضحاً. وكنت أذكر طوكيو، تلك المدينة الشديدة الازدحام، حيث كنت طالباً، أقلّب صفحات كتبي الواحدة بعد الأخرى، وضجيج قطارات المدينة، التي تمر بعيداً يملأ أذنيّ، وأنا قابع في غرفتي الضيقة، ناعم البال، متوقّد الذهن على الدوام: انه لأمر غريب، يدعو حقاً إلى العجب، إذ أني في ذلك الجو، كنت أعمل بشكل لم أعمل بأفضل منه ولاأعذب طيلة حياتي.

ولكني في هذا المنزل، غالباً ماكنت أستسلم للنوم، ومستنداً بمرفقيّ على المنضدة الصغيرة. بل انّ الأمر كان يذهب بي أحياناً حتى إلى أن أخرج من الخزانة وسادة صغيرة، وأنعم حتى الاكتفاء بمتعة القيلولة. كنت أستيقظ على أصوات الصراصير. وكان يبدو لي أنّ تلك الأصوات كانت تنبعث بصورة مستمرة من أعماق أحلامي ثم تنفجر فجأة، وتقترب فتصدم أعماق أذنيّ بشكل مزعج. وكنت أحياناً أشعر بالحزن يغشى قلبي، وأنا أصغي لتلك الأصوات دون أن أبدي أية حركة.

وأحياناً أخرى، كنت أتناول قلمي وأكتب لأصدقائي: لهذا، مجرّد بطاقة، ولذاك رسالة مطولة. كان هذا قد بقي في طوكيو، أما الآخر فقد غادرها وعاد إلى قريته النائية. كان الأول يرد على رسائلي، أما الآخر فلم يكن يفعل ذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تماماً. ورقعة الشطرنج التي غطاها الغبار، وضعت على الرف في احدى الخزائن. ومنذ أن أصيب الامبراطور بالمرض، لم يكن يكفّ أبي، على مايبدو، عن الاستغراق في التأملات العميقة. وفي كل يوم، كان يترصّد بفارغ الصبر وصول الصحيفة، ويتصفّحها قبلنا جميعاً. وعندما كان ينتهي من ذلك، كان يأتي بنفسه ليجلبها لي، قائلاً:

- هاك، اقرأ! انّ فيها أخباراً جديدة مفصّلة عن صحة امبراطورنا! تلك كانت طريقة أبي بالقول دائماً «أمبراطورنا»، بدلاً من «الأمبراطور» وغالباً ماكان يضيف:

- انّ ماسأقوله الآن ينمّ عن الكثير من عدم الاحترام، ولكن هنالك فكرة قد استحوذت على ذهني وهي أنّ مرض امبراطورنا يشبه إلى حدّ كبير مرض أبيك!

في تلك اللحظة كان يغشى وجه أبي مايشبه سحابة سوداء من القلق العميق. وأنا، عند سماعي ماقاله، كنت أشعر بالخوف يتزايد في نفسي من أن يسقط بين لحظة وأخرى، مغمياً عليه، مرة أخرى.

ولكنّ أبي تابع حديثه قائلاً:

- إنّ أمبراطورنا سوف يشفى، على ماأظنّ! انظر اليّ: إني لست سوى رجلاً مسكيناً، ومع ذلك فقد قاومت وصمدت!

ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الاهتمام الذي كان يبديه لتطمين نفسه، فانه كان يبدو تماماً أنّ أبي يشعر بالخطر المحيق به وأنّ هذا الخطر يوشك أن ينقض عليه. وتحدّثت مع أمي بهذا الخصوص، قائلاً:

- أتعلمين أنّ أبي بدأ يشعر بالخوف. وبشأن رأيك بأنه مازال يأمل العيش عشر سنوات، بل ربما عشرين سنة أيضاً، هذا الرأي، أخشى تماماً أن تكوني مخطئة فيه!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عند ذلك تلاشت من وجه أمي أمارات الاطمئنان الجميلة، وقالت:

- حبّذا لو حاولت أن تلاعبه بالشطرنج، كما كنت تفعل في السابق!؟ فتناولت رقعة الشطرنج من الخزانة ونظفتها من الغبار.

* * *

بدأت الآن قوى أبي تضعف، شيئاً فشيئاً. وقبعة القش العتيقة، التي كان النظر إليها وإلى المنديل الذي كان يظل مثبتاً عليها، يبعث في نفسي المرح والتسلية، هذه القبعة، اضطر أبي الآن إلى إلقائها على أحد الرفوف الذي صبغه الدخان باللون الأسود. وفي كل مرّة كنت أوجّه إليها نظري، كنت أشعر بغصة في القلب لتفكيري بعجز أبي عن الخروج بحريّة كما كان يفعل في السابق. ولم يكن قد مضى على ذلك بضعة أيام حيث كان يخرج ويسير بخطوات رشيقة، وكنت أشعر حينئذ بالتبرّم والانزعاج مفكراً بأنه كان عليه أن يداري نفسه أكثر من ذلك. أما الآن، فيظل جالساً القرفصاء، لايبدي حراكاً. وبمقارنتي بين هذين الوضعين، آخذاً كل شيء بعين الاعتبار، كنت أفضل أن أراه يتحرك جيئة وذهاباً كما في السابق. وعن حالة أبي هذه، كنت أتحدّث على الدوام مع أمي، وقد قالت لي ذات يوم:

- أتعلم أنّ الأمر، في الأساس، ليس سوى أفكار من الوهم والوساوس يتصورها أبوك، ولاشيء أكثر من ذلك!

كانت أمي، مع بساطة عقلها، تقيم علاقة كعلاقة السبب والنتيجة بين مرض الأمبراطور ومرض أبي.ولكنني لم أكن أظنّ، أنا من جهتي، أنّ خطورة مرض أبي هي مجرد خيال وأوهام، ولذلك أجبتها:

- كلا، انها ليست مجرّد أفكار: انّ جسمه يضعف ويضمحلّ، هيا، دعك من ذلك! نعم، انّ القضية أكثر من شيء في الذهن أوالنفس، انّ جسمه هو الذي تزداد حالته سوءا!

وعند قولي ذلك، كنت أشعر برغبة شديدة بأن أستدعي من المدينة، مرة أخرى، اختصاصياً ماهراً يعطينا رأيه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سنتمترات، وربطت أحد طرفي الشريط بالكرة، وتركت الطرف الآخر متدلياً. ثم نكست العلم بتثبيته مائلاً على أحد أعمدة المدخل الخارجي: فتدلى العلم والقماش الأسود في الهواء الهادىء. كان مدخل منزلنا مغطى بسقف صغير من القش، وقد انهمرت عليه الأمطار وعصفت به الرياح، فأعطته مع مرور الزمن، لوناً رمادياً، وحفرت فيه أخاديد تلفت النظر.ومكثت بمفردي، وحيداً، أتأمل ذلك العلم المرفوع خارج مدخل المنزل. قماش «الكريب» الأسود، و«الموسّلين» الأبيض، ودائرة الشمس المشرقة الحمراء، كل هذه الألوان كانت تبدو، بتناقض مثير، على سقف القش المهترىء القديم، وفجأة عاودتني احدى الذكريات:

كان «المعلم» قد سألني ذات يوم:

- ومنزلكم، كيف ترتيبه؟ انه ليس تماماً كما هي الحال في منطقتنا، على ماأعتقد!

كان هذا السؤال، الذي تذكرته حينذاك، مازال يبعث الحيرة في نفسي. فلو كان «المعلم» هنا، بجانبي، ماذا كنت أفعل؟ فمن جهة، كنت أودّ أن أريه بيتنا القديم الذي ولدت فيه. ولكني، من جهة أخرى، كان يبدو لي أنّي ربما شعرت خلال ذلك ببعض الحرج والارتباك.

وفي نفس العزلة المعنوية التي كنت أعيشها، عدت إلى المنزل. كنت وأنا جالس أمام منضدتي أطالع الصحف، أتصوّر في هذه الساعات الحزينة، كل شيء عن طوكيو البعيدة. كان ذهني المتوقد يريني العاصمة المزدحمة، مرتدية ثوب الحداد، مدينة سوداء، مقضياً عليها أن تعيش وهي في حلتها السوداء حسب ايقاع أكثر حركة واضطرابا، وأكثر ضجيجاً أيضاً. وخلال ذلك الظلام الدامس، تراءى لي نور واحد: بيت «المعلم» ولكني، ويا للأسف، لم أكن أستطيع حينذاك أن أعرف أنّ هذا النور نفسه، أخذت تقضي عليه،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رغماً عنه، عاصفة صامتة، وأنها، هي نفسها أيضاً، عمّا قليل، سوف تغوص وتختفي دفعة واحدة. هذا المصير النهائي الوشيك الوقوع، كيف استطعت مسبقاً تخيّل صورته؟

بدأت أكتب رسالة إلى «المعلم»، أحدّثه فيها عن الحداد الشامل الذي عمّ بلادنا. ولكني لم أكتب عشرة أسطر، حتى مزّقت رسالتي وجعلتها مائة قطعة وألقيت بقاياها في سلة المهملات، وقلت في نفسي:

- وماجدوى الكتابة إلى «المعلم» حول هذا الموضوع: اني أعرفه معرفة تكفي لكي أعرف بأنه لن يردّ على رسالتي بأية حال!

وبقيت وحدي منفرداً مع حزني، وهو الحزن نفسه الذي دفعني للكتابة. ومع ذلك، فلو أني أرسلت رسالتي وأجابني عليها «المعلم»، فأية فرحة كانت بالنسبة لي؟!

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السهلة التي سنحت له!

عند ذلك قال لي أبي:

- ولكنك الآن، وقد أنهيت دراستك، عليك، على الأقل، أن تؤمّن استقلالك المادي، إذا كنت لاترغب بأن تسبب لنا المتاعب! فعندما سيسألني الجيران، ماذا يعمل ابنك الثاني، بعد أن أنهى دراسته، كيف تريد مني ألاّ أشعر بالمذلة، إذا لم يكن لديّ ماأجيبهم به على سؤالهم؟ ؟

.كان الاستياء بادياً على وجه أبي. لقد كان يفكر كما يفكر كل أولئك الذين يسكنون منذ القدم الريف الذي ولدوا فيه، دون أن يستطيعوا مغادرته. هذا الريف حيث يمكن أن يسألوه في مجال التنافس: كأن يقول أحدهم:

- وكم يمكن أن يبلغ دخل الشخص المجاز؟

ويقول آخر:

- الشخص المجاز، لابد أن يبلغ دخله، حسب ماسمعت، مايقرب من مائة «ينّ»، أليس كذلك؟

وفي سبيل انقاذ ماء وجهه، انما في اليوم التالي نفسه لحصولي على الاجازة، كان أبي يريد توظيفي. أما أنا، فلم أكن أفكر الاّ بأن أعيش حياة العاصمة الحافلة بالنشاط. ولكن، من البديهي أنّ أبي وأمي كان يسيئان كثيراً فهمي، لدرجة أني لابدّ كنت أبدو لهما وكأني شخص قادم من كوكب آخر، يسير ورجلاه إلى الأعلى. وكنت، أنا، أجد نفسي غريباً عن طبيعتهم. فقد كان يوجد بيننا بعداً كانت مسافته أكبر من أن تترك لديّ أدنى رغبة بأن أبوح لهما بشيء من أفكاري. وبقيت محبوس الصوت، كأني غارق في حزن لانهاية له.

وفجأة قالت أمي:

- ولكن، قل لي، أنت يامن ليس على شفتيك الاّ هذه

الكلمة: «المعلم» »المعلم»، ألا تستطيع اذن، أن تطلب من هذا الرجل بعضاً من نصيحة؟ فالمناسبة ربما كانت تستحق ذلك!

كان ذلك هو العمل الوحيد الذي تصورت أمي المسكينة أنه بالامكان جعل «المعلم» يقوم به. ولم تكن تستطيع أن تعرف أن «المعلم»، اللامبالي بكل هذه المساعي والتصرفات، كان ذلك الرجل نفسه الذي دفعني لأن أطالب، منذ عودتي إلى المنزل، وفي الوقت الذي مايزال فيه أبي على قيد الحياة، بتقسيم الثروة العائلية: كان هذا هو ذلك الرجل، ولم يكن ذلك الرجل الذي حالما حصلت على اجازتي، أخذ يفتش لي عن وظيفة حتى وجدها لي.

وسألني أبي:

- ولكن، هذا «المعلم»، ماذا يعمل بالضبط؟

فأجبته:

- لاشيء!

كنت منذ زمن طويل قد قلت لأبي وأمي أنّ «المعلم» لايعمل شيئاً. ولايمكن أن يكون أبي لايتذكر ذلك...

- ولكن، أخيراً، عندما تقول أنّ «المعلم» لايعمل شيئاً، ماذا تعني تماماً بذلك؟ ولكي تكنّ له هذا القدر الكبير من الاحترام، فيجب أن يكون على أية حال، يقوم بعمل ما!

لم يكن كلام أبي خالياً من السخرية. إذ أنه، في عرفه، لايمكن لأيّ رجل أن يكون نافعاً حقاً، إذا لم يكن له في المجتمع وظيفة يقوم بها أو عملاً يؤديه. وحده الذي لايصلح لشيء، يستطيع أن يقبل بألاّ يعمل شيئاً: ذلك هو الاستنتاج الذي يفرض نفسه بنتيجة هذا الكلام.

وتابع أبي كلامه.

- انظر إليّ! إني لاأتقاضى أيّ راتب، هذا صحيح: ومع ذلك لايمكن أن يقال، مهما كان الأمر، بأني لاأعمل شيئاً!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تركت أبي يتكلم، وبقيت صامتاً، لاأجيبه. عند ذلك، عادت أمي، من جهتها، إلى الهجوم:

- ولكن إذا كان هذا الرجل هو ذلك العظيم الذي تتحدّث عنه، فمن المؤكد أنه سيبحث لك، وبالتأكيد أنه سيجد! فهل طلبت منه ذلك؟؟

فأجبتها، قائلاً:

- كلا!

- آه، هكذا اذن! ولكن لم يفت الأوان! ورسالة تكفي: هيا، بسرعة، اكتب له!

- هوم، هوم! ودون أن أعطي جواباً آخر، نهضت وخرجت.

* * *

٧

وإن كان لايمكن الشك بأن الخوف قد استولى على أبي، فهو يخلد الى العزلة والى صمت عميق. كان الطبيب يأتي في كثير من الاحيان ولكنّ أبي لم يكن ذلك الرجل الذي يزعجه بكثرة الأسئلة وكان الطبيب من جهته بدافع الحرص والتكتم، يلزم الصمت.

وكان أبي، في ظاهر الأمر مشغول البال بما يمكن إن يحدث بعد وفاته وعلى الأقل، كان يبدو تماما أنه يتصور كيف ستكون، بعد رحيله، الحياة في منزل الأسرة

كما أنه كان يقول:

- انّ تعليم الأبناء له حسناته وسيئاته فالمرء يضحي بكل شيء لكي يتيح لأبنائه انهاء دراستهم، وهم يستغلون ذلك للفرار من بيت العائلة: وفي الأساس تبدو نتيجة التربية الأكثر وضوحاً هي وضع حاجز بين الوالدين وأبنائهم.

لم يكن بامكاني أن أعتبر أنّ أبي مخطئ تماماً. فاذا كان أخي الأكبر يعيش الآن بعيداً، أليس التعليم الذي تلقاه هو السبب غير المباشر لذلك؟؟ أليس أيضاً التعليم الذي تلقيته، هو نفسه الذي يدفعني أنا كذلك للذهاب والعيش في طوكيو؟ أن يتكبّد المرء قدراً كبيراً من العناء في سبيل تربية أبنائه، ثم يراهم بعد ذلك بعيدين جداً.... كلا، لم تكن شكوى والدي دون مبرر! وأن يكون قد عاش هو وأمي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان تصوّر ظروف محددة تفسر صمت المعلم أمراً ضرورياً جداً بالنسبة لي لتهدئة قلقي أنا، وليس قلق الآخرين.

وهكذا كنت في لحظات معينة أنسى مرض أبي، لايقلقني سوى أن أقرر فيما اذا كان يجب عليّ أن أسرع بالسفر الى طوكيو أم لا. وكان أبي هو أيضاً يهمل أحياناً مرضه الذي كان يعاني منه، لكي يتحدّث عن قلقه ومخاوفه بشأن المستقبل. ولكنه لم يكن يستطع أن يفعل شيئاً لتأمين هذا المستقبل. وفي نهاية الأمر كان الوقت يمرّ دون أن تتاح لي الفرصة للعمل بنصيحة المعلم، والتحدث مع أبي في موضوع قسمة ممتلكاته.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- في الماضي، كان الأبناء هم الذين يؤمنون المعيشة لذويهم أما اليوم فان كل مايعرف الأبناء القيام به، هو أكل مايملكه ذووهم!

كنت أكتفي بالاصغاء اليه ملتزماً الصمت.

وعندما كنت أرى أن أبي قد انتهى من تفريغ جرابه كنت أتهيأ بكل هدوء لمغادرة الغرفة. ويسألني أبي:

- متى ستسافر؟

فأقول:

- ولكن خير البر عاجله!

- حسن، اطلب من أمك أن تحدد ذلك وأن تختار يوماً مواتياً وذا طالع حسن جداً!

- حسن!

في ذلك اليوم كان تعقُّلي حيال أبي يدهشني كثيراً ولكني اذا كنت بقدر الامكان قد تجنبت معاكسة أبي فانّ ذلك كان بدافع الرغبة بالهروب من ذلك الريف بأسرع مايمكن وبينما كنت أهمّ بالخروج استوقفني أبي مرّة أخرى وقال:

- عندما تغادرنا ثانية الى طوكيو سوف يصبح البيت حزيناً من جديد! ولاحاجة للقول أني وأمك سنكون وحيدين تماماً! ولو أني على الأقل كنت قوياً: ولكني وأنا في الحالة التي تراني فيها، لايمكن الجزم بأنّ القدر المحتوم لن يوافيني فجأة كما تعلم!

واسيت أبي و طمأنته كأحسن ماستطعت، وعدت الى غرفتي فجلست الى منضدة عملي. وهناك بين الكتب المبعثرة أخذت استعرض في ذاكرتي كلام ابي ووضعه القلق. وبينما كنت أفكر طرق مسامعي صوت الصراصير ولكنه لم يعد نفس الصوت الذي كنت قد سمعته قبل بضعة أيام كان الصيف قد تقدّم والصراصير الكبيرة العادية صمتت وأخذت

الآن الصراصير الصغيرة ترسل أصواتها هذه الصراصير التي تسمى حسب أصواتها تسوكو - تسوكو - بوشي.

في كل صيف عندما كنت أعود الى القرية، وأظل جالساً دون القيام بأية حركة وسط الصراصير ذات الأصوات الحادة غالباً ماكان يستولي عليّ حزن غريب هذا الحزن كان يبدو لي أنه يدخل الى قلبي مع أصوات الصراصير بالذات تلك الأصوات الحادة جداً بشكل يثير الألم: وكنت حينئذ أسترسل في سكون عميق ر.أنا في عزلتي لاأتأمل سوى وحدتي الداخلية. ولكن في هذا الصيف أخذ حزني يتغير طابعه شيئاً فشيئاً، منذ عودتي وكما أن أصوات الصراصير الصغيرة قد حلت محل أصوات الصراصير العادية الكبيرة هكذا كنت أشعر من حولي أن مصير من كانوا أعزاء على قلبي قد أخذ ينساق دون أن يشعر أحد بذلك نحو تطور هائل كنت أفكر باستمرار بحزن أبي بوضعه الصحي وبمواقفه بكلامه وبأحاديثه.

كما كنت أفكر أيضاً برسالتي الى المعلم التي ظلت بلا جواب كان المعلم وأبي يمثلان في نظري طباعاً متناقضة ولذلك فمن ناحية نقاط التشابه أو نقاط الاختلاف يصعب كثيراً على ذهني التفريق بين صورتيهما.

كنت أعرف أبي معرفة عميقة جداً لدرجة أن مجرد التفكير بأني سأفقده عما قريب لم يكن يترك في نفسي سوى مشاعر الأسف التي يشعر بها الأبناء تجاه والديهم، وعن المعلم لم أكن أعرف بعد، الاّ القليل. فالمعلومات السرية الخاصة اتي وعدني بها لم أكن قد حصلت عليها ولذلك كان «المعلم» في نظري شخصاً «واضحاً - غامضاً »ومهما كلف الأمر فلكي أشعر بالاطمئنان، كان يجب أن أنفذ الى المنطقة الواضحة بعد أن أتجاوز المنطقة الغامضة. ولذلك فان مجرد التصور بأني سأنفصل نهائياً عنه كان يسبب لي ألماً شديداً وراجعت أمي التقويم، وحدّدنا يوم رحيلي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لرحيلي كنت قد عدلت عن الذهاب الى طوكيو وقلت مقترحاً على أمي:

- عليّ أولاً أن أرى كيف ستسير الأمور: سأسافر فيما بعد، ألا ترين ذلك؟

- نعم، هو كذلك: انتظر بضعة أيام، أرجوك!

لم تكن أمي تتصف بالاتزان والاعتدال. فعندما كان أبي يخرج الى الباحة أو ينزل الى الحديقة وتراه أمي نشيطاً على هذا الشكل كانت تبدو مرتاحة البال أكثر مما ينبغي ولكن عندما كان يصاب باحدى النوبات، فقد كانت تبدي قلقاً وعصبية يتصفان بالمبالغة...

وسألني أبي:

- ولكن، ألم يكن عليك أن تسافر اليوم الى طوكيو؟

فقلت له:

- نعم، ولكنني أرجأت السفر قليلاً.

- بسببي؟

ترددّت بالاجابة فلو أجبت بالايجاب لكان معنى ذلك أني أؤكد لأبي خطورة مرضه بينما كنت أتحاشى أن أنبهه الى ذلك. ولكن أبي نفذ في الحال الى قرارة أفكاري، وقال:

- ياولدي المسكين!

والتفت وهو يقول ذلك نحو الحديقة.

عدت الى غرفتي، وأخذت أتأمل الحقيبة ملقاة هناك باهمال بعد أن كانت مهيأة بخيطان القنب القوية التي كانت تغلفها لمرافقتي في رحلتي. ومكثت هناك، واقفاً أفكر وأتساءل فيما اذا كنت سأنزع عنها الخيطان وأفتحها أم لا.

وأخيراً وبعد أن عانيت من الحيرة المقلقة التي يمكن أن يشعر بها رجل لاهو جالس تماماً ولاهو واقف، تركت يومين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أو ثلاثة أيام تمضي. ثم أصيب أبي بنوبة أخرى وفرض عليه الطبيب الراحة التامة.

كانت أمي تقول لي بصوت خافت لكي لايستطيع أبي سماع ماتقوله:

- ماذا سنعمل؟ ؟

كان وجه أمي يبدو نحيلاً متطاولاً من شدة القلق. وأنا كنت أكتب برقيات كي أرسلها الى أخي والى أختي. ولم يكن أبي مع ذلك يعاني من أي ألم وهو طريح الفراش. ولو سمعته يتكلم لقلت أن صوته ينم عن رشح بسيط ليس غير. وقد احتفظ بشهية قوية للطعام وكان يقول دون أن يصغي لنصائح المحيطين به:

- بما أني مقضي عليّ فيجب على الأقل أن آكل أشياء طيبة قبل أن أموت.

كانت عبارة «أشياء طيبة» وهي تخرج من فم أبي تحدث في أذنيّ رنيناً مضحكاً وحزيناً بنفس الوقت. كان أبي قد قضى حياته بعيداً عن المدن الكبرى حيث توجد الأشياء الطيبة الحقيقية. والأشياء الطيبة بالنسبة له، كانت تلك الكبيبات المصنوعة من الأرز، التي كانت تجفّف وتحفظ، والتي كانت تشوى ليلاً، ثم يتناولها ويقضمها بأسنانه.

كانت أمي تصرخ بأعلى صوتها:

- كيف يمكن أن يكون لديه هذا العطش الشديد ياالهي! يجب أن يكون جسمه من الداخل قوياً، على كل حال!

كانت أمي المسكينة بتقديري تختار من بين كل الأعراض أشدّها مدعاة لليأس كي تعلق عليه أملها. ولكنها بنفس الوقت، وبأثقل شكل من أشكال التناقض كانت تستعمل كلمة «KAWAKU» «كاواكو» لكي تعبر عن جائع أو «الشعور بالجوع»، وهذه الكلمة، التي أصبحت الآن تعني

عطشان أو «الشعور بالعطش» مازالت تستعمل في الريف بمعناها القديم أي «عطشان» أو جائع دون أيّ فرق ولكن عند التحدّث عن أحد المرضى فقط.

استقبل أبي أخاه الذي أتى لزيارته فاستبقاه، ولم يستطع أن يقرّر تركه. بل قال وهو يبحث عن ذريعة لاستبقائه:

- ابق بعض الوقت أيضاً، أشعر بأني حزين!

ولكني لم أكن أدري فيما اذا كان أحد أسباب ذلك الالحاح من قبل أبي لم يكن من أجل أن يتمكن من الشكوى لأخيه من أن أمي وأنّا لم نكن ندعه يأكل كما يحلو له.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان أبي يعرف منذ زمن طويل أنه مقضي عليه. ومع ذلك فإنّ هذا الموت الذي كان يقترب منه ويكاد يلامسه، لم يكن يراه أبي، إذ أنه كان يقول:

- حالما تتحسن صحتي، سوف أذهب لمشاهدة طوكيو، على سبيل التسلية، الانسان شيء هش، يمكن أن يقضى عليه بين لحظة وأخرى. ولذلك، فكل مايشتهي المرء، من الأفضل أن يحصل عليه طالما هو ما يزال في هذا العالم، أليس كذلك؟

عند ذلك، كانت أمي ترى نفسها مرغمة على القول:

- هذا، إنه أمر مؤكد! وفي ذلك اليوم، سأطلب، أنا، أن يأخذوني! كانت تضيف ذلك محاولة أن تقوله بنفس اللهجة التي كان يتحدّث بها والدي.

ومع ذلك، كان أبي، أحياناً أخرى، يبدو حزيناً جداً: وقد أوصاني مرّة، بقوله:

- عدني أن تعتني جيداً بأمك، إذا مت!

كانت عبارة «إذا مت» هذه، تستدعي في نفسي مايشبه ظل الذكرى... نعم، كان ذلك قبل مغادرتي طوكيو ببضعة أيام، عندما كنا نحتفل في بيت «المعلم» بحصولي على الاجازة، فالمعلم، هو أيضا، لم يكف عن ترديد عبارة «عندما أموت» على مسامع زوجته.... المشابهة تماماً لعبارة والدي. ومازلت أرى بعين الخيال الابتسامة التي كانت كالقناع تغطي وجه «المعلم» ومازلت أسمع صوت زوجة «المعلم» وهي تصرخ محتجة على ذلك الفأل السيء، كما كانت تبدو لي حركة اصبعيها وهي تسد بهما أذنيها. ولكنّ عبارة «المعلم»: «عندما أموت» كانت وليدة مجال غير واقعي. أما عبارة أبي: «إذا مت».... فكانت توحي بأمر مباشر، وفوري، كان قد أصبح مسلطاً على رأسه. وكم كنت أودّ أن أتخذ، أنا، من أبي، نفس الموقف الذي اتخذته زوجة «المعلم» من زوجها: ولكنّ الوضعين، ويالالأسف، كانا مختلفين، وكنت عاجزاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حيال ذلك. وكل مالم أكن أستطيع عدم عمله، هو أن أحاول طمأنة أبي، وان كان من رؤوس شفتيّ، بصورة تنم عن التردد وعدم الاقتناع بما أقول:

- هيا بنا، ألا تشعر بالخجل! عما قريب، وحالما تشفى، سوف تذهب، أنت وأمي، للتسلية واللهو في طوكيو: هذا موضوع متفق عليه منذ زمن طويل! وهذه المرة سوف ترى كم ستدهشك طوكيو! هنالك تغييرات كثيرة! تكفي خطوط الترام الجديدة، ان لم يكن هنالك سواها! ويوجد منها الآن الكثير، كما تعلم! وحيث يسير الترام، من المؤكد أنّ الشارع يتغير: فالادارة تتدخل في ذلك، وكل شيء يتجدّد. انّ طوكيو الهادئة قد انتهت تماماً: وخلال أربعة وعشرين ساعة، ليس هنالك حتى ولادقيقة هدوء واحدة!

ولأني لم أجد أفضل من ذلك، فاني كنت أقول أي شيء، ولكن كان أبي يبدو قانعاً به.

وبسبب مرض والدي، كانت حركة الذهاب والاياب تتزايد في البيت. وكان أقاربنا في المناطق المجاورة يأتون جميعهم لاستطلاع الأخبار: كان أحدهم بعد الآخر، كل منهم يأتي مرة كل يومين. كان يأتي أيضاً من بعيد، أقارب آخرون، لم تكن تتاح لنا، عادة، فرصة رؤيتهم. وكانوا يقولون:

- كنا قلقين جداً، ولكن لايبدو أنّ حالته الصحية سيئة جداً كما كنا نتصور، ويمكن أن نجزم أنه بخير! وبعد كل شيء، فإنّ كلامه ولهجته لم يتغيرا، كما أنّ ملامحه لم تتأثر بالمرض أبداً!

وبعد أن يرددوا عبارتين مبتذلتين أو ثلاث عبارات من هذا النوع، كانوا يعودون الى منازلهم. ولكن البيت، الذي كنت أجده هادئاً، يسوده الصمت، عند عودتي اليه، أخذت هذه الزيارات تبعث فيه الحركة والضجيج يوماً بعد يوم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١١

خلال تلك الحركة المستمرّة من الذهاب والاياب، كنت أتمكن من ايجاد بضع ساعات أخلد فيها الى الراحة في عزلة هادئة . بل اني كنت أفتح كتاباً، أستطيع قراءة نحو عشر صفحات منه، دون أن يزعجني أحد.

والحقيبة التي كنت قد أغلقتها جيداً، فتحتها أخيراً كي أخرج منها شيئاً فشيئاً محتوياتها كلما احتجت الى شيء منها. ورغم كل شيء، كنت مقصراً جداً في تنفيذ منهاج الصيف الذي أذكر أني كنت قد رسمته لنفسي قبل مغادرتي طوكيو: اذ أني لم أكن قد نفذت منه حتى الثلث. ليس لأن تلك، كانت بالحقيقة، التجربة المزعجة الأولى التي حدثت لي بسبب كسلي المعتاد أثناء العطلة الصيفية. ولكن لم يسبق لي أبداً أني عملت في أي صيف مضى بشكل أسوأ من عملي خلال هذا الصيف بالذات. وكثيراً ماقلت لنفسي أنه ليس هنالك سوى ماهو انساني جداً واعتيادي جداً، وهذه النقطة المشتركة لم تكن تحول بشيء دون حملي وطأة الاستياء من نفسي، في ذلك الموقف الذي كنت أقفه.

وفي غمرة هذا الاستياء الذي كان يشلّ حركتي، كنت أستغرق في التفكير: تارة بأبي وهو على فراش الموت، وبما يمكن أن يحدث بعد موته. وتارة بكل ذكرياتي التي تحيط بصورة «المعلم» الضبابية. وبين هذين الكائنين، كان استيائي نفسه يشكل همزة الوصل. فالطبقة، والثقافة، والطباع، كل شيء فيهما كان مختلفاً. وكنت أتأملهما كليهما، وأخصّ كلا منهما بجانب من تفكيري وتخيلاتي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخبيثة وهي أنه اذا كان «المعلم» لم يردّ على رسالتي، فان ذلك بالضبط، دليل على الاحتقار. ولذلك أجبت أمي:

انّ الكتابة أمر سهل. ولكنّ معالجة هذه الأمور بواسطة الرسائل، لايمكن أن يؤدّي الى أية نتيجة. والأفضل هو الذهاب الى موقع العمل المطلوب، وهناك، الطلب من الناس والتوسل اليهم كلا بدوره. وبدون ذلك....

- ولكن، وأبوك على هذه الحالة، كيف يمكنك أن تنوي الذهاب سريعاً الى طوكيو؟

- اني لم أسافر بعد، على مايبدو لي. وطالما أني لم أعرف فيما إذا كان والدي سيتعافى أم لا، عليك أن تطمئني بأني لاأنوي السفر!

- هذا ماأظنه تماماً! فالمريض الذي يمكن أن يقضي نحبه بين لحظة وأخرى، من الذي يمكن أن تكون لديه الجرأة لتركه ملقياً هنا ويذهب ليتسكع في طوكيو؟

عندما دخلت أمي شعرت نحوها، بسبب عدم تفهمها للأمور، بشفقة عميقة. ولكن، في لحظة شديدة الوطأة كهذه، ياللشيطان، لماذا انتهى بها الأمر الى اعادة مسألة مستقبلي الى بساط البحث؟ اني لم أستطع فهم ذلك جيداً. بعد أن تركت المريض، كنت أنا قد انزويت في غرفتي، وانصرفت الى التفكير والقراءة في ذلك الجو الهادئ، وكان ذلك، بالنسبة لي، يبدو أمراً طبيعياً. ولكن أن تكون أمي، من جهتها، قد نسيت المريض الذي لم تكن تتركه أبداً، واسترسلت بهذا الشكل في أفكار من نوع آخر، فهذا ماجعلني أقف مندهشاً. فهل يعني ذلك أن ذهنها واسع الأفق الى هذه الدرجة؟ عند ذلك بالضبط، تكفّلت أمي بتوضيح ذلك، قائلة:

- ذلك، أنك، لو استطعت أن تؤمن لنفسك مركزاً مستقراً، قبل موت أبيك ، فأية سعادة وراحة بال يمكن أن

تتيحهما له عند ذلك هذا ما كان يدور في خلدي! لدرجة أنه وهو على هذه الحالة، فأنا أعلم جيداً أنّ ذلك ليس من السهل تحقيقه في الوقت المطلوب: ولكن تأمّل إلى أيّ قدر مازال كلامه ولهجته ينمّان عن الثقة بالنفس، وكذلك أحكامه وآراؤه! فقبل أن يفوت الأوان، ألا تريد أن تمنحه هذه الفرحة؟ ألا تريد القيام بعمل من الأعمال التي تعبر عن البر بالوالدين؟

يالأسف، لقد كنت في حالة يرثى لها! ازاء الخيار الذي كنت محتجزاً أمامه، كيف كان بامكاني القيام بالعمل الصالح، الذي كان مطلوباً مني القيام به؟ وفي نهاية المطاف، لم أكتب أية رسالة: بل لم أكتب حتى ولاسطراً واحداً..

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٢

عندما وصل أخي، كان أبي في سريره، يقرأ الصحيفة. وكان من عادته دائماً أن يقدّم قراءة الصحيفة على كل شيء. ولكن منذ أن أصبح محتجزاً في السرير، أخذ الملل يزيد من ميله وحبه لتلك القراءة، وكان يحب أن يقرأ دائماً لو كان يستطيع ذلك. ولم نكن نلح كثيراً، لاأمي ولاأنا، كي نثنيه عن القيام بذلك، وكنا في حدود المعقول، نترك المريض يتصرّف كما يحلو له.

– أوه، ماذا؟ انك بخير! كنت أظن أن حالتك أسوأ مما هي عليه، ولذلك أتيت: ولكني أراك بصحة جيدة جداً!

تلك كانت كلمات أخي الأولى: وقد صدمتني لهجته القوية، بشكل مقصود. ولكنه حالما غادر غرفة أبي وأصبحنا على انفراد، تغيرت ملامحه وبدا أكثر جدّية، ثم قال:

– أنت تدعه يقرأ الصحيفة! هل من الصواب أن تدعه يفعل ذلك؟

– اني من رأيك: كان من الأفضل ألاّ ندعه يقرأها. ولكن اذا حرمناه من القراءة فانه يزعل. اذن، ماذا تريدني أن أفعل حيال ذلك؟!

أصغى اليّ أخي ملتزماً الصمت. ثم قال أخيراً بعد فترة من الوقت:

– هل هو محتفظ بكامل وعيه؟

وبدا لي أنّ أخي قد لاحظ أنّ حيوية ذهن أبيه قد أضعفها المرض كثيراً. ولكني أجبته:

- فيما يتعلق بذلك، فهذا مؤكد تماماً! إذ أني خلال عشرين دقيقة تقريباً، كنت لتوّي أتحدث معه حول مواضيع وأمور مختلفة: فلم أتبين أقل هفوة! وهكذا ربما استطاع أن يستمرّ زمناً طويلاً، من يعلم!

وفي نفس الوقت الذي وصل فيه أخي، وصل صهري أيضاً. وقد بدا، من جهته كذلك، أكثر تفاؤلاً . وكان أبي سعيداً لرؤيته. وقد ألقى عليه بخصوص أختي السؤال تلو السؤال. ثمُ قال:

- من المؤكد أنّ الجسم هو الجسم! والصعود هكذا، بحماقة، الى القطار، والتعرّض للهز طيلة الرحلة، هو أمر يجب تجنبه: ولذلك فإنّ مجيئها لم يكن معقولاً، بل كان من الممكن أن يسبب لنا القلق ويثيرغضبنا في الحال! ثم أضاف قائلاً:

- لاتهتم كثيراً: سوف نذهب، نحن لزيارتكم حالما أكون قد شفيت، ان لم يكن لشيء، فعلى الأقل لرؤية شكل حفيدنا عن قرب! ومنذ زمن طويل لم نقم، أنا وزوجتي، بزيارتكم، وقد جاء الآن دورنا لتحمل بعض الازعاج: وهكذا سيكون كل شيء على مايرام!

هذا ماكان يتحدّث به أبي. وكان هو أيضاً، عند انتحار الجنرال «نوجي» أول من قرأ الخبر في الصحيفة:

- آه، ياله من حدث، ياله من حدث!

أما نحن، الذين لم نكن نعرف شيئاً عن هذا الموضوع، فقد أذهلتنا تلك الصيحات المفاجئة. وقد أسرّ لي أخي، فيما بعد معلقاً على ذلك:

- هذه المرّة، لقد اعتقدت أنّ الأمر قد انتهى، وأنّ عقله طار فعلاً: وشعرت بالبرد يسري في أوصالي بسبب ذلك!

كما أنّ صهري قال لي أيضاً فيما بعد بلهجة تنم عن صدق تأثره:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لقد كنت، أنا، كمن انقضّت عليه الصاعقة، عندما سمعت تلك الصيحات!

كان سكان منطقتنا الريفية ينتظرون صحف تلك الأيام، صباح كل يوم، بفارغ الصبر، وكيفما كانت المقالات التي تملؤها، فاني كنت، وأنا جالس قرب سرير أبي، أقرؤها له كلها دون أن أحذف شيئاً منها، وأحياناً، عندما لايكون مطلوباً مني أن أقرأ لأبي كنت أحضر الصحيفة خلسة، معي، الى غرفتي، وأقرؤها حتى آخر سطر فيها، ومنذ زمن طويل، لم تستطع عيناي أن تنسى الجنرال «نوجي» ببزته الرسمية الفخمة، ولا زوجته، وهي ترتدي ملابس سيدات البلاط.

وذات يوم، بينما كان نبأ تلك الميتة الهامة مازال يعصف ويبعث رياحاً حزينة تدخل الى أقصى بقعة في الريف، فتهز الأشجار والأعشاب وتوقظها من سباتها، تلقيت، فجأة، برقية من «المعلم». وفي هذا الريف النائي جداً حيث مجرد رؤية رجل يرتدي الملابس الأوروبية تجعل الكلاب تنبح، كان وصول احدى البرقيات يشكل قضية كبرى. وعندما استلمت أمي البرقية، نادتني على انفراد، وقد بدا الذهول على وجهها وقالت:

- ماذا يمكن أن تكون هذه، بالضبط؟

وبينما كنت أفتح المظروف، كانت تقف بقربي، تنتظر. كانت البرقية تقول باختصار: «أريد أن أراك: هلاّ استطعت المجيء؟» ماذا كان يمكن أن يريد «المعلم» مني بالضبط؟؟ أخذت أهزّ رأسي ذات اليمين وذات اليسار. ولكنّ أمي أخذت تفسر البرقية بالنيابة عني، قائلة:

- ياللعذراء، لقد كتبت له تتوسطه، وترجوه، ومن المؤكد أن البرقيّة تتعلّق بموضوع وظيفتك.

كنت أظنّ، أنا أيضاً، أنّ هذه الفرضية لم تكن تبدو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٣

كانت رسالتي للمعلم بالغة الطول. وهذه المرة كنا نظن تماماً، أناو أمي، أني سأتلقى من «المعلم» رسالة واضحة. ولكن، بعد مرور يومين على ارسالي رسالتي، تلقيت برقية ثانية، كل مايقول فيها: «لاجدوى من المجيء» فأريتها الى أمي، فقالت:

– لاشكّ أنّ «المعلم» يفكر بالكتابة اليك!

كانت أمي لاتتخلى عن تفسير وحيد، خلاصته أن «المعلم» ماهو إلاّ مجرد وسيط، وليس وجوده هناك إلاّ لكي يجد لي وظيفة تسمح لي بتأمين معيشتي، وفي نظري أنا، لم يكن الأمر يعني أنّ مثل تلك الفرضية يمكن أن تبدو بعيدة عن الحقيقة والواقع. ولكني كنت لاأزال أجد فيها شيئاً مدهشاً.

أمن الممكن أن يبحث لي «المعلم»عن وظيفة؟ لم أكن أتوصل مطلقاً لتصوّره بهذا الشكل.

– والأمر المؤكد، هو أنّ رسالتي التي أرسلتها أنا لم يمض على ارسالها الوقت الكافي لكي تصل الى «المعلم»، وأنّه قد أبرق لي قبل أن يقرأها!

كنت أردّ على أمي بعبارات ساذجة من هذا النوع. وكانت تستمع اليها بجدّية، وتبدي رأيها قائلة وكأنها مستغرقة في تفكير عميق:

– حقاً، هذا ماحدث بالفعل!

ولكن أن يكون «المعلم» قد أبرق قبل أن يقرأ رسالتي، فبماذا، ياالهي، يمكن أن يفيد ذلك في ايضاح نفسيته؟

ومع ذلك، كان على الطبيب الذي يعالج أبني عادة، أن يصطحب معه في ذلك اليوم، رئيس أطباء مستشفى المدينة المجاورة، لاستشارته بشأن مرض أبي. ولذلك لم يكن لدينا، أنا وأمي، الوقت الكافي للتحدّث أكثر من ذلك عن «المعلم». وقد اكتفى الطبيبان، بالاتفاق فيما بينهما، باعطاء المريض حقنة شرجية، قبل عودتهما الى المدينة.

كان أبي، منذ أن لازم السرير بناء على أوامر الأطباء، مضطراً لقبول مساعدة أقاربه من أجل قضاء حاجاته. كان لدى أبي هوس شديد بالنظافة، لدرجة أنه، في الأيام الأولى، تقبّل الأمر بصعوبة كبيرة. ولكنه، وقد حكم عليه بعدم الحركة وبالبقاء طريح الفراش، اضطر الى الرضوخ والتسليم بذلك، فهل كان المرض اضعف ارادته بالتدريج وبشكل خفي، لست أدري: ولكنه مع ذلك، يبدو أنه، بحكم العادة، انتهى به الأمر الى عدم الاهتمام والقلق من نتائج بقائه طريح الفراش، لايقوم بأية حركة. كانت الأغطية والشراشف تتسخ أحياناً، وكان أولئك الذين يجالسون أبي ويساعدونه يقطّبون حواجبهم قرفاً: ولكنه لم يكن ينتبه لذلك، وبالاضافة الى هذا، كانت افرازات البول عنده قد تناقصت كثيراً. لدرجة أنّ هذا الأمر قد أقلق الطبيب.

وفي نفس الوقت، أخذت شهيته للطعام تتناقص. وكان من النادر أن يبدي رغبة بأيّ شيء كان. وعندما كان يحدث ذلك، فانما يكون مجرّد توهم بمحبة ذلك الشيء والميل اليه. لم يكن ينزل في بلعومه شيء، سوى كمية ضئيلة جداً من الطعام. كانت قواه أيضاً تتضاءل. والصحيفة التي كان أبي يحبها كثيراً، لم يعد يتوصل لتناولها. واذا كان نظارته مازالت في مكانها نفسه، قرب الوساة، فانها كانت تبقى حبيسة في غلافها الأسود.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومن مسافة بعيدة تزيد على أربعة كيلومترات، أتى أحدأصدقاء طفولة أبي لزيارته، وكان هذا الصديق يدعى «ساكو»، وعندما رآه أبي، قال وهو يلتفت نحو هذا الزائر بعينين اعترتهما غشاوة ضبابية:

- آه، هل أنت «ساكو سان»؟!

ثم أضاف قائلاً:

- أهلاً وسهلاً بك ياساكو سان! كم أغبطك لكونك تتمتع بصحة جيدة! أما أنا، فد انتهى الأمر بالنسبة لي!

- هيّا، لابأس عليك! أنت، ولداك أتمّا دراستهما بشكل ناجح، حتى وان اقتنعنا أنك مريض بعض الشيء، فليس لك أن تشكو! بينما أنا، أنظر اليّ قليلاً: لقد فقدت زوجتي، وبقيت بدون أولاد، فأنا لأيّ شيء أعيش؟ لكي أقول أني أعيش، ولاشيء أكثر من ذلك!، حتى وان كنت قوياً،فإنّ تلك الأمور تدفعني بسرعة نحو أجلي!

كان ذلك بعد زيارة «ساكو سان» بيومين أو ثلاثة أيام، أن تمّ اللجوء الى اجراء الحقنة الشرجية، كان أبي وهويمتدح الأطباء الذين أراحوه وخففوا عنه الألم، يبدو مسروراً. وكما لو أنّه كان قد استعاد ثقته بنشاطه وبحيويته، ولذلك كان مزاجه يدل على اليقظة والمرح، فهل كان هذا المرح هو الذي انتقل الى أمي، أم كانت تلك، رغبة من قبلها، لتشجيع المري؟ لاأدري، ولكنها أخذت تتحدّث الى أبي عن برقية «المعلم»، مدّعية أنّ تلك البرقية يمكن أن تتيح لي احدى تلك الوظائف التي كان يحلم لي بها. وأنا الذي كنت موجوداً هناك كنت أحسّ فيْ داخلي بشعور معقّد، مكوّن بنفس الوقت، من الانزعاج ومن الزهو العذب، ولعدم تجاسري على مقاطعة أمي وايقافها عن الكلام، لم أكن استطيع عمل شيء،

سوء الاصغاء اليها صامتاً. وكان المريض يبدو سعيداً، وصهري نفسه، قال:

- هذا حسن جدا!

أما أخي فسألني:

- ولكن ماهي هذه الوظيفة التي تتحدثون عنها، ألا تعرف ماهي بالضبط؟؟

عندما وصلت الأمور الى ذلك الحد، لم أعد أشعر بالجرأة على تكذيب أمي، ولذلك ردّيت بجواب، أنا نفسي، لم أفهمه، ثم انسحبت، وتركتهم كلهم.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٤

كان مـرض والدي قـد بلغ ذلك الحد الذي أصبح مـعـه الجـمـيع ينتظرون النهاية المحتـومـة. ولكن هنا، بد المرض وكأنه يمرّ بفتـرة ركـود وتردد وكنا جـمـيعنا نفكر كل مـساء عندما نأوي الى الفراش، ونقول:

- سيكون ذلك هذه الليلة، سيكون ذلك هذه الليلة.

ليس لأن آلام أبي كـانت حـادة جـداً لدرجـة أنّ منظر أعراضها يمكن أن يسبب لنا، نحن أيضاً، ألماً شديداً.بمعنى أن أبي كان، من هذه الناحيـة،، من أولئك المرضى الذين تسهل العناية بهم. كان واحد منا يكفي للسهر عليه، وكنا نتناوب فيما بيننا القيام بذلك، كل بدوره. وبعد اتخاذ هذا الاجراء الاحتياطي، كان الآخرون يستطيعون في الأوقات الاعتيادية، دون أيّ مانع، الذهاب ليأخذوا قسطاً من الراحة. وفي احدى المرات، ولم أكن قد استطعت النوم، اعتقدت أني سمعت المريض يئنّ. فنهضت من سريري، وكان الوقت ليلاً، وذهبت الى قرب سرير أبي لأرى ماذا يحدث هناك. ولكن لم يكن الوقت ليلاً، وذهبت الى قرب سرير أبي لأرى ماذا يحدث هناك، ولكن لم يكن يحدث شيء: كانت أمي، التي تقوم بنوبة السهر على أبي آنذاك، متكئة بالقرب منه، ومستسلمة للنوم، وأبي أيضاً، كان يتنفس بهدوء وكأنه مستغرق في نوم عميق. وبخطوات هادئة عدت مسرعاً الى سريري.

كنت أنام بجانب أخي، تحت ناموسيّة واحدة. أما صهري، من جهته، فكانت له غرفة خاصة به، وذلك دون شك، لأنه كان يعامل كضيف.

وكان أخي يقول لي: انّ هذه القضية مملة بالنسبة لسوكي أيضاً، بعد أن احتجز بهذا الشكل وأصبح من المستحيل عليه العودة إلى منزله.

و«سوكي» كان اسم صهري.

فكنت أجيب أخي:

– ولكن لا، ليس الى هذه الدرجة! فهو ليس لديه ذلك القدر الكبير من العمل هناك، وبامكانه البقاء، وبالحقيقة، أنت أكثر من «سوكي» بكثير، الذي يسبب لك هذا المرض الذي طال أمده، المزيد من الملل!

– ملل أم لا، ماذا تريد مني أن أفعل حيال ذلك،! إنّ هذا الواجب هو فوق كل شيء!

كان سرير أخي جانب سريري، وهكذا كنا نستطيع التحدّث فيما بيننا عندما نأوي الى الفراش. وكانت لدينا، كلينا، نفس القناعة: ان والدنا مقضي عليه، وقد انتهى مهما صنعنا من أجله. ويالهي، طالما أنه مقضي عليه.... وكنا هكذا نفكر نحن الاثنين أنه لو انتهى بأسرع مايمكن لكان أفضل، وكنا كلانا ننتظر تلك النهاية: وكان شعورنا كأبناء نحو أبيهم، هذا الشعور وحده لدينا، هو الذي كانت يمنعنا من التعبير عما يدور في خلدنا، والخلاصة لاجدوى من ذلك: فقد كنا متفاهمين دون حاجة للتعبير.

وكان أخي يقول لي:

– ماتزال لدى والدنا الفكرة بأنه سيشفى من مرضه، ألا تعتقد ذلك؟

كان يبدو لي جيداً أن هذه الفرضيّة لم تكن مغلوطة تماماً. وعندما كان بعض سكان المناطق المجاورة يأتون لاستطلاع الأخبار، كان أبي يصرّ بشدّة على أن نحضرهم اليه: وإلاّ فانه كان يستاء كثيراً وكان يعتذر لكل منهم عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عدم اقامة حفلة بمناسبة حصولي على الاجازة، ثم يضيف قائلاً:

–ولكن انتظروا قليلاً حتى أنهض، وسوف ترون الحفلة التي سأقيمها لكم بدلاً عنها!

كان أخي عند ذلك يهمس في أذني قائلاً:

– يالحسن حظك أنت ، اذ لم يحتفل بنجاحك! لقد احتفل بنجاحي أنا، وأؤكد لك أنّ تلك الحفلة لم تكن مفرحة بالنسبة لي!

لقد أيقظت دكرياتي هذه الفكرة التي ذكرها أخي: كانت تلك الحفلة، بما تجرّع الناس خلالها من المشروبات الكحولية، قد تحوّلت الى فوضى محزنة، مازالت تثير لديّ ابتسامة كئيبة تشوبها المرارة. كنت أرى أبي ثانية يدور على المدعوين، يقدّم لهم بالحاح، كلا بدوره، الشراب، طالباً منهم أن يشربوا المزيد وأن يأكلوا المزيد: وكانت تلك الصورة تسيطر على ذهني وتعذّبني.

ليس معنى ذلك أننا كنا، أخي وأنا، على وفاق تام. فعنما كنا صغيرين، كنا نتخانق باستمرار: وبما أنني كنت الأضعف، فأنا الذي كنت دائماً أبكي. وفي الجامعة كذلك، كان الفارق بين فرعي دراساتنا، يعكس تماماً الفارق بين طبيعتينا. فمنذ أن دخلت الجامعة وخاصة منذ أن ارتبطت مع «المعلم»، لم أكن أستطيع، من بعيد، أن أتخيل صورة أخي دون أن أتصوّره كأسوأ الحيوانات. وقد مرّ زمن طويل، ولم نتلق أنا وأخي: فالأزمنة والأمكنة كانت تفصلنا وتباعد بيننا على الدوام. ولكن هذا الانفصال بالذات، وقد التقينا الآن، فجّر فيما بيننا شعوراً عذباً بالاخوة، وكأنه ينبوع طبيعي. ومن المؤكد أنّ هنالك الظروف أيضاً. فلم يكن لنا نحن الاثنين، الاّ أب، وهذاالأب كان على فراش الموت. فكيف يمكننا قرب سريره، الا ان نتعانق بشدّة؟

وذات يوم، سألني أخي:

- ماذا ستفعل الآن؟

فأجبته بسؤال آخر:

- بالواقع، كيف سيكون وضعنا بعد موت الوالد؟

- لاأعرف بالضبط: لم يحدّثني أبي بعد عن ذلك. ولكنّ ثروتنا المزعومة، اذا قدّرت بالسيولة النقدية فانها لاتشكل مبلغاً كبيراً!

كانت أمي، من جانبها، تبدي قلقها الشديد بسبب صمت «المعلم»، وكانت تسألني بلهجة العتاب:

- ومن «المعلم»؟ ولا أي جواب؟؟

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٥

وسألني أخي:

– «المعلم» من هو هذا «المعلم»؟؟

فأجبته:

– ولن، ألم أحدّثك عنه، ذلك اليوم؟

ولكون أخي قد نسي في الحال المعلومات التي أعطيته اياها قبل أن يمضي على ذلك زمن طويل، فانه لم يكد يلقي عليّ أسئلته حتى شعرت نحوه بالحقد. عند ذلك قال:

– لقد حدّثتني عنه، فعلاً، ولكن....

وماكان يعنيه أخي بذلك بالأساس، هو أنّه، وان كان قد استمع لمعلوماتي، فانه لم يستطع أن يرى فيها المبرر لتعلقي بالمعلم. وأنا من جهتي، لم أشعر أبداً بضرورة اجبار أخي على ادراك قيمة «المعلم» ومع ذلك، فقد شعرت بالغيظ، وكنت أرى في هذا، مرة أخرى، طبيعة أخي الحقيقية، تبدو عارية.

وكوني كنت أقول دائماً بكثير من الاحترام: «المعلم»، «المعلم»، فان ذلك كان يقتضي، في نظر أخي، أنّ «المعلم» يجب أن يكون بالضرورة رجلاً هاماً وبارزاً: استاذ جامعة على أقل تقدير، أو من طبقة مساوية تماماً ولكن أن يكون نكرة، وتافهاً لايصلح لشيء، فلماذا يمكنني تقديره؟

كان أخي، بهذه الطريقة في رؤيته للأمور، يلتقي تماماً مع أبي.

وكان رأيا الاثنين يختلفان فحسب فيمايلي: وهو اذا

كان أبي، بنظرة سريعة، كان يرى أنّ مايجعل من «المعلم» شخصاً عاطلاً عن العمل، ماهو إلاّ عجزه أساساً عن القيام بذلك، فإنّ أخي، وهو أكثر دقّة وعمقاً، كان ينسب للمعلم مأخذاً يتلخّص في كونه يتمتع بقدرات وامكانيات كبيرة ومع ذلك يرفض استخدامها. وهذا ماكان يعنيه أخي بقوله أنّ «المعلم» لم يكن سوى شخص محتقر لايساوي شيئاً.

وقال لي أخي أخيراً:

- الأنانية قبيحة! وأن يرفض المرء القيام بأيّ عمل، فذلك معناه أنه يخدع الآخرين. وعندما يكون لديه شيء ما، فيجب أن يعمل بكل قواه لكي يصبح نافعاً، وإلاّ، فإنّ ذلك يعتبر غشاً بحق المجتمع!

كانت لديّ رغبة شديدة أن أسأل أخي اذا كان يعتقد أنه يفهم تماماً معنى كلمة «الأنانية» هذه، التي يطلقها جزافاً. ولكنّ أخي ختم حديثه قائلاً:

- اذا كان هذا الرجل يمكنه أن يجد لك وظيفة، فأنا ليس لديّ ماأقوله! وأبوك سيكون سعيداً جداً بذلك!

أما أنا، من جهتي، فقد كنت مرتبكاً جداً، كان صمت «المعلم»، بالواقع، لايسمح لي بأن أشعر بالأمل بأنه يمكن أن يبحث لي عن وظيفة، بل ان هذا الصمت كان يمنعني حتى من اعطاء أهلي التأكيدات المطمئنة التي كانوا يتمنون الحصول عليها، لدرجة أني، من جهة، لم أكن أستطيع التقدم ولكن من جهة أخرى لم أكن أستطيع أيضاً الرجوع أبداً الى الوراء: فبعد أن قالت أمي للجميع، ماقالته، بتسرّعها المعتاد، وكأنه أمر قد حصل بالفعل، كيف يمكنني أن أكذّبها؟ ولذلك، فاني، دون أية حاجة لأن تحثني أمي بهذا الشكل المزعج كان لديّ من تلقاء نفسي، مايكفي من الأسباب، لكي أنتظر بقلق شديد رسالة «المعلم» فمن يدري ربما كانت هذه الرسالة ستأتيني بالوظيفة التي كان الجميع يتمنون أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحصل عليها! عند ذلك، من يدري، ربما استطعت انقاذ ماء وجهي تجاه أبي، باتاحتي له في لحظاته الأخيرة، قدراً من الطمأنينة، مهما كان ضئيلاً. وانقاذ ماء وجهي ازاء أمي، التي لم تكن تأمل شيئاً وتتمناه بقدر ماتتمنى أن تتاح تلك الفرحة الأخيرة لأبي. وانقاذ ماء وجهي حيال أخي، الذي يرى أنّ العمل وحده هو الذي يعطي الكرامة للانسان، وأخيراً فاني سأنقذ ماء وجهي تجاه الآخرين جميعهم: صهري، عمي، وعمتي ...! وهكذا، أصبحت أجد نفسي، من أجل الحصول على هذه الوظيفة ذات الدخل المادي، التي كنت زاهداً فيها حتى ذلك الحين، مضطراً بعد الآن، للنضال من أجلها حتى آخر ماتستطيع أعصابي تحمله!

كان في ذلك الحين قد أخذ أبي يتقيأ قيئاً أصفر: وكنت علمت من «المعلم» ومن زوجته خطورة هذا العارض. ومما قالته أمي عند ذلك:

- بالله، لقد مضى عليه زمن طويل جدا!، وهو مستلق هكذا، يا للمسكين، وهذا قد أتعب كل جهازه الهضمي!

وعندما كنت أراها ساذجة لهذه الدرجة التي تدعو إلى اليأس، كانت الدموع تطفر من عينيّ. والتقيت، خلال ذلك بأخي في قاعة الجلوس، فسألني:

- هل تعلم ماذا قال الطبيب منذ قليل؟

كان الطبيب، عند انصرافه، قد أوضح لأخي ماذا كانت تعني بداية ذلك القيء. ولكني لم أكن أبداً بحاجة لأن يشرح لي شيئاً: فأنا أيضاً كنت قد فهمت!

وتابع حديثه، وهو لايكاد يلتفت نحوي، قائلاً:

- بالمناسبة، ألا ترغب بالاستقرار هنا، للعمل والعناية بأملاكنا؟ ولمّا لم أجب، قال أخي ملحاً:

- ذلك لأنّ والدتنا، التي ستبقى وحدها، ماذا تريد منها

أن تفعل؟! كان الأمر واضحاً، فقد كان بامكان أخي أن يراني أموت وألفظ أنفاسي في التراب، دون أن يجد في ذلك مايسبب له أقل قدر من تبكيت الضمير! واستأنف كلامه:

اذا لم يكن هنالك سوى مسألة قراءة الكتب، فبامكانك أن تطالع على راحتك وفي أوقات فراغك. بل انّ ذلك سوف يعفيك، بنفس الوقت، من القيام بأيّ عمل: وهذا هو بالضبط ماترغب فيه، أليس كذلك؟!

فقلت له:

– أن تعود أنت إلى هنا، هذا بالأحرى، هو الأمر المناسب!

– أنا؟ هذا مستحيل!

وهكذا بكلمة واحدة أسكتني أخي في الحال. وكان بديهياً أنه قد اتّخذ قراره الذي لارجوع عنه بأن يحيا من الآن فصاعداً، حياة أكثر نشاطاً. وأخيراً قال:

– اذا كنت لاتريد الاستقرار هنا، فسأطلب اذن من عمنا أن يسهر على أعمالنا وأملاكنا. ولكن هنالك أيضاً والدتنا، ويجب أن يأخذها أحدنا معه!.

فأجبته:

– ولكن هل توافق والدتنا على مغادرة هذا البيت؟ هذه هي المسألة! وهكذا كنا، في حين أن والدنا مازال على قيد الحياة، نناقش المسائل التي كانت لابدّ أن تطرح بعد موته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٦

أخذ الآن الهذيان يستولي على الأب، بعض الأحيان، وكان يقول بصوت متقطع:

- جنرال «نوجي»، لقد تأخرت عليك، وأنا مازلت مديناً لك بالكثير! واني لأشعر بالخجل بسبب ذلك : ولكني سألحق بك، دون مزيد من التأخير!

كانت أمي تشعر بالخوف، وتطلب ألاّ يبتعد أحد، بقدر الامكان، من قرب سرير أبي. وفي لحظات صحوه، كان المريض الحزين يبدو أيضاً أنه يرغب أن يرانا بالقرب منه. ولكنه، في الغرفة التي كان يجوبها بنظراته، انما عن قامة أمي، بشكل خاص، انه كان يبحث. وكان ينادي دائماً دون تغيير في النداء، عندما كان لايراها:

- أو - «ميتسو» !

وعندما كانت شفتاه لاتنفرجان، كانت عيناه تتكلمان بدلاً منهما، فكنت أنهض وأذهب لأبحث عن أمي. وكانت هي عند ذلك تترك مشاغلها، وتركض الى جانب المريض وتسأله:

- نعم: ماذا تريد؟

عندئذ، كان أبي يكتفي أحياناً بأن يحدق بها، حتى دون أن يفتح فمه. وأحياناً أخرى، كان يقول لها كلاماً دون أن يقصد بذلك شيئاً يذكر. وأحياناً أخرى أيضاً، كان يشكرها بحنان، قائلاً دون مقدّمات:

- أو - «ميتسوتي» المسكينة، لقد كنت على الدوام طيبة جداً!

وفي كل مرّة كانت الدموع تطفر من عيني أمي. ولم يكن يفوتها أبداً أن تؤكد وهي تسرد الكثير من الذكريات والمقارنات، الى أية درجة غيّر المرض والدي:

– انّ مايقوله لي مؤثر جداً! خاصة وانّ الرجل الذي ترون، كان في الماضي، يستطيع أن يكون عنيفاً جداً!

وكانت الذكريات تتوالى:

– لقد ضربني، ذات يوم على ظهري بالمكسنة، و ... ...

كانت تلك المرّة المائة التي كنا أنا وأخي نسمع فيها هذه الحكاية. ولكننا كنا الآن، نتقبّلها بشعور جديد تماماً، ونعتبرها مسبقاً ومنذ الآن، كذكرى عزيزة ومقدّسة من والد متوف.

وان كان أخذ يتماثل أمام ناظري أبي شبح الموت القاتم، فانه لم يعبّر بعد عن رغباته الأخيرة.

وقال لي أخي، وهو يمعن النظر في وجهي:

– ألا يمكن أن يكون هنالك شيء ما، نسأله عنه، قبل فوات الأوان؟ واكتفيت بالقول:

– نعم، ربما كان الأمر كذلك!

كان لطرح مثل هذا السؤال على المريض، في نظرنا، جانب حسن وجانب سيء. ووسط حيرتنا، أنا وأخي، عمدنا الى استشارة عمنا، وكان عمنا أيضاً متردداً، اذ أنه قال:

– ربما كان لديه مايقوله، وسوف يشعر في اللحظة الأخيرة، بالألم، والعذاب لأنه لم يستطع قوله، ولكن من جهة أخرى، فإن سؤاله عن هذا الموضوع ... هو الأمر الذي لست متأكداً أنّه لن يكون عملاً سيئاً!

وبقينا في حيرتنا وترددنا. وخلال ذلك كان والدنا يقترب من الغيبوبة، وأمي، كعادتها في ادراك الأمور ببطء،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تكن تشعر بذلك، بل كانت تعبّر عن سرورها به، معتبرة سبات الغيبوبة هذا، مجرّد نوم عادي، فتقول:

- أخيراً، لو كان فقط يستطيع أن يرتاح هكذا بهدوء، لسمح لنا ذلك، نحن الآخرين، بأن نأخذ أيضاً قسطاً من الراحة.!

وكان أبي، من وقت لآخر، يفتح عينيه، ويقول:

- وفلان، أين هو؟

وفلان هذا، في كل مرّة، كان الزائر الذي كان، قبل لحظة، يقف بجوار سريره، كان وعي أبي قد أصبح مجزءاً الى مناطق نيّرة ومناطق مظلمة، وكانت المناطق الأخيرة هذه، تقطع الأولى على فترات ومسافات متساوية ومنتظمة، على شاكلة الخيط الأبيض الذي تخاط به قطعة قماش سوداء. لم تكن أمي، اجمالاً، مخطئة تماماً، اذ أنّ فترات الغيبوبة كانت تتناوب مع فترات الوعي، تماماً كما تتناوب فترات السهر واليقظة مع فترات النوم، في الوتيرة الطبيعية لنظام الحياة.

خلال ذلك، أخذ كلام المريض يصبح مشوشاً أكثر فأكثر. والجمل التي كان يبدؤها أبي، لم يكن يستطيع انهاءها بوضوح، ولذلك كنا نجد صعوبة متزايدة في فهم معنى كلامه. يضاف إلى ذلك أنه كان ينطق بداية كل جملة بصوت قويّ جداً لدرجة أنه لايمكن أبداً أن يظنّ أحد أنّ هنالك مريض يقوى على ذلك.. ولكننا كنا أحياناً نمدّ أعناقنا ونقترب بآذاننا من شفتي أبي...

- هل تريد أن نضع لك «ثلجاً» على رأسك؟

- نعم!!

وكنت أجدّد ماء الوسادة المطاطية، وأضع على رأس أبي الكيس الذي ملأته بقطع الثلج، تساعدني الممرضة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٧

هذا اليوم، كان يبدو أنّ حالة المريض قد ساءت. وعندما تركته لحظة للذهاب الى دورة المياه، التقيت بأخي في الممر، فناداني: أين تذهب؟ كانت لهجته هي لهجة الخفير اليقظ وهو يصرخ: من هناك؟!

ثم حدّد ملاحظته وفسرها:

– انّ المريض يوحي حقاً بانطباع سيء: فلا تتغيّب أرجوك، وإذا تغيّبت، فليكن لأقصر وقت ممكن!

كان أخي على صواب. وحتى دون أن أخرج رسالتي، كان كل مافعلته أني ذهبت ورجعت.

مرّت على أبي فترة وجيزة تمتّع خلالها بالوعي، فطلب أن تذكر له أسماء الزائرين الذين كانوا قرب سريره. فكانت أمي تذكرها له، وعند ذكر كل اسم كان أبي يومىء إيماءة خفيفة برأسه. وعندما كان لايبدر منه أيّ ردّ فعل، كانت أمي تردّد الاسم رافعة صوتها:

– هذا هو السيد «فلان»: أسمعت جيداً؟

فكان أبي يتمتم بصوت لايكاد يسمع:

– شكراً، شكراً جزيلاً للجميع!

ثم إستغرق ثانية في سبات غيبوبته. وخلال بعض الوقت، كان الصمت يخيّم على الزائرين الذين أخذوا يلقون نظرة على أبي. ثم نهض أحدهم، وانتقل الى الغرفة المجاورة، وتبعه آخر. حينئذ، دون مزيد من الانتظار، تركتهم جميعاً

واسنحبت الى غرفتي. كنت أتحرّق لأن أفتح أخيراً المظروف الذي كنت قد دسسته قبل قليل في فتحة لباسي. لدرجة أنني دون أيّ شك، كان من الممكن أن أفتحه حتى قرب سرير المريض. ولكن مايحتويه كان ضخماً جداً، بحيث أنني لم أكن لأستطيع قراءته دفعة واحدة بالقرب من أبي. ولذلك كنت بحاجة لبعض الوقت أبقى فيه على انفراد.

ونزعت بفارغ الصبر الورق المقوى الذي كان يغلف المظروف. فبرز منه مخطوط، كتب بانتظام على ورق ذي مربعات. ولكي يرسله المعلم فقد طواه على أربع. وأنا، لكي أستطيع القراءة بشكل افضل، فقد ضغطته بطيه مرة أخرى على المقلوب. وأخذت أفكر وأنا قلق جدا لرغبتي الشديدة بمعرفة المزيد عن مضمونه. ولكن ماذا سيحدث في غرفة المريض؟ وكيف سيكون حال أبي؟؟ فلو بدأت القراءة، فإنّ أخي، دون شك، أو أمي، وربما عمي سينادينني قبل أن أكون قد أنهيت قراءته. كلا، لم أكن أستطيع الآن قراءة رسالة المعلم إذ أن ذلك يحتاج بالضرورة لهدوء تام. وكل ماكنت أستطيع عمله في حالة الاضطراب التي كنت أعيشها، هو قراءة الصفحة الأولى. وتلك الصفحة الأولى كانت تنص على مايلي:

لقد سبق لك أن طلبت مني أن أكشف لك النقاب عن ماضي حياتي. ولم أشعر حينئذ بالجرأة على القيام بذلك. ولكني اليوم، على ماأعتقد، قد اكتسبت القوة المعنوية على الكلام. وكم كنت أودّ أن أتحدّث اليك بصوتي الحيّ الطبيعي. ولكن عند عودتك الى طوكيو، حينئذ، لن أستطيع أنا، عند ذلك، أن أتكلم. ولذلك يجب عليّ أن أتكلم في الوقت الذي أستطيع القيام بذلك، وإلاّ، فانّ الدرس الذي يمكنك أن تستخلصه من تجربتي الخاصة سيضيع الى الأبد بالنسبة لك. وأنا من جهتي، فقد وعدتك بكل تأكيد بأن أكشف لك النقاب عن ماضي حياتي، ولذلك فاني اذا لم أتكلم الآن،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أكون قد حنثت بوعدي، ولهذا السبب أيضاً، يجب أن أتكلم، ولأني لاأستطيع القيام بذلك بصوتي الحي الطبيعي، فلم أجد وسيلة أخرى أفضل من الكتابة إليك.

قرأت الى هنا. وكان مضمون هذه الرسالة المطوّلة يبدو لي بكل وضوح. أما بشأن الوظيفة ذات الدخل المادي التي كنت قد طلبت منه أن يبحث لي عنها، فاني كنت أظنّ على الدوام أنّ «المعلم» لن يكبّد نفسه عناء الرد. ولكن بما أن الأمر لايتعلق الاّ بالقيام باطلاعي على الأسرار التي طلبتها سابقاً، فكيف أمكن أن تخطر للمعلم أن يرجئ حديثه اليّ حتى عودتي الى طوكيو؟

كنت أعود باستمرار الى التفكير بهاتين الجملتين:

«اني اليوم، على ماأعتقد، قد اكتسبت القوة على الكلام.... وعندما تعود الى طوكيو، حينئذ، لن أستطيع، أنا، بعد ذلك أن أتكلم... «دون أن أتوصّل الى ادراك معناهما. وفجأة استولى عليّ القلق. وأردت متابعة قراءة الرسالة. وفي تلك اللحظة بالذات، كان أخي يناديني من غرفة المريض بأعلى صوته. استولى عليّ الذعر، فنهضت بسرعة، وركضت في الممر، بسرعة الطائر متجهاً نحو المريض. وخلال ذلك الوقت القصير، كنت قد سلّمت بوقوع الحدث المحتوم الذي كنا نتوقّعه.

* * *

١٨

خلال غيابي القصير، كان قد حضر الطبيب. ولأنه كان يرغب باتاحة بعض الراحة للمريض بقدر المستطاع، فقد كان يستعدّ لاعطائه حقنة شرجية. والممرضة، التي كانت متعبة لقضائها ليلة بيضاء، كانت قد ذهبت لترتاح، وأخي، الذي لم يكن لديه أية خبرة بهذه المعالجات، كان يروح ويجيء محاولاً، دون أن يستطيع تقديم أية فائدة، ولذلك عندما رآني عاد فجلس وصرخ بي:

– تعال بسرعة لمساعدتنا!

فاقتربت ووضعت المشمّع تحت أبي. وبدت الراحة على وجه أبي. ظلّ الطبيب ينتظر نصف ساعة تقريباً. ثم انصرف عندما أحدثت الحقنة مفعولها بعد أن وعد بالعودة. وأوصانا بالحاح شديد أن نستدعيه بصورة مستعجلة اذا حدث أيّ شيء في غيابه.

كان من البديهي أن أبي من الممكن أن يرحل بين لحظة وأخرى. ولكنّ رغبتي بقراءة رسالة «المعلم» كانت أقوى من كل شيء. ولذلك تركت المريض ولجأت الى غرفتي. ولكن كيف كان من الممكن أن أجد فيها الهدوء؟ اني لم أكد أجلس الى منضدتي حتى يناديني أخي بأعلى صوته. وكان الخوف من أن يكون ذلك، هذه المرّة، من أجل النهاية الأخيرة، يجعل يديّ ترتجفان من الرعب، مقدّما. ولم أكن أستطيع عمل أيّ شيء سوى تقليب صفحات رسالة «المعلم»، دون أن أتمكن من ادراك معنى كلماتها. كنت أرى الخطوط المادية للحروف، تمرّ على التوالي، منتظمة تماماً في مواقعها: ولكني لم أكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أستطيع القراءة، حتى ولابشكل سريع. وقلّبت كل الصفحات، الواحدة تلو الأخرى. ثم طويت الرسالة ووضعتها على المنضدة. وعند ذلك فقط وقعت عيناي على جملة في الصفحة الأخيرة لفتت نظريّ بشدّة: «عندما ستصبح هذه الرسالة بين يديك، لن أكون، أنا، في هذا العالم: سأكون قد متّ منذ زمن طويل...»

شعرت عند ذلك بتوقف أنفاسي. وصدري، الذي كان حتى ذلك الحين يذخر بالحركة الصاخبة، توقّف فيه كل شيء دفعة واحدة وعلى الفور. أخذت أقلّب الصفحات عكسياً، محاولاً أن أقرأ من كل صفحة ولو كلمة واحدة. وماكنت أودّ معرفته بسرعة، كنت أحاول أن أنتزعه، بعينيّ الاثنتين، من تلك الصفحات التي كانت تبدو لي وكأنها مشوّشة. وكل ماكنت أريد، وكل ماكان عليّ معرفته، هو: هل بقيت هنالك فرصة واحدة لأن يكون «المعلم» مازال على قيد الحياة. والماضي الذي كان «المعلم» قد وعدني سابقاً بأن يكشف لي عنه النقاب، ذلك الماضي الغامض، لكم أصبح قليل الأهمية بالنسبة لي! ولكني رغم تقليبي كثيراً وعكساً تلك الصفحات الواحدة تلو الأخرى: فانّ تلك الرسالة المطوّلة لم تكن لتبدي لي بشيء من السهولة ما كنت أودّ الحصول عليه. فطويتها ثانية، وقد نفد صبري.

سرت نحو باب غرفة أبي. كان يسود هنالك هدوء أدهشني. كانت أمي تجلس القرفصاء قرب المريض، تكاد تترنّح من الاعياء الذي كان بادياً على وجهها. فأومأت لها باشارة من يدي لكي تأتي نحوي، وسألتها:

– كيف حاله؟

فقالت:

– انه يقاوم! فاقتربت، وانحنيت على أبي، قائلاً:

– ماذا، بعد تلك الحقنة؟ هل تشعر ببعض الراحة؟

فأومأ برأسه وقال بصوت واضح:

- شكراً !

كان أبي يحتفظ بأكثر مما كنت أظن، من الوعي.

عدت الى غرفتي، فألقيت نظرة على الساعة وعلى الدليل. كنت قد اتخذت قراري. فشددت نطاقي، ودسست رسالة «المعلم» في كم ثوبي، ثم خرجت من الباب الخلفي، وركضت وكأنني في حلم، قاصداً بيت الطبيب. أكان أبي يستطيع البقاء على قيد الحياة يومين أو ثلاثة أيام؟ يومين أو ثلاثة فحسب، آمل أن يتمكن الطبيب من الابقاء على حياته خلالها بواسطة الكثير من الأدوية! ولكنّ الطبيب كان غائباً، لم أكن أستطيع الانتظار. كان قلبي يخفق بشدّة. أخذت نقّالة، وطلبت من صاحبها الاسراع نحو المحطة. وهناك، بالاستناد على الجدار، كتبت بقلم الرصاص بضع كلمات على ورقة صغيرة، وجهتها الى أخي وإلى أمي: فمهما كان قليلاً ما كتبته، لابدّ أنه أفضل من عدم كتابة أيّ شيء، والهرب دون اعلام أحد. وكلّفت الرجل الذي يجرّ النقالة بأن يحمل في الحال رسالتي الى بيتنا. ثم ألقيت بنفسي في قطار طوكيو، باندفاعة يائسة. وهناك، في حافلات الدرجة الثالثة التي يسودها الضجيج، أخرجت رسالة «المعلم»، واستطعت أخيراً معرفة مضمونها كاملاً، من البداية وحتى النهاية.

وكم كانت هامة تلك الرسالة، وقد جاء فيها مايلي:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجزء الثالث

المعلم والوصية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

-١-

.... لأني لاأستطيع القيام بذلك بصوتي الطبيعي، ولعدم وجود وسيلة أخرى أفضل، فأنا أكتب اليك.

لقد تلقيت منك، خلال هذا الصيف، رسالتين أو ثلاث. كنت ترغب أن تجد في طوكيو وظيفة مناسبة، وفي رسالتك الثانية، اذا لم أكن مخطئاً، طلبت مني أن أساعدك على الحصول عليها. وكنت أودّ مخلصاً بذل قصارى جهدي في سبيل ذلك، وعلى الأقل ارسال الرد على رسالتك. كان ذلك أبسط واجباتي تجاهك. ومع ذلك، فاني اعترف لك بأني لم أحرّك ساكناً من أجلك. وكما تعلم فانّ دائرة علاقاتي ضيقة. و«ضيقة» هي أيضاً صفة ضعيفة جداً: والتعبير الصحيح هو أني أعيش بمعزل عن الناس وأني أيضاً كنت عاجزاً عن عمل أي شيء من أجلك. والجهد الذي طلبته مني ماكنت لأستطيع القيام به. كما أني، بهذه المعذرة، لم أمس لبّ المسألة بالذات، اذ ان مايقلقني حقاً كان ناجماً عن محاولة الاجابة عن السؤال التالي: ماذا أفعل بنفسي؟ هل سأتابع العيش، كما أنا، على هذه الحال، بين الناس الآخرين، حياة المومياء المهملة، هذه أم أني؟... وعبارة «أم أني» تلك..... كنت أرددها بيني وبين نفسي باستمرار. وفي كل مرة كنت أشعر بقشعريرة باردة تسري في جسدي: كما يحدث للرجل الذي يقف فجأة بعد وصوله راكضاً بأقصى سرعته الى حافة هاوية، ثم ينحني فوق فوهتها، ويبقى هناك، عاجزاً عن تبيّن قاعها، ذلك لأني كنت نذلاً. وقد عشت نفس آلام ومعاناة الأنذال. ولم أكن أستطيع عمل أي شيء من أجلك، ولو قلت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنك في ذلك الوقت تكاد تكون غير موجود بالنسبة لي، لما كان في هذا القول شيء من المبالغة. بل وأكثر من ذلك: اني سأعترف لك بأنّ وظيفتك، سبيلك لكسب العيش، كل هذا كان في نظري فارغاً من أي معنى. أمّا مستقبلك؟ فماذا يهمني؟ لم تكن لديّ القدرة والميل لهذه المشاغل والاهتمامات. وكل مافعلته أني دسست رسالتك في محفظة للرسائل، وتابعت، وكأن شيئاً لم يكن، تأملاتي التي كنت مستغرقاً فيها. وبالنسبة لمن يملك الكفاية، ماالجدوى من العويل والجري وراء الوظيفة، والدوران في نفس المكان كالسباح العالق بين الأشنة، والطحالب، وماهي ضرورة القيام بذلك وهو لم يكد يحصل على إجازته الجامعية؟؟ ،انما بهذه المرارة المشوبة بالازدراء، كنت من بعيد أنظر اليك في خيالي وفكري. ولايعني ذلك أني لست مديناً لك، على الأقل، بالرد على رسائلك، وأني أذكر لك هذه الأمور لكي تعذرني لصمتي ولعدم ارسال أيّ جواب على تلك الرسائل. فأنا لاأريد أن أجرح شعورك بأيّ شكل كان، ولا أن أتلاعب بالألفاظ كي أخدعك. ويبدو لي أنّ شعوري الحقيقي، وتتمة هذه الرسالة، سوف يوضحان لك ذلك. فقط، أن أكون بقيت صامتاً عندما كان يجب عليّ أن أردّ على رسائلك، فذلك اهمال بمثابة الجرم، أجد نفس قبل كل شيء ملزماً بأن أطلب منك الصفح عني بشأنه.

بعد ذلك، شعرت برغبة لأن أراك. وكان أن أبرقت لك حينئذ. لأني كنت أريد، نزولاً عند رغبتك، أن أروي لك سيرة حياتي. وعندما أبرقت لي، بدورك، أنك لاتستطيع الحضور الى طوكيو، شعرت باليأس من جراء ذلك، وبقيت فترة من الزمن لاأستطيع تحويل نظري عن برقيتك، وبتصوري أنّ تلك البرقية بدت لك غير كافية، فلم تشعر بالاطمئنان، وأتبعتها بتلك الرسالة المطلوّة التي شرحت لي فيها بوضوح الأسباب التي اضطرتك للبقاء هناك، وخلاصة القول، لم يكن

لديّ أيّ مبرر لكي أنسب لك عدم التهذيب أو أن أتهمك بأي شيء. ووالدك الذي تحبّه، كيف كان يمكنك أن تتركه هناك وهو مريض، وتهجر بيت أهلك؟ بينما كنت أنا الذي برهنت على عدم اللياقة بالنسبة للحالة التي كان والدك يعاني منها. والحقيقة أني عندما أبرقت لك كنت قد نسيت والدك تماماً. في حين أني كنت أنا الذي أوضحت لك في طوكيو، خطورة مرضه، وأوصيتك كثيراً بالانتباه اليه والعناية به على الدوام! وكما ترى، فقد وقعت في تناقض كبير! وحسب رأيي، لاشك أن ماضيّ المثقل قد تغلّب على كل شيء، وجعل من الرجل الذي كنت، الكائن المتناقض الذي أصبحت. وأنا أعترف تماماً هنا بأنانيتي، وعليّ أن أطلب منك الصفح عن ذلك.

عندما قرأت رسالتك الأخيرة، أدركت أني قد أسأت التصرف. وكانت أول بادرة قمت بها هي محاولة الرد على رسالتك، ولكني توقفت عن ذلك في الحال. فقد فكرت أني لو كتبت لما استطعت أن أكتب شيئاً سوى الاعتراف التام الذي أودّ القيام به. ولكنّ موعده لم يكن قد حان تماماً بعد، ولذلك اكتفيت بتلك البرقية الثانية: «لاجدوى من حضورك». ولابدّ أنك الآن قد أدركت معناها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

-٢-

قبل بعض الوقت، شرعت بكتابة الاعتراف الذي بين يديك الآن، أنا في العادة اكتب قليلاً جداً لدرجة أنّ لاشيء يرد بسهولة على قلمي، لا الوقائع ولا الأفكار، وهكذا فإنّ الكتابة كانت بالنسبة لي مشقّة كبرى.. ولولا خشيتي من الاخلال بواجبي نحوك لأهملت الكتابة وكل شيء يتعلّق بهذا الموضوع. وكثيراً ماكان يستولي عليّ اليأس وأفقد القدرة على الكتابة فألقي القلم من يدي. ولكن لاتكاد تنقضي ساعة من الزمن، حتى تعاودني الرغبة بالكتابة وهي أشد قوة. وأنت، دون شك، ترى بذلك الدليل على الاحترام الذي أوليه للواجب، وأنا بهذ لاأتناقض مع نفسي مطلقاً. فأنا كما تعلم رجل يعيش في عزلة تكاد تكون تامة، وليس لي، على وجه التقريب علاقات مع الغير، وهكذا فليس لديّ الاّ القليل من الواجبات، بالمعنى الواسع للكلمة، واذا نظرت حولي، فاني لاأجد في أيّ جهة كانت، لاعن يميني ولاعن يساري، ولاأمامي ولاورائي، جذوراً اجتماعية تربطني بأية واجبات حقيقية. فهل هذا انحياز من جانبي وموقف اتّخذته بنفسي، أم أنه ميل فطريّ وطبيعيّ، لست أدري: ولكنّ نسق حياتي يبدو وكأنّ كلّ جذور الواجبات قد قطعت من حولي. وليس سبب ذلك أنّ لديّ لامبالاة متناهية بشأن تأدية الواجبات، بل على العكس، لم يكن السبب سوى زيادة في الحساسية. فأنا أعلم أني لا أتمتّع بالقدرة الكافية على القيام بعدد كبير من الالتزامات: ولذلك اختصرتها الى أدنى حدّ ممكن، وبهذا الشكل انتهى بي الأمر الى اتباع حياة سلبية تماماً. ومع ذلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخاصة بي، وبين آراء شباب زمننا الحاضر، الأخلاقية، يمكن أن توجد فروق محسوسه. ولكن مهما كانتالانتقاءات الت يمكن أن توجهً لآرائي، فإنّ هنالك أمراً مؤكد: وهو أنّ هذه الآراء تشكل جزءاً من حياتي وأني قد عشتها. فهي لم تنشأ تلبية لحاجة عابرة، كملابس المناسبات. وهذا ما يشكل قيمتها. ولذلك فانها، برأيي، لايمكن إلاّ أن تكون كبيرة الفائدة بطريقة ما، بالنسبة لك، أنت الذي سوف تطمح من الآن فصاعداً الى مزيد من التقدّم الأخلاقي.

وأنت تذكر أنك كثيراً ماكنت توجّه أحاديثنا إلى آراء عالمنا الحاضر الأخلاقية. ومن المؤكد أنك تذكر أيضاً موقفي حينذاك. فأنا لم يكن يذهب بي الأمر إلى درجة الازدراء بآرائك: ولكني لم أستطع أبداً التوصل الى احترامها. كان فكرك ينقصه الأساس والعمق. اذ أنك كنت يافعاً حديث السن، لا ماض لك. وكل ماكنت أستطيع السماح به لنفسي كان الضحك من وقت لآخر: وكنت حينئذ تبدي استياءك مني. ومع ذلك، فانك قد طلبت مني في النهاية بالحاح أن أبسط أمامك سيرة حياتي، تماماً كما تبسط في بلادنا تلك اللوحات الملفوفة: عند ذلك فقط، شعرت نحوك للمرة الأولى بالاحترام من أعماق قلبي. فقد ألقيت بوجهي دون حياء أو خجل، قرارك الذي اتخذته بأن تخرج من باطني شيئاً حياً، ومن أجل ذلك احترمتك. لقد قلت لي أنك تريد أن تشطر قلبي الى شطرين، وأن تسيل منه دماً تستطيع شربه وهو مايزال حاراً: ومن أجل هذا احترمتك، ولكني في ذلك الحين كنت لاأزال حياً تماماً. ولم أكن أريد أن أموت. ولذلك أرجأت الرد عليك، واكتفيت بوعد قطعته لك. أما الآن، فانما بكلتا يديّ سأمزّق قلبي لأقذف دمه على وجهك، واذا استطاع بعض من حياة جديدة أن يغزو قلبك أنت، عندما يكون قلبي أنا، قد كفّ عن الخفقان، فاني أكون عند ذلك راضياً كل الرضا.

-٣-

عندما فقدت والديّ، لم أكن قد بلغت العشرين من عمري. وأذكر أنّ زوجتي حدّثتك عن ذلك، ذات يوم: لقد مات والدي بسبب مرض واحد، ويمكن القول أن وفاتهما حدثت بنفس الوقت تقريباً، فقد لحق أحدهما الآخر خلال فترة وجيزة. والحقيقة، أنّ أبي كان قد اصيب بحمى التيفوئيد المخيفة، وأمي التي كانت تعتني به أصيبت بالعدوى بسبب ملازمتها له وبقائها بقربه.

كنت ولدهما الوحيد. وكنا نملك ثروة لابأس بها، وقد نشأت في تلك البحبوحة المادية التي تتيح بسهولة للنفس أن تصبح كريمة. والآن، عندما التفت نحو الماضي، لاأستطيع أن أمنع نفسي من التفكير بأني كان من الممكن أن أحتفظ الى الأبد بتلك الصفة الجميلة أي كرم النفس، دون أن تمسّ أو أن تشوبها شائبة لو أنّ والديّ، بل أحدهما فحسب، ظلّ على قيد الحياة.

ولكنّ فقدي للاثنين دفعة واحدة، تركني فاقد الرشد أعاني الحيرة والقلق. اذ لم يكن أحد قد حدّثني عن الحياة ومشاكلها، ولم يكن لديّ عنها أية تجربة شخصية ولاأية مبادرات عفوية أو حدس غريزي، وفي الوقت الذي كان فيه أبي على فراش الموت؛ لم تكن أمي، بعد أن أصابها المرض أيضاً، تستطيع البقاء بجوار سريره. بل انها فارقت الحياة دون أن تعلم بوفاة أبي. فهل كانت أمي، وهي على سرير الموت تستشف الحقيقة، أم أنها، حقاً كانت تصدّق ماكان يقال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لها من أنّ أبي سوف يشفى من مرضه؟ ليس هنالك من يمكنه أن يجزم بذلك! ولكنها كانت توجّه الى عمّي توصيات كثيرة. منها على سبيل المثال أنها كانت تقول له، وهي تشير اليّ باصبعها:

- هذا الفتى، اعتن به جيداً، أرجوك!

كان والديّ، قبل ذلك ببعض الوقت، قد وعداني بايفادي الى طوكيو. ولذلك رأيت من الطبيعي جداً أن تنوي أمي توصية عمي بأن يدعني أسافر:

- الى طوكيو.... كما قالت.

وقد قاطعها عمي في الحال، قائلاً:

- لا تقلقي أبداً بشأن ذلك!

وسألت عمّي عند ذلك:

- هل ستقوى على مقاومة مثل هذه الحمّى؟

فصرخ قائلاً بحماس:

- هي؟ انّ مقاومتها تدعو الى الاعجاب!

ولكن الآن وقد فكرت في ذلك كثيراً، فانّ معنى عبارة: «إلى طوكيو ...» هذه، لا يبدو لي شديد الوضوح. ثم، هل كانت حقاً رغبة أمي الأخيرة هي ارسالي الى العاصمة؟ اني لاأستطيع تأكيد ذلك. كانت أمي، بالتأكيد، تعلم أنّ أبي مصاب بحمّى مخيفة، وتعلم أيضاً أنها هي نفسها مصابة بها. ولكن هل كانت تعلم أنها مقضي عليها نهائياً؟ انه لأمر مشكوك فيه. وفضلاً عن ذلك، اذا كان الكلام الذي كانت أمي تتفوّه به وهي تحت وطأة الحمّى الشديدة يظل معقولاً وواضحاً تماماً، فالذي كان يحدث رغم كل شيء أن ذاكرتها لم تكن تحتفظ منه بأي أثر، لدرجة أنّه... ولكن ليست هذه هي المسألة. لقد قصدت فقط القول أني أحمل في قرارة نفسي منذ ذلك الحين، هوساً حاداً بتحليل كل الأمور، والاحاطة بها

والاطلاع على أدقّ تفاصيلها. ويبدو لي أنّ من واجبي أن أنبّهك الى ذلك منذ الآن. هذا وان كانت التفاصيل التي ذكرتها الآن لامعنى لها بحدّ ذاتها، ولاتمس الاّ من بعيد ماهو جوهري وأساسي في اعترافاتي، فانها من الممكن أن تنير لك جانباً هاماً من خلقي وطباعي: فعليك أن تتقبّلها بهذا المعنى وبهذه الروح. واني لألفت نظرك الى أن الحاجة للتحليل، التي، بما كان لها من تأثير داخليّ على نشاطي الأخلاقي والجسدي، قد أدّت بي، على ماأعتقد، مرحلة فمرحلة، الى الشك باستقامة الآخرين. وأنّ هذا الشكّ نفسه لم يكفّ أبداً عن التسبّب في ازدياد مضايقاتي ومتاعبي، فهذه أيضاً حقيقة مؤكدة. وهذا أمر يجدر بك أن تدركه وتتذكره جيداً.

ولكنّ حكايتي تصبح غامضة لو ابتعدت عن مسارها، ولذلك سأستأنف سردها بوضوح. ورغم كل شيء، يبدو لي أني ربما توصّلت، حيال هذه الرسالة المطوّلة، الى هدوء نفسي أشدّ بكثير ممّا يمكن أن يحظى به شخص آخر في مكاني. وهاهو ضجيج القطارات، الذي يصبح واضحاً ومتميزاً حالما تنام المدينة، هو نفسه قد انقطع، وفي الخارج، أخذ يرتفع ويصل الى مسامعي، عبر النوافذ المغلقة، ذلك الصوت الحزين الذي ترسله بعض الحشرات والذي يذكّر، هو أيضاً، مع فرق بسيط، بالخريف ذي الندى الغزير، أما زوجتي، الخالية البال من كل اهتمام بمخاوف المستقبل، فهي ترقد مطمئنة داخل الغرفة المجاورة، تنمّ عن ذلك أنفاسها المنتظمة. وخطأ فخط، أخذت الحروف ترتسم تحت ريشتي التي ترسل صريراً عالياً. إني أشعر بهدوء نفسيّ شديد ازاء هذه الورقة التي أكتب عليها. وأنا لست معتاداً على الكتابة لدرجة أنّ الريشة ربما تفلت من يدي، فاذا انحرفت كتابتي قليلاً، أرجو ألاّ تنسب سبب ذلك الى عقلي: فهو ليس في ضيق شديد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معيناً لتسديد نفقاتي: أقل بكثير مما كان أبوك يعطيك، وللحق يجب أن أضيف أن تكاليف المعيشة كانت في زمننا أقل ارتفاعاً. وكان ذلك المبلغ يكفيني عن سعة، ولم يكن هنالك، اجمالاً، مايدعوني لأن أحسد أحداً من رفاقي. بل على العكس من ذلك، كنت على ماأذكر، أنا المحسود من الآخرين. أني كنت، علاوة على مخصصاتي المنتظمة، كثيراً ماأطلب من عمي اضافات صغيرة لتسديد قيمة مشترياتي من الكتب - فقد كنت منذ ذلك الحين أحب الكتب - ومبالغ أخرى لنفقاتي الطارئة. وكان يعطيني بسخاء ، وكنت أنا أنفق أيضاً بنفس الطريقة.

وبسبب عدم خبرتي بأمور الحياة وضعف تجربتي، فاني لم أكن أكتفي بمنح عمي ثقتي المطلقة فقط، بل كنت أبدي له أيضاً امتناناً كبيراً، معتبراً نفسي مديناً له وأسير معروفه. كان عمي من رجال الأعمال. وكان أيضاً مستشاراً في المحافظة، وبذلك كان ينتمي الى جماعة سياسية لم أكن أعرفها. كان بالدم، والنسب، شقيق أبي: ولكنه كم كان مختلفاً عنه بالخلق والطباع!

فقد كان أبي، الشديد الحرص على المحافظة على الميراث الذي آل اليه من أسرته، وابقائه دون أن يمس، يمثل النموذج بالذات للرجل الشريف. وكان يجد متعة بتحضير الشاي والعناية بالزهور. كما كان يحب مطالعة الشعر الصيني القديم. ويبدي اهتماماً شديداً وميلاً مؤكداً للخطوط وللتصوير والرسم وللآثار. كان مسكننا في وسط الريف، ولكنه لم يكن يبعد سوى خمسة كيلومترات عن المدينة المجاورة، حيث كان يسكن عمي. ومن تلك المدينة، كثيراً ماكان يأتي باعة العاديات الأثرية ليعرضوا مايحملونه من عاديّات، كاللوحات القديمة والمباخر وغيرها. وباختصار يمكن القول أنّ أبي كان رجلاً ميسور الحال، متعدد الاهتمامات: رجلاً ذا ذوق رفيع وتهذيب عال في نفس الوقت. وهكذا فانّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبي، فيما يتعلق بالخلق والطباع، كان نقيضاً واضحاً لعمي، الذي كان رجلاً ذا ذهن نشيط ومتحرر.

والأمر الغريب الذي كان يدعو للعجب أن الاثنين رغم كل ذلك، كانا بنفس الوقت يتفاهمان بشكل رائع، وفي كثير من الأحيان كنت أسمع أبي يمتدح خصال عمي، معتبراً اياها أفضل من خصاله هو، ويصرح أن عمّي جدير بالثقة المطلقة، وكان أبي يقول أنّ أكبر الأبناء الذين يرثون ثروات والديهم، كثيراً ما يبدّدون تلك الثروات بسرعة كبيرة، مهما كانت قيّمة. وكان يضيف قائلاً: اذا كان ليس على المرء أن يكافح فهذا أمر سيء جداً. وكانت أمي قد سمعت ألف مرّة هذا الكلام، وأنا كذلك. بل لقد كان يبدو أنّ أبي كان يردّده عمداً بقصد توجيه سلوكي. اذ أنه في كل مرة كان ينظر اليّ محدقاً ويقول لي بالحاح:

- أنت، حاول أن تتذكر ذلك جيداً!

ولذلك فإني لم أنس شيئاً من ذلك حتى الآن. ولأنّ عمي استطاع أن يحظى بثقة أبي وتقديره الى تلك الدرجة، فقد ظلّ بالنسبة لي، فوق كلّ الشبهات. وكان شخصه بالذات موضع فخر لي. ولكن بعد رحيل والديّ عن هذا العالم، أصبح عمي، الذي أتلقى منه كل شيء، بالاضافة الى ذلك، في نظري، أكثر من موضع فخر : لقد أصبح الكائن الضروري للمحافظة على وجودي وعلى بقائي على قيد الحياة.

-٥-

في عطلة الصيف التالي عدت الى المنزل، وبعد أن رحل والديّ عن هذا العالم، أتى عمي وزوجته، كالمالكين الجدد للاقامة في منزلنا. وكان هذا الأمر متفقاً عليه قبل سفري الى طوكيو. لأني، وأنا الولد الوحيد، كنت أعيش بعيداً عن هذا المنزل، فلم يكن هنالك حل آخر.

وعمي، الذي كان يسكن المدينة، كانت له على مايبدو علاقات دائمة ومستمرة مع شركتين أو ثلاث. وقد قال لي ضاحكاً:

- من أجل أعمالي، ربما كان من الأفضل أن أبقى في المدينة بدلاً من الانتقال الى الريف، على مسافة خمسة كيلومترات عن المدينة! ولكن، أخيراً...

حدث ذلك بعد وفاة والديّ، عندما انعقد مجلس الأسرة، قبل سفري الى طوكيو، من أجل معرفة ماذا أنوي أن أعمل بممتلكاتنا. كان بيتنا قديماً جداً، وكانت له تقاليده المعروفة جيداً في كل المنطقة المجاورة وهكذا هو الحال في مقاطعتكم أيضاً على ماأظن: عندما يكون لأحد البيوت تقاليده، فان الوريث المباشر، ان كان هنالك وريث، لايستطيع أن يهدمه ولاأن يبيعه دون أن يشكل ذلك قضية قائمة بحد ذاتها. ربما كان عليّ الآن ألاّ أهتم بسرد مثل هذه الأقاويل، ولكني كنت آنذاك حديث السن تتنازعني الرغبة بالسفر الى طوكيو، والاستحالة الأخلاقية بهجر منزل أسرتي. وهكذا كنت بالحقيقة أمام خيار صعب وقاس للغاية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأخيراً وافق عمي على أن يشغل المنزل، وذلك لعدم وجود حل آخر، على حد قوله. ولكنه، في نفس الوقت ظل محتفظاً بمنزله في المدينة، وكان من المؤكد أنّ عليه أن يحتفظ لنفسه بامكانية القيام برحلات مكوكية بين المنزلين لتأمين سير أعماله، وأنا، من جهتي لم يكن لديّ شيء ضد ذلك. وعلاوة على ذلك فإنّ أيّ حل كان يرضيني مسبقاً شريطة أن تتاح لي حرية السفر إلى طوكيو.

في عذوبة المشاعر التي كنت احتفظت بها، ورغم بعدي الشديد عن مقاطعتي، فاني كنت أتبيّن عن بعد ببصيرتي وعيني روحي، بيتنا القديم، الذي كنت أشعر نحوه بحنين وشوق شديدين. كان ذلك هو البيت الذي كان يجب عليّ بالضرورة أن أعود اليه، مثلي في ذلك مثل رجل يغزّ الخطى مسرعاً على طريق العودة بعد رحلة طويلة. وعندما حان موعد العطلة الصيفية، كنت أشعر في قرارة نفسي برغبة جامحة وقوية بتلك العودة رغبة أقوى من السراب الذي كان قد جذبني نحو طوكيو، وبينما كانت مستغرقاً في أصعب جانب من دراستي، أو في أمتع لحظات لهوي الأخاذ، كنت أحتفظ برؤيا لاتشوبها شائبة لذلك البيت الذي ولدت فيه والذي سأعود اليه.

لم يكن لديّ أية فكرة عن كيفية توزيع عمي لوقته بين مسكنيه. ولدى وصولي اجتمعت حولي كل أسرته. بل كان هنالك أيضاً بعض أحفاده الذين كانوا مايزالون تلاميذ في المرحلة الابتدائية، ومما لاشك فيه أنهم عادة كان يجب أن يبقوا في المدينة، ولكنهم، بتصوري، أتوا الى القرية لقضاء العطلة والترويح عن النفس.

استقبلني الجميع بفرح شديد. وأنا من جهتي، كان هذا الجو الذي كان أكثر حيوية ومرحا من السابق، يسحرني ويخلب لبّي. وهيأ لي عمي الاقامة من جديد في غرفتي القديمة بعد أن طرد منها ابنه الأكبر. ورغم احتجاجاتي

الكثيرة وقولي أنّ الغرف لم تكن قليلة العدد في منزلنا وأنّ أيّاً منها كانت تفي بحاجتي، فانّ عمي لم يشأ أن يستمع لشيء من ذلك، بل قال حاسماً الموضوع:

- أنت هنا في بيتك!

وفيما عدا ذكرى والديّ التي كثيراً ماكانت تبعث الحزن في نفسي، فإنّ ذلك الصيف كان لطيفاً بالنسبة لي، ثم عدت إلى طوكيو، ولم يكن هنالك سوى حادث واحد ترك ظلاله في نفسي. فقد أراد عمي وزوجته، بصوت واحد، اقناعي بالزواج، أنا الذي كنت قد بدأت للتو دراستي. وقد كرّرا ذلك ثلاث مرّات. في المرة الأولى، اكتفيت بابداء الاستغراب وأني فوجئت بهذا الاقتراح غير المتوقّع، وفي المرة الثانية أبديت الرفض الصريح. أما في المرة الثالثة فقد سألتهما بدوري عن سبب هذا الالحاح. وبدت فكرتهما بسيطة تماماً:

- ايه، هيّا تزوج بسرعة وعد الى هنا كي تستلم ملكيّتك التي ورثتها عن والديك!

أما أنا فكنت أرى أنه يكفيني أن أسكن بيتي أثناء فصل الصيف. أما فيما يتعلق باستلام ميراثي، فقد كان بديهياً أني بحاجة من أجل ذلك الى امرأة تدير شؤون المنزل، وكان هذا الربط بين الزواج والميراث يبدو أمراً منطقياً، على كل حال، وكنت أتفهّم ذلك جيداً خاصة وأني كنت مطلعاً على العادات السائدة في الريف. ولم يكن ذلك يعني أن فكرة الزواج هذه، لاتروق لي في الأساس أبداً. ولكني كنت لم أكد أستقر في طوكيو لمباشرة دراستي، وكان هذا المشروع، الذي مازال بعيداً جداً، يبدو لي وكأنه قد فرض عليّ أن أنظر اليه من خلال منظار مقرّب. ولذلك فاني عندما عدت أدراجي الى طوكيو فانما كنت أتهرّب من الحاح عمي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

-٦-

قصّة الزواج هذه، لقد نسيتها، ولاشيء سوى ذلك، وفوق هذا، فقد تأملت طويلاً، فيما حولي، رفاقي: فلم أتبيّن لدى أيّ منهم ميلاً الى الزواج. كانوا جميعاً يبدون لي أحراراً لايقيّدهم أي رباط. حقّاً لو أننا استطعنا النفاذ الى أعماق نفوس هؤلاء الأشخاص ذوي المظهر الذي ينم عن اللامبالاة، ربما اكتشفنا أنه قد سبق للبعض منهم أن وجدوا أنفسهم مضطرين لاتّخاذ زوجة، بعد أن دفعتهم الى ذلك بعض الضرورات العائلية. ولكنّ سذاجتي الشديدة منعتني من ملاحظة ذلك. ثم لو افترضنا أن بعضهم كان كذلك، فانه ليبدو من الحقيقة بمكان أنهم، بدافع من الاحترام الانساني، ربما بذلوا كل جهدهم ووجهوا كل اهتمامهم لكي لايكشفوا النقاب عن قصصهم الحميميّة الشديدة السرية أمام لامبلاة رفاقهم. الآن وقد أصبح بامكاني القاء نظرة مثقلة بالخبرة والتجربة على الماضي، فاني، في قرارة نفسي، وفي الحالة النفسية التي كنت أجد نفسي فيها بصورة لاشعورية آنذاك، كنت أكثر قرباً اليهم مما كنت أظنّ حينئذ. وكل ماهنالك أني لم أكن أدرك ذلك بوضوح، وكنت أتابع بمرح السير في دراستي.

ولكن علينا ألا نستبق الحوادث أبداً...

وهكذا انتهت سنتي الدراسية الثانية. وكالعام الاسبق، أغلقت حقيبتي وعدت الى ذلك الريف، حيث كان والديّ يرقدان إلى الأبد، وكما حدث في السنة السابقة، فقد

وجدت عمّي وزوجته وأولادهما بصحة جيدة جداً. ومن جديد شعرت بسحر مسقط رأسي الأخّاذ يستولي عليّ. علماً بأنّ هذا السحر لم ينقطع أبداً تأثيره عليّ. ولم يكن له من مثيل في العالم للتخلص من رتابة عامٍ كامل من الدراسة.

ومع ذلك فإنّ عمي حطم ذلك السحر الذي غمر فترة شبابي كلها وهدهدها عندما دسّ تحت أنفي فجأة كما يقال، مسألة زواجي. ولم يفعل شيئاً مع هذا، أكثر من ترداده للكلام الذي قاله في العام السابق: نفس الحديث، ونفس الدوافع والمبررات. هذا ماكان على وجه التقريب، ومع ذلك فإذا كان اقتراحه الأول غامضاً ولم يتضمن أية اشارةً مباشرة، فاني علمت هذا العام من كان يقصد بذلك. وكان اختياره يزيد من حرجي وارتباكي. لم يكن عمي قد اختار لي سوى ابنته، أي ابنة عمّي. هذا الزواج كان من الممكن أن يناسب كلاً منا: ولم يكن بامكاني، أنا نفسي، انكار ذلك. وكان عمّي يؤكد أن والدي قبل وفاته كان قد خطّط هو أيضاً لنفس هذا المشروع. وأن تكون هذه هي فكرة والدي المسكين، فالحق يقال، أني انما علمت ذلك من فم عمّي. دون أن يخطر هذا على بالي أو أن يراودني أيّ شعور به على الاطلاق. ولذلك فاني فوجئت بكشف النقاب عن هذا الأمر. ولكن في النهاية، لم يكن هنالك شيء غير معقول في اقتراح عمي، واذا كان ذلك حقاً بالاتفاق مع أبي، فإنّ ذلك المسعى يصبح مفهوماً تماماً.

ومع ذلك - وستجدني عديم الإحساس، وربما كنت أستحق اللوم على هذا الأمر -، فإن اللامبالاة التامة اتي كنت أشعر بها حيال ابنة عمّي كانت تجعل الأمر في غاية الصعوبة. لقد كنت أذهب، أثناء طفولتي، كل يوم تقريباً، لألعب وألهو في بيت عمي. ولم يكن لي رفيق أكثر مودة وألفة من ابنة عمي. ولكنك تدرك بسهولة ويسر أنّ هنالك حقيقة مؤكدة وهي أنّ بين الشباب والشابات الحديثي السن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والشديدي القرب والقرابة من بعضهم حتى يكاد المرء يعتبرهم أخوة وأخوات فيما بينهم، لاينشأ أبداً حب حقيقي. ربما كنت قد بالغت بعض الشيء بهذا التأكيد. ولكن من المؤكد أنّ المرافقة الدائمة تقتل بين الرجل والمرأة ذلك الاحساس بالجديد، وبالمجهول، الذي يقدّم للحبّ الاثارة الضرورية، فالحبّ كالبخّور: انما تغمرك رائحته عندما تحرقه. أو هو أيضاً كالشراب: نتذوّق طعمه مع الكأس الأولى. وهكذا، فإنّ هذه الصدمة التي هي الحبّ، لاتشغل في شريط الزمن الاّ لحظة قصيرة، أو وخزة خفيفة: وأنا لاأستطيع الامتناع عن البقاء متأكداً من ذلك. فاذا تركنا تلك اللحظة تمرّ، فإنّ التجاور الدائم بامكانه، دون شك، أن يخلق الالفة والمودة: وليس الحبّ، الذي يصاب حينئذ عصبه بالشلل بصورة لاشعورية. ولذلك، فاني كلما أمعنت التفكير في هذا الأمر، ضعفت رغبتي بالزواج من ابنة عمي.

وختم عمي حديثه قائلاً:

- اذا كنت مصراً تماماً على انهاء دراستك، فلابأس بذلك، انا سنؤجل الزواج الى ذلك الحين. ولكنك تعرف المثل القائل: «خير البرّ عاجله!».

ولذلك ربما استطعنا، دون مزيد من الانتظار، أن نشرب سوية نخب الخطوبة فما رأيك بذلك؟

لم يكن لديّ، من جهتي، أية فكرة أو رأي بخصوص ابنة عمي، ولذلك فإنّ الخطوبة أو عدمها كان سيان بالنسبة لي. ولكني أخترت أن أرفض بصراحة. فأبدى عمي استياءه الشديد، وأجهشت ابنة عمي بالبكاء. لم يكن ذلك حزناً منها لأنها خسرتني، بل كان غيظاً أنثوياً شديداً، لأنها قوبلت بالرفض: اني لم أكن أحبها أكثر مما كانت هي نفسها تحبني، كان هذا أمراً مؤكداً.

وسافرت ثانية الى طوكيو...

-٧-

وانتهت سنتي الدراسية الثالثة، وللمرّة الثالثة عدت الى منزلنا في القرية. وكما في السنوات الأخرى، كنت قد انتظرت بفارغ الصبر أن يتيح لي انتهاء الامتحانات الهروب من طوكيو. هكذا هي جاذبية مسقط الرأس. ولابدّ أنك، أنت أيضاً مررت بهذه التجربة: فحيث ولد المرء، يكون للهواء لون مختلف عن لونه في أيّ مكان آخر، وللأرض رائحة لاتضاهيها رائحة أيّ أرض أخرى، وفيه نشعر بذكرى أهلنا المتوفين ترفّ بحنان حولنا. نعم كنت أذهب لأغمر نفسي، خلال شهر تموز وآب، بذلك الجو الحار، كما تدفن الأفعى نفسها داخل حجرها. وهناك أبقى ساكناً لاأبدي أية حركة، أنعم بتذوق ذلك الدفء، وتلك الغبطة التي لامثيل لها!

ومع بساطتي، كنت أظن أنه لاجدوى من أن أتعب دماغي بالتفكير بمشروع الزواج بابنة عمي. فذلك المشروع لم يكن يناسبني: وقد رفضتها، وهذا كل ماهنالك. لم أكن قد نزلت عند رغبة عمي، وكان ذلك كافياً لبعث الطمأنينة في نفسي. وأعتقد أني، طيلة ذلك العام، لم تخطر ببالي تلك الذكرى. وقد عدت الى منزلنا الريفي، هذه المرة أيضاً، يخالجني نفس الشعور بالرضى والارتياح الذي كنت أشعر به كل عام.

ولكني، فور وصولي، لاحظت مرغماً أنّ عمي قد غيّر موقفه منّي: فلم تعد تعلو وجهه أمارات البساطة وطيبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القلب التي كانت تبدو لي عادة في السابق ولم تبدر منه أية حركة تنم عن رغبته بمعانقتي وضمي بين ذراعيه، ولكنني وأنا أتحلّى بكرم النفس الذي أنشأني علي والديّ، فاني لم أعر هذا الأمر، في الأيام الأولى كبير اهتمام. ثم فجأة، استرعت الحقيقة انتباهي بشكل مثير. وعلاوة على ذلك، فإنّ الأمر الذي استغربته رغم بساطتي، هو أنّ عمي، لم يكن الوحيد الذي كان يبدي لي وجهاً عبوسا بشكل غريب، فقد استغربت ذلك من زوجة عمي، كما أنّ ابنة عمي بدت لي معاملتها غريبة ولم تعد كسابق عهدها، وابن عمي الأكبر أيضاً أخذت تصرفاته ازائي تبدو لي غريبة، مع أنه قبل بضعة أسابيع كان قد أرسل لي رسالة تطفح سطورها بالحنان والمودة، يطلب فيها مني النصيحة والمشورة بشأن دخوله احدى مدارس التجارة.

كنت أشعر منذ ذلك الحين بالحاجة للتنقيب والتعمق في بحث الأمور، كم حدّثتك:

ولذلك أخذ أتساءل:

- كيف استطعت، أنا، أن أتغيّر بهذا الشكل؟

وفي الحال وجدت الجواب:

- كلا، لست أنا، بل هم، الذن تغيّروا!

وشعرت بحدس مفاجئ تراءى لي من خلاله، والذين وقد نزعا عن عينيّ الحجاب الذي كان يحجب عنهما الرؤية، وأني، بفضل والديّ أخذت أبصر جيداً.

وكما يبدو لي أن والديّ، حتى بعد موتهما، كانا يحميانني، كما لو أنهما مازالا على قيد الحياة. أهو اعتقاد خرافي، أودّ أن يكون الأمر كذلك، خاصة وأنّ الآراء والأحكام لم تكن تنقصني في تلك الفترة، ولكن ماالعمل اذا كان أجدادي هم الذين أورثوني هذه المعتقدات الخرافية، وأن

قوتها التي لاتقهر تسري في دمي، ولاشك أنها مازالت اليوم كامنة فيه.

وتسلّقت، بمفردي، الرابية التي كان يرقد والديّ، في أعلاها، رقادهما الأبدي، وهناك جثوت على ضريحهما المشترك، وقد تملكني بنفس الوقت شعور بالحزن والوفاء. ومع ايماني بأنّ مستقبل سعادتي كان مايزال بين يديهما، هما اللذان يرقدان تحت تلك البلاطة الباردة، طلبت منهما عند ذلك أن يحميا مستقبلي ومصيري. سوف تبتسم. وأنا أفهمك. ولكني كنت هكذا.

وكما لو أن ذلك قد حدث في لحظة، فقد تبدّل عالمي بسرعة مذهلة. وقد حدث ذلك للمرة الثانية في حياتي.

المرة الأولى حدث هذا التبدّل وأنا في الخامسة أو السادسة عشرة، عندما اكتشفت، من خلال وجود امرأة، جمال هذا العالم. وأصبت بالذهول من جرّاء ذلك. فلم أصدّق عينيّ. وأخذت أفركهما للتأكّد من أنهما تبصران:

- ياالهي ماأجملها!

الخامسة أو السادسة عشرة هي، كما يقال عادة، لدى الفتى أو الفتاة، السنّ التي تبدأ معها دغدغة الحب وهكذا اكتشفت أنا الحب. فقد رأيت في المرأة رمزاً لجمال الكون. فحتى ذلك الحين لم يكن قد خامرني أيّ شك بوجودها. وهاهما عيناي المغمَّضتان تنفتحان عليها، وتبدّل بذلك عالمي كله.

كان موقف عمي، هذه المرَّة، هو الذي بدّل عالمي من جديد. كان التبدل عنيفاً ومفاجئاً، فقد حدث دون توقع ودون أي مقدمات، وقد برز أمامي، هو ومن يلوز به، مختلفين تماماً عما كانوا عليه في السابق، ومعهم تبدّل أيضاً كل شيء. ومرة ثانية، راعني هذا الأمر وذهلت بسببه، وبدا لي مستقبلي مزعزعاً وغير مستقر فيما لو تركته بين أيديهم!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

-٨-

كنت، حتى ذلك الحين، قد تخلّيت عن ادارة شؤون ميراثي الى عمي، ولكن شعوراً أخذ يتأكد لديّ شيئاً فشيئاً بأني اذا لم أطلب منه تقديم حساب عن أعماله، فإنّ ذلك يعتبر جريمة لاتغتفر بحق ذكرى والديّ. وكان عمي في هذه الأثناء يكاد لاينام أبداً في نفس المكان، متذرعاً بوفرة أعماله. هكذا فانه كان يقضي يومين هنا وثلاثة هناك، في رحلات مكوكية دائمة بين المدينة وملكيّتنا. وأمارات الارهاق على الدوام بادية على وجهه. وكالحركة اللاشعورية كانت تتردد دائماً على لسانه هذه الكلمات: اني مرهق، مرهق بالعمل... وقبل أن تساورني الشكوك، كنت أنا أيضاً أعتقد أنه فعلاً مرهق بالعمل. ثم أخذت أقول لنفسي لو أنه كان أقل ارهاقاً ممّا كان يريد أن يبدو عليه، لكان مع ذلك تظاهر بأنه منشغل دائماً وأعماله كثيرة، لكي يبدو أكثر أهمية، وعصرياً أكثر مما هو بالحقيقة. أمّا الآن، وقد عزمت على أن أتبيّن الأمور بوضوح وأن أتحيّن الفرصة لكي أتحدّث مع عمي بموضوع الحسابات، فاني لم أستطع الامتناع عن الاشتباه بادعائه أنه منشغل على الدوام، وعن الظن بأن موقفه هذا لم يكن سوى مجرّد ذريعة لكي يتهرّب مني ويتحاشى مواجهتي. والحقيقة، أني لم أكن أتوصّل لايجاد عمي واللقاء به.

كنت قد سمعت أن عمي قد اتّخذ له عشيقة يعاشرها في المدينة: وقد أعلمني بذلك أحد زملائي القدامى. فيالهي، ان هذا الأمر ماكان ليدهشني، أنا الذي أعرف عمي جيداً. ولكنّ الأمر المدهش هو أنه حينما كان والدي على قيد الحياة، لم تسر مطلقاً أية اشاعة مثل هذه، وقد حدّثني رفيقي نفسه

عن أقاويل وشائعات أخرى مختلفة، كانت واحدة منها على الأقل يجب تمحيصها والتأكد منها. فقد مرّت فترة من الزمن كان الجميع يعتقدون أنّ عمي يكاد يكون قد أصيب بالافلاس بسبب بعض العمليات المدمّرة. ولكنه كما كانوا يتقوّلون، عادإلى الأوج منذ عامين أو ثلاثة. وهكذا تحققت شكوكي.

وأخيراً بدأت الحديث مع عمي: وكنت أودّ القول بدأت المحادثات. المحادثات بالطبع كلمة كبيرة جداً، ولكني لاأرى أبداً تعبيراً آخر لتوضيح موقع أحاديثنا ومستواها، والحقيقة أنّ الأمر كان لابدّ أن ينتهي بنا الى استخدام لهجة المحادثات، بل المفاوضات وأسلوبها. كانت خطة عمي تقضي بأن يعاملني كطفل بتكلّف من البداية وحتى النهاية. وأنا، من جهتي، كنت عازماً على مجابهته من أول الأمر الى نهايته بكل صراحة، دون أن أكلّف نفسي عناء اخفاء شكوكي. وقد قضينا بهذه الصورة، أنا وعمي على كل امكانية لقيام اتفاق ودّي فيما بيننا.

ربما لن أستطيع هنا، حسب ذكرياتي، أن أروي لك بدقة تفاصيل تلك المحادثات. فالحكاية تدفعني الى متابعة سردها: وعلاوة على تلك الخلافات مع عمي، هنالك في اعترافاتي نقطة هامة أنتظر الوصول اليها بفارغ الصبر، فلو أنك استطعت السفر آنذاك وتلبية دعوتي، لكنت حدثتك عن ذلك بكل تؤدة ودون عجلة. ولكنّ الحظ لم يسعفني بذلك. لذلك فاني مضطر الآن أن أمرّ بسرعة كبيرة على بعض النقاط، لأن وقتي الضيق المحسوب عليّ، يدفعني بالحاح، أضف الى ذلك أني لم أعتد جيداً على الكتابة.

وأنت تذكر بالتأكيد نقطة في أحاديثنا عندما قلت لك أنه لايوجد في هذا العالم سلالة خاصة تتكوّن من الناس السيّئين الأشرار، ولكنّ الحقيقة هي أنّ الفرصة عندما تسنح، فلايوجد رجل شريف، ومهذّب، الاّ ويصبح سيّئاً وشرّيراً: واننا بسبب ذلك يجب أن نبقى حذرين متيقظين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الدوام. ومع أنك عبت عليّ حماسي وغضبي، فقد أصغيت اليّ حينئذ بانتباه شديد، وسألتني ماهي تلك الفرصة الغريبة والفريدة من نوعها التي يمكنها بهذا الشكل أن تصنع من الرجل المهذب الشريف، رجلاً سيئاً وشرّيراً. فأجبتك: - انه المال!! فعبست عند ذلك بي. واني لأذكر تماماً الاستياء الذي بدا على وجهك. وأستطيع الآن أن أقول لك أني انما كنت أفكر بعمي حينذاك. وأنّ الانسان الطبيعي ،العادي، يمكن أن ينقلب الى انسان سيء وشرير، عند رؤية المال والنقود، وأنّه ليس هنالك انسان في العالم جدير بالثقة المطلقة، وقد قدّم لي عمي المثال والدليل على ذلك، هذا العم الذي أذكر بكل كراهية. أمّا بالنسبة لك، أنت الذي لم تكن تفكر الاّ بمتابعة معلومات من علم النفس نظرية تماماً، حتى غاية أعماق تلك المعلومات فان جوابي، دون شك لم يكن مرضياً: بل مبتذلاً جداً. ولكن بالنسبة لي، أنا الذي عشته ، فإنّ جوابي كان جواباً حياً. والدليل على ذلك أنني قد انتابني الحماس والغضب.

وأقول حيا، عن جواب ينطقه بحماس لسان حار، حتي وان كان هذا الجواب عادياً، ومبتذلاً، أكثر مأقول ذلك عن جواب يتصف بالاصالة بعد أن صاغه بهدوء ذهن بارد، فالحياة انما صنعت من دم، والجواب الحي ليس مجرّد كلمات متتابعة تهزّ الهواء فحسب، انه شيء قوي، وجدير بأن يهزّ القلب البشري بقوّة وعنف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العائلتين، بل مصلحته الخاصة هو، التي تتصف بالخسّة الشديدة، وأنا، الذي لم أكن أحبّ ولاأكره ابنة عمي، كان من الممكن جداً أن أقتنع بفكرة الزواج منها. ولكن كوني قلت كلا فقد ترك لي ذلك على الأقل عزاء مستحباً. اذ ان ثروتي كانت، على اية حال سوف تسلب مني ان حصل ذلك الزواج او لم يحصل، ولذلك فاني كنت مسروراً لأني رفضت ابنة عمي، وأفشلت رغبة والدها ومراميه حول هذا الموضوع، ومهما قلّ شأن ذلك، فإني بهذه الطريقة قد أثبتّ وجودي.... ولكني أخطيء بتكرار الحديث عن هذه الأمور والالحاح عليها. اذ انّك، وأنت في منأى عن هذه التفاهات، سوف تظن بحق أن عرضي بسرور ظاهر هذا الأمرالذي يعبر عن ارضاء بسيط للكبرياء، هو في الأساس نتيجة حقد أحمق.

وأخيراً تدخّل بيني وبين عمي بعض أقاربنا عارضين وساطتهم. ولكني لم أكن أشعر نحوهم بأية ثقة. ولم أكن أحذرهم وأخشى شرّهم فحسب: بل اني كنت أعاملهم كأعداء حقيقيين. ومن اللحظة ذاتها التي أدركت فيها أنّ عمي قد خدعني، نسبت الى بني البشر جميعهم صفته نفسها المتمثلة بالازدواجية والرياء، قائلاً لنفسي: اذا كان هذا هو الشقيق الذي كان والدي معجباً به أشد الاعجاب، فقد أصبحت أعرف من الآن فصاعداً ماذا أستطيع أن أطلب من بقية بني البشر وبماذا يمكنني الاعتماد عليهم! هكذا كنت أفكر.

وفي غضون ذلك، نظّم أولئك الوسطاء بياناً بكل مابقي لي. وهذا الكل بعد تقدير قيمته بالنقود، كان أيضاً يساوي أقل مما كنت أظن. ولكني فكرت بأنه كان يجب عليّ امّا قبول ذلك المبلغ أو اقامة دعوى. وترددّت، وقد استبدّ بي الغيظ، بين هذا الحل أو ذاك. ولكنّ اقامة الدعوى كان يتطلب مني كثيراً من الوقت، وهذا الوقت كان ثميناً جداً بالنسبة لي، لأني كنت مستغرقاً في دراستي، وكان أمراً محزناً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٠ -

كانت الرغبة الأولى التي أردت تحقيقها بواسطة نقودي هي أن أغادر نزلي الكثير الضجيج والبحث عن بيت صغير أستأجره لنفسي.

ولكن كان هنالك الصعوبات والمتاعب التي ستنجم عن شراء الأدوات المنزلية. كما كان هنالك مسألة ايجاد خادمة عجوز: وكيف سيكون الحال اذا لم تكون شديدة التمسك بالشرف؟ واذا كانت، أثناء غيابي لاتحرس المنزل جيداً؟ كانت كل هذه الشكوك تعذبني، وتجعل تحقيق مشروعي صعباً جداً. ومع ذلك، فاني ذات يوم قلت لنفسي أنّ بامكاني رغم كل ذلك أن أبدأ بالبحث عن المنزل، وذهبت الى النزهة دون أن أعيرهذا الأمر أهمية أكثر من ذلك. سرت منحدراً نحو الغرب من أعلى رابية «هونغو» وصعدت سفح مرتفع «كواشكاوا» متجهاً مباشرة نحو معبد «دانزوين» لقد تغيرت تلك الأحياء منذ أن أنشئ هناك خط للترام. ولكن في الفترة التي أحدّثك عنها، لم يكن يوجد هناك على الجانب الأيسر، الاّ جدران الترسانة المكوّنة من الطين المجفف، والاّ أراض نصفها بور ونصفها الآخر يشكّل مرتفعاً على شكل رابية، كلها مغطاة بشكل منتظم، بالحشائش البرّية، على الجانب الأيمن. وقفت برهة هناك، خالي البال، أتأمل الوادي الذي اجتزته، من جهة «هونغو» وذلك المنظر الذي مايزال، حتى في أيامنا هذه، غير سيء، كان في ذلك الزمن، مغرياً حقاً، بكثافة خضرته المتناسقة والمنبسطة على مدى النظر التي تضفي على الأعصاب هدوءاً مريحاً. وقلت أحدّث نفسي: حسبي لو أني أستطيع أن أجد منزل أحلامي في هذه البقعة!

واجتزت الحشائش والأعشاب، وسرت في طريق ضيق متجهاً نحو الشمال، ولايوجد حتى في وقتنا الحاضر مكان لأي شارع جميل بين تلك المنازل ذات الصفوف غير المنتظمة. ولكن في ذلك الحين، كان كل ذلك وسخاً بشكل واضح وأخذت أجوب الأزقة، وأجتاز الممرات، منعطفاً ذات اليمين وذات اليسار. وأخيراً خاطبت احدى بائعات الحلوى، قائلاً:

– ألا يمكن أن تكوني تعرفين بوجود بيت للايجار بالقرب من هنا: لابأس بأن يكون صغيراً، شريطة أن تتوفر فيه وسائل الراحة؟؟

فقالت:

– آه، بيت؟.... بين للايجار؟... بذمتي...

كانت هيئتها تنم بوضوح عن كونها لاتعرف شيئاً عن ذلك، وبعد أن شعرت بالحزن وخيبة الأمل، هممت بالعودة. ولكنها في تلك اللحظة قالت لي:

– ألا يناسبك، حقاً، نزل عائليّ؟

وبلا تردد، غيّرت خططي. اذ أنّ وجودي هادئاً ومطمئناً تماماً في وسط احدى الأسر، وتجنبي دفعة واحدة وبفضل ذلك كل المتاعب والهموم التي يمكن أن تنجم عن ادارة بيت خاص بي، بنفسي، انّ ذلك، بعد كل شيء، لن يكون أمراً سيئاً! ولذلك جلست في الحانوت، وأخذت البائعة تروي لي كلّ التفاصيل: قائلة:

انّ الأسرة التي أعنيها أي صاحبة النزل، هي أسرة ضابط، أو بالأحرى هي أسرة تركها أحد الضباط، فقد قتل رب الأسرة في ميادين القتال أثناء الحرب الصينية اليابانية، أو في مكان آخر. وقد سكنت أرملته حتى العام الماضي قرب الكلية الحربية في «اشيغايا». ولكنّ المسكن الذي كان يحتوي حتى على اسطبلات، كان متّسعاً أكثر مما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ينبغي بالنسبة لها. ولذلك فقد باعته، وأتت لتقيم في هذا الحي. وقد شعرت مع ذلك هنا بشيء من العزلة والوحدة، وربما رغبت بأن تجد شخصاً مناسباً يسكن عندها: وقد أكدت لي البائعة أن ليس هنالك سوى تلك الأرملة وابنتها الوحيدة وخادمتهما. فقلت في نفسي لابدّ أن ذلك سوف يناسبني تماماً، على ماأنا فيه من حب للصمت والسكينة والهدوء.

ولكن ماذا لو قوبلت بالرفض عندما أقدّم نفسي لهما؟ وأنا لست سوى مجرّد طالب، وطالب مجهول.... وشعرت برغبة بالامتناع عن ذلك. ولكن هنالك فرق بين طالب وطالب.. وأنا كان مظهري مناسباً وسليماً جداً... وغلاوة على ذلك... فاني كنت ارتدي قبعة طالب في الجامعة الامبراطورية، سوف تضحك، متسائلاً عن علاقة تلك القبعة بكل ذلك وعن فائدتها وتأثيرها في ذلك الظرف .

ولكن في ذلك الزمن، كان طلاب الجامعة أقلّ عددا بكثير، ويحظون بتقدير يفوق كثيراً مايحظى به طلاب هذه الأيام: وهذا ماجعلني أثق بقبعتي، وأتقدّم، دون أية توصية أخرى الي البيت الذي أرشدتني اليه البائعة...

وجدت الأرملة في البيت، فأطلعتها على رغبتي. وعند ذلك ألقت عليّ مختلف الأسئلة، عن أسرتي، ودراستي، وعن مواضيع أخرى، ولابدّ أني قد أوحيت لها بالثقة دون أن أعرف سبب ذلك، اذ أنها سمحت لي على الفور أن أنتقل للاقامة في البيت عندما يبدو لي ذلك مناسباً، كان واضحاً جداً أنّ تلك المرأة كانت مستقيمة وفاضلة. وقد فكرت أن نساء العسكريين، جميعهن لابدّ أن يكنّ علي شاكلتها. وتأملتها باعجاب وبمزيد من الدهشة.

ولكن في نفس الوقت لن يفوتني أن أذكر أني بقيت منذهلاً ومستغرباً: كيف يمكن لهذه المرأة أن تخشى الوحدة وهي تتمتع بالطبيعة التي اكتشفتها لديها؟

نقلت حوائجي دون تأخير كي أسكن في البيت: وكنت قد استأجرت، أثناء زيارتي الأولى، نفس الغرفة التي استقبلتني فيها الأرملة. كانت أفضل غرفة في البيت. وقد بنيت مجدداً في «هونغو» منازل ذات طراز أنيق، وكنت قد حصلت على معلومات بشأن أفضل غرفة يستطيع الطالب أن يحصل عليها. ولكنّ الغرفة التي أصبحت ساكنها الجديد كانت أكثر أناقة بكثير. حتى أنها، في البداية، كانت تبدو لي حسنة أكثر مما ينبغي بالنسبة لطالب.

كانت غرفة فسيحة الأرجاء. والى جانب المخدع، كان هنالك خزانة جدارية مكشوف مزوّدة برفوف، وباتجاه الممر الخارجي، كان يوجد خزانة كبيرة أخرى يبلغ عرضها ستة اقدام، لم كن فيها نافذة، بالمعنى الجقيقي للكلمة، ولكن أبواب الممر الخارجي، الزجاجية والمتحركة، كانت من جهة الجنوب ومعرّضة تماماً لأشعّة الشمس المشرقة بقوّة.

يوم انتقالي الى البيت الجديد، وجدت في المخدع أزهاراً رتّبت بعناية زائدة بعض الشيء، وبجانبها وضعت آلة موسيقية. ولم أكن أهوى الأزهار ولاتلك الآلة الموسيقية. ولأني نشأت في كنف والد يهوى الشعر الصيني، والخطوط، وكذلك تقاليد الشاي الاحتفالية، فقد نشأ لديّ، منذ طفولتي،ميل متزايد نحو الأشياء والأمور البسيطة جداً والتي تتصف بالاعتدال التام. وبسبب ذلك، دون شك فانّ زينة تتصف بالأناقة والتكلف الى هذا الحد، لايمكن الاّ ان توحي لي بالاحتقار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما كان أبي على قيد الحياة، كان قد جمّع عدداً كبيراً من العاديات والتحف الأثرية، التي لم يبعثرها تماماً كلها عمّي. وعندما غادرت منزلنا القديم، أودعت لدى أحد أصدقائي كل ماكان قد بقي منها. ومن بين اللوحات التي كانت موجودة هناك اخترت منها أربع أو خمس لوحات وهي التي كانت تروق لي أكثر من غيرها، وبعد أن أخرجتها من علبها، أحضرتها معي في حقيبتي، وقد عاهدت نفسي، أني حالما أستقر في غرفتي الجديدة، سوف أعلقها، في المخدع، لأمتّع نظري بها: ولكني، ويالأسف، لم أعد أشعر بالرغبة والجرأة على القيام بذلك وأنا أرى أمامي تلك الآلة الموسيقية والزهور المبتذلة! ولما قالت لي صاحبة البيت فيما بعد، أن تلك الزهور كانت قد وضعت هناك خصّيصاً، لدلالة على الترحيب بي، لم أستطع أن أمتنع عن الضحك بمرارة بيني وبين نفسي، أما بالنسبة للآلة الموسيقية، فالأمر كان مختلفاً: فاذا كانت قد وضعت هناك، فلابدّ أنها لم يكن يوجد لها مكان في غرفة أخرى. ولكني كنت أنزعج وأتضايق منها كثيراً!

لابدّ أنك قد توقعت أن ترى ظل أنثى يبرز لك عبر هذه القصة. وفضولك هذا، شعرت به أنا أيضاً، حتى قبل انتقالي للاقامة في الغرفة الجديدة. فهل كان ذلك بتأثير تلك التصورات السيئة، أم بسبب قلّة اعتيادي على الاختلاط بالناس، اني لست أدري: ولكني في المرة الأولى التي التقيت فيها فتاة ذلك البيت، كانت التحية التي لفظتها شفتاي مضطربة جداً. وهي، من جهتها، احمرّت وجنتاها خجلاً.

وقد حاولت أن أكوّن، في الخيال، صورة للفتاة، اعتمادا على أساليب وتصرفات وسلوك أمها. ولم تكن تلك الصورة لصالحها أبداً، وكنت أقول في نفسي أنّ الأم، باعتبارها زوجة ضابط، تبدو بين بين. والفتاة، وهي ابنة هذه الأم،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

-١٢-

عندما غادرت مسقط رأسي، كنت أعاني من كآبة شديدة ومن انطواء على الذات، وأشعر بكراهية نحو البشر، وقد تولّدت لديّ قناعة نفذت حتى مخّ عظامي وهي أنه لايمكن الاعتماد تماماً على أحد في هذا العالم. فذلك العم وزوجته، وأولئك الأقارب الآخرون الذين كنت أعتبرهم أعداء حقيقيين، كانوا بالنسبة لي الصورة التي ترمز الى البشرية بكاملها. كان ذلك، الى الحدّ الذي جعلني، حتى وأنا في القطار، ألاحظ، دون أن يبدو عليّ أنّي أفعل ذلك، حركات وتصرفات رفاقي في تلك الرحلة، وأنّ ليس بامكانهم أن يوجّهوا لي الكلام دون أن أتّخذ في الحال موقف الدفاع عن النفس. ،باختصار، كنت أشعر بنفسي حزينة وثقيلة، ثقيلة جداً في بعض الأحيان، كما لو كنت قد ابتلعت رصاصاً. وكانت كل أعصابي متوترة وكأنها شحذت على شكل ابر. وهذا هو، على ماأظن، السبب الحقيقي الذي من جرّائه، غادرت نزلي الكثير الضجيج، فور عودتي إلى طوكيو. ويمكن الاعتراض والقول أني لو كنت أعاني من متاعب مالية، لما خطرت لي فكرة السكن في بيت خاص بي، أنا لاأقول شيئاً، ولكنّ الأمر المتأكد منه تماماً، هو لو أني احتفظت بصفائي وراحة نفسي اللذين كنت أنعم بهما سابقاً، دون أن يمسّا بسوء، لما فكرت أبداً، حتى ولو كنت غنياً، أن أضع على كاهلي الهموم والمتاعب التي تنشأ عن السكن في بيت خاص، وادار شؤونه.

وحتى بعدانتقالي الى «كواشيكاوا» واستقراري فيها، فاني لم أستطع، خلال بعض الوقت، التوصّل الى ادخال

الراحة الى نفسي التي كانت تلك الانطوائية كأنها قد غلّفتها بنطاق من التوتر. كنت أشعر بالخجل من نفسي، ،لكنني لم أكن أكفّ عن القاء النظرات خلسة على من حولي، وكانت نظراتي تلك، تنمّ عن روح معذّبة. وكنت أظلّ ماداً عنقي ومركزاً نظري، لدرجة ارتكاب خطأ الحشرية والفضول، فارضاً شيئاً فشيئاً، على شفتيّ قاعدة الصمت المطبق، وكما يفعل الهرّ، وعلى طريقته، كنت أراقب كل من في المنزل، أعمالهم، تصرّفاتهم وحركاتهم. وكنت أفعل ذلك من وراء المنضدة، حيث كنت أجلس متّكئاً عليها وملتزماً الصمت. وكنت ألاحقهم بلا هوادة، وبكل انتباهي اليقظ، لدرجة أنني كنت أشعر وكأنني قد أصبحت بالنسبة لهم كائناً مؤذياً، بل وباء حقيقياً، وكنت أشعر أحياناً بين شفتيّ بقرف شديد من نفسي، كذلك النشّال الذي لم يكن يسرق أبداً.

سوف تجد ذلك غريباً. اذ أنك ستقول كيف كان بامكان «الأنا» الذي في داخلي أن يغذي من نفس القلب انطوائيته الشديدة وكرهه لبني البشر، ويقع في الحب، يعجب بباقات زهور لافنّ في تصفيفها، ويخلب لبّه عزف موسيقي رديء؟؟؟ اذا كنت ستلقي عليّ أسئلة كهذه، فانني سوف أجيبك ببساطة، بأنّ كراهيتي لبشر كانت صادقة، وصادقاً أيضاً، كان حبي وتأثري الغرامي. وأنا أعرض عليك كلاًّ من الحالتين النفسيتين على أنّ كلاًّ منهما هي صحيحة وحقيقية، دون أن أستطيع أن أقدّم لك مزيداً من الشرح. وعليك أنت، بما تعرف من علم النفس، أن تبحث عن تفسير لذلك. على أنّ هنالك كلمة واحدة فقط: أظنّ أنني إذا كان لم يعد لديّ أيّ وهم أو أمل خادع أكنّه للبشرية، فيما يتعلق بالمال، فانني على العكس من ذلك، لم يكن لديّ حتى ذلك الحين، أيّ مبرر لعدم الثقة بها فيما يتعلق بالحب. وهكذا فإنّ نفس الأمور التي تبدو غير متناسقة، عندما ينظر اليها من الخارج، والتي أعترف أنا نفسي، بكونها متناقضة، كان بامكانها أن تتواجد سوية في قلبي دون تناقض.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعرف جيداً، أنّ هذا الكرم، ليس له كما يقال، أية علاقة مع كرم النفس الذي كم كنت أتمنى أن أجده لديّ. ومهما كان الأمر، فإنّ صاحبة المنزل امرأة، وباعتبارها امرأة، فانها كانت، بتعميم عاجل، تضفي على كياني المعنوي مزايا سطحية تماما. ولذلك كانت تطلق عليّ بمعنى واحد، عبارة الثناء «الكرم» هذه، دون أن تميّز بين المعنيين اللذين يمكن أن تتضمنهما.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أما الفتاة، فكانت تذهب إلى المدرسة، وتتابع دروسها عن الزهور والموسيقا، وكنت أفترض أنها مشغوفة ومشغولة بها لدرجة كبيرة، ومع ذلك فإنّ الأمر الذي أثار دهشتي الشديدة هو أنها كانت تبدو دائماً حرة ليس لديها ما تعمله. وهكذا كنا نحن الثلاثة، نجتمع بكل مناسبة، ونقضي الوقت بسرور، متحدّثين بمختلف الأمور.

وعندما كانوا ينادونني، كانت دائماً الفتاة هي التي تقوم بذلك، ومن أجل هذا كانت تأتي الى مدخل غرفتي، بعد أن تسير وتستدير على شكل زاوية قائمة مجتازة الممر الخارجي، أو أنها كانت تعبر الردهة، وتفتح قليلاً، من الجانب الخلفي، الحاجز الذي يفصل غرفتي عن غرفة ملاصقة لها، ثم تقف برهة، فتناديني باسمي، وتسألني:

- ماذا، هل أنت منهمك بالعمل؟

وكنت أنا، أحتفظ دائماً بكتاب علمي مفتوح على منضدتي، وأثبّت ناظريّ عليه، ولابدّ أني كنت بذلك أبدو من بعيد رجلاً مجداً، والحقيقة، هي أني لم أكن أدرس مطلقاً. وكل ماكنت أنتظره، وعيناي مستمرّتان على الكتاب الذي لم أكن أقرأ فيه شيئاً، هو أن تأتي الفتاة لتناديني. واذا حدث أن خيّبت أملي بعد الانتظار، كنت أنا، بدوري، الذي أتقدّم نحو مدخل غرفتها وأسألها:

- ماذا، هل أنت منهمكة بالعمل؟

كانت الفتاة تشغل غرفة متصلة بالردهة، أما الأمّ فكانت تقيم امّا في الردهة أو في غرفة ابنتها. وكان هنالك حاجز متحرك يفصل هذه الغرفة عن الردهة ولكنهما بالحقيقة لم يكونا يشكلان الا قاعة واحدة، كانت المرأتان تذهبان وتجيئان فيها دون انقطاع. وعندما كنت أنادي من الممرّ، كانت الأم هي التي تردّ عليّ دائماً داعية اياي للدخول: أمّا الفتاة، حتى وان كانت حاضرة فانها كانت تلتزم الصمت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأحياناً، وان كان نادراً، ودائماً لسبب محدّد، كانت الفتاة تقوم بزيارتي. بل كان يحدث أن تجلس وتسترسل في الحديث. وكان قلبي يصاب حينئذ باضطراب غريب، وكنت أحاول القول لنفسي أنّ الانفراد باحدى الفتيات هو دائماً بحدّ ذاته أمر يثير الاضطراب: ولكنّ هذا التفسير لم يكن يرضيني، فقد كان هنالك شيء آخر أكثر عمقاً، قد انتزع مني بصورة لاشعورية كل هدوء واطمئنان. وكان شعوري بأن مواقفي وأوضاعي لابدّ وأنّها سوف تنمّ رغماً عنّي، عن اضطرابي، يزيد من آلامي. أما الفتاة، من جهتها، فكانت بالأحرى تبدو لاهية وخالية البال.

وهذه الطفلة، التي لم تكن تجرؤ حتى على رفع صوتها وهي تعزف الموسيقا ، أكانت حقاً هي نفس المرأة التي كانت تبدو متمتّعة بالراحة والحبور، وهي تجلس قبالتي؟ هذا ماكان يذهلني.

وعندما كانت تتأخر كثيراً، كانت أمها، وهي فل الردهة، تناديها، فتجيبها: نعم، اني قادمة!

ولكنها، في بعض الأحيان، كانت تبقى، مع أنها، مع ذلك لم تعد طفلة، فقد كان ذلك بادياً بوضوح لناظريّ، حتى أني كنت أستطيع، بسبب بعض الحركات والايماءات المتعمدة أن أحكم، بأنها، من جهتها، كانت تريد افهامي جيداً بأنها لم تعد طفلة.

-١٤-

ولم تكد الفتاة تذهب، حتى كنت أرسل تنهيدة الرضى. ولكني في نفس الوقت، كنت أشعر بالفراغ عند ذهابها، كما كانت تراودني أيضاً الرغبة بأن أطلب منها الصفح عن التنهيدة السخيفة التي أفلتت مني. ويبدو لي أنّ ذلك يشكل تناقضاً ربما كان أنثوياً أكثر مما يمكن أن ننسبه للرجال. أما أنتم شباب اليوم فلا شك ان حكمكم على ذلك سيكون أيضاً أكثر قسوة. ولكن، ما العمل، فقد كنا نحن غير معتادين على النساء وقليلي الخبرة بالتعامل معهنّ!

كانت الأم لاتخرج إلاّ نادراً جداً. ولكنها، عندما كانت تفعل ذلك، لم نكن نترك بمفردنا أبداً، نحن الاثنين: أنا وابنتها. فهل كان ذلك مجرّد صدفة، أم كان مقصوداً؟ اني لست أدري. ولكن، وان كان يزعجني جداً القيام بهذا الاعتراف، فإنّ موقف الأم حيالي، كان يبدو، عند تدقيق النظر فيه، شديد التنافر والتناقض. اذ انها تارة، كانت تجعلني أشعر أنها تريد، هي نفسها، أن تقرّب بين ابنتها وبيني، وتارة، على العكس من ذلك، كانت تبدو دون سبب واضح، تقف في مواجهتي وقد اتخذت موقف الدفاع بكل يقظة وحذر. وكانت تلك، طيلة حياتي، المرة الأولى التي اصطدم فيها بمثل هذا الأسلوب في التصرّف والسلوك، الأمر الذي كان يجعلني أشعر بالاهانة والحزن.

فكم كنت أودّ لو أنّ الأم قرّرت بصراحة اتخاذ هذا الموقف أو ذاك. ففي نظر المنطق، كان من البديهي أنّ هذين الموقفين متناقضان. وأنا الذي كنت قد خدعت من قبل عمي، لم يكن بامكاني إلاّ أن أذهب إلى أبعد من ذلك بقليل، وأن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أظنّ بأنّ من هذين الموقفين المتناقضين، لابدّ أنّ هنالك واحداً حقيقياً، وآخر مصطنعاً. ولكن أيّهما كان الحقيقي، اني لم أستطع تبيّنه. ولم تكن المشكلة أني لم أستطع أن أقرر شيئاً في هذا الأمر فحسب، ولكنّ السبب الأساسي لذلك التناقض الغريب، كنت مراراً، وتكراراً، أبحث عنه، ولكن دون جدوى. وأخيراً، ولعدم تمكني من تفسير مثل هذه المجافاة للمنطق، اكتفيت بأن عزوتها الى الطبيعة الانثوية وحدها، قائلاً لنفسي:

- ايه، انها امرأة: وهيهات مابين النساء والمنطق...!

وهكذا كل ماكان يربكني فيما يتعلق بالنساء، كنت ألقيه على عاتق انعدام المنطق وحده لدى المرأة، ليس إلاّ.

وان كنت أحتقر المرأة الى هذه الدرجة، فاني مغ ذلك لم أتوصّل، مهما فعلت، الى احتقار الفتاة الي كانت قد اجتذبتني. وكان منطقي حيالها يبدو معطلاً، والحب الذي كنت أكنه لها يكاد يقترب من الايمان. ولاشك أنّ شعوراً بالانزعاج سوف يعتريك وأنت تراني استخدم هذه الكلمة الدينية عند الحديث عن امرأة. ومع ذلك فانّ هذا الاستخدام يبدو لي صحيحاً جداً، حتى في يومنا هذا. ذلك لأن الحب الجدير بهذا الاسم، لا يختلف كثيراً عن الايمان، وهذا أمر، أنا متأكد منه تماماً. وفي كل مرّة كنت أنظر الى وجه تلك التي أحببتها، كنت أشعر أني قد أصبحت أكثر طهارة ونقاء. وفي كل مرّة كنت أفكر بها، كنت أشعر فجأة باحساس نبيل قوي يستولي عليّ. واذا كان لهذا الشيء الغريب الذي يسمّونه الحب يمكن أن نفترض أنّ له طرفين، فبامكاني أن أقول في الطرف الذي يتجه نحو السماء يعيش ايمان الهي، وفي الطرف الذي يتجه نحو الأرض تتحرّك رغبات الحواس، واذا كانت هذه الصورة صحيحة، عندئذ أستطيع القول أيضاً أن حبي أنا، قد سما دفعة واحدة وبيسر وسهولة إلى أعلى حدود الحب. وأنا انسان، بكل تأكيد، ولاأستطيع أن ألقي جانباً

جسدي المكوّن من لحم ودم. ولكن، في عينيّ الطافحتين بصورة المحبوبة، وفي قلبي الذي يطفح بذكراها، لم يكن يطفو حينئذ أيّ اضطراب حسي أو شهواني.

ومع ذلك، فلأن الحذر الذي كنت أشعر به نحوالأم لم يكن ينسجم مع الحب المتنامي الذي كنت أكنّه لابنتها فقد أخذت العلاقات فيما بيننا تتعقّد بصورة لاشعورية، ألا أنّ كل شيء كان يحدث في أعماق أنفسنا نحن الثلاثة، دون أن ينفذ منه شيء الى الخارج. ثم لاأدري بأية مناسبة، أخذت أشك بقيمة الحكم المتسرّع الذي اتخذته بحق الأم: فهل كون موقفيها متناقضين، يعني بالضرورة أن أحدهما كان مصطنعاً ولايعبّر عن الحقيقة؟ علماً بأنها لم تكن تتخذ ذينك الموقفين بصورة متناوبة ومتبدّلة من وقت لآخر، بل بصورة دائمة وفي وقت واحد: وهو أمر يجب أن نأخذه بعين الاعتبار. ولذلك كنت أحدّث نفسي قائلاً: انّ الأم ترغب أن تقرّبني من ابنتها، ومن جهة أخرى، تبقى متخذة مني موقف الدفاع: وهذا هو بالضبط مااعتبرته تناقضاً، في البداية. ولكن الأم كانت تظلّ يقظة وشديدة الحذر، دون أن تكفّ عن العمل على اقامة التقارب بيني وبين ابنتها. ولم يكن هنال أيّ شك بأنّ تلك الرغبة بالتقريب بين ابنتها وبيني كانت رغبة مستمرة، لاتنقطع تسير وكأنها خط مستقيم. فقط، اليك ماهنالك: انها لم تكن تريد أن يتجاوز هذا التقارب، عندما يتحوّل الى الفة ومودة شديدة، الحدّ الدقيق الذي تحدّده هي.... أمّا أنا، فلم أكن أشعر، من جهتي، بأية رغبة جسدية خبيثة تنبت في أعماقي، ولذلك كانت احتياطات الأم تبدو لي زائدة جداً عن الحاجة، ولكني، على كل حال، أهملت كل تفسير سيء لتصرفات الأم، وسلوكها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وباستعراضي، بالفكر، مختلف مواقف الأم، ومقارنتها ببعضها، تأكدت أني قد حظيت، في ذلك البيت، بثقة الجميع، بل لقد حصلت خلال ذلك، على الدليل بأن تلك الثقة قد منحت لي منذ زيارتي الأولى، وأنا، الذي كنت قد أخذت أحذر البشرية كلها وأشكُّ بها، كانت تلك الثقة التي حظيت بها تبعث بعض الحيرة في نفسي، وقد فسرتها لنفسي بهذه الحقيقة القائلة بأنّ النساء هنّ أكثر غنى بالحدس من الرجال: بل ولأنهنّ يستسلمن أكر مما يجب لهذا الحدس، لذلك يصبح من السهل جداً على الرجال أن يخدعوهن، والآن وبعد أن تقدمت بي السن، وأخذت أستعيد، بالفكر، هذه الأمور، كثيراً ماأجد سلوكي وتصرفاتي عندما كنت شاباً يافعاً، مضحكة للغاية. وذلك الحدس، الذي كنت أعتبره الميّزة التي تتمتع بها النساء، ألم أكن أستخدمه، أنا نفسي بقوّة ثابتة ومتسمرّة لسبر أغوار نفس وفكر الفتاة التي استهوتني وجذبتني نحوها؟ وبعد ألم أكن انمّي في نفسي نحو الفتاة ثقة مطلقة، أنا الذي كنت قد اتخذت ذلك القرار الثابت بالحذر من الجميع وبعدم الثقة بأي كائن بشري؟ وأيضاً، أنا الذي لم أكن أظنّ أنّ هنالك مخلوقاً في هذا العالم جدير بأن يوليه الآخرون ثقتهم الخيّرة، ألم أكن موضع ثقة أم هذه الفتاة؟

واذا كنت لم أتحدّث الاّ نادراً عن مسقط رأسي، فاني لم أتحدّث مطلقاً عن الخدعة الكبرى وخيبة أملي الأخيرة التي منيت بها: اذ أنّ مجرّد ذكراها يكاد يصيبني باضطراب يشبه المرض. وكنت أكتفي بتمهيد الطريق لربة البيت كي تتحدّث

عن أسرارها وتبثني أشجانها، ولكنها لم تكن تأخذ ذلك بهذا المعنى، وانما أسراري وأحاديثي عن هذه الأسرار هو ماكانت تطلبه في كل مناسبة، وأخيراً تكلمت:

- كلا، اني لن أعود مطلقاً الى مسقط رأسي، اذ لم يعد هنالك شيء أو أحد ينتظرني فيه، فيما عدا قبر والديَّ!

كان القلق يبدو واضحاً على وجه الأم، وكانت الفتاة تبكي. أمّا أنا، فقد شعرت بالارتياح بعد أن تكلمت.

وفي الحال اتخذت الأم مني موقفاً معبراً جداً يغني عن الكلام، اذ أنها كانت تبدو وكأنها تقول: -

- آه، كنت أعلم جيداً أنّ حدسي قد أصاب ولم يخدعني!

وأخذت تعاملني معاملتها لأحد صغار أقاربها الذي ترى من واجبها أن ترعاه وتحميه. ولم يزعجني ذلك، بل على العكس، فقد أضفى على نفسي شعوراً بالدعة والعذوبة. ولكن لم يمض وقت طويل حتى نشأ في ذهني شك جديد.

كان ذلك الشك في بدايته غامضاً وغير واضح المعالم، ولكنه وقد اخذ يتضخم باستمرار من تلقاء نفسه، فانه لم يلبث ان امتدّ وبسط جذوره. وبأيّ مناسبة ساورتني هذه الفكرة، اني لم أعد أذكر، ولكنّ ذلك التشابه أثار انتباهي: فماذا لو أنها تكررّ عليّ المكيدة نفسها التي قام بها عمّي؟ ألم يكن عمّي، هو أيضاً، يفعل كلّ شيء لكي يقرّبني من ابنته؟ ومنذ تلك اللحظة، بدت لي على الفور تلك السيدة الخدومة والشديدة العطف، وهي تحمل ملامح صورة المرأة التي تحيك أسوأ المكائد والدسائس. ومن غيظي المرير أخذت أعضّ شفتيّ.

وماكانت تلك السيدة قالته في البداية، من أنها قد شعرت قليلاً بالوحدة، فقد رغبت بأن يقيم لديها أحد النزلاء، فهذا مالم أكن أظنّ أنّ به أقل قدر من الكذب، والأحاديث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخاصة التي أتاحتها لي العلاقات الودية، لم تترك، على ماأعتقد، بخصوص ذلك، مجالاً لأيّ شك. ولكن مع ذلك، لم يكن من الممكن الادعاء بأنّ أحوالها المادية كانت ممتازة. وبالنسبة لمصلحتها، فانها لم تكن تخسر شيئاً فيما لو اتخذت مني صهراً لها.

وعدت اتخذ ثانية موقف الدفاع بمزيد من الدقة والحذر. ولكني وأنا أكنّ للفتاة ذلك الحب الشديد الذي حدّثتك عنه، ماذا يمكن أن يفيدني أن أزيد من حذري نحوالأمّ ومن سوء ظني بها؟ لقد كنت، في سرّي، أسخر من حالي، وأشتم نفسي، قائلاً:

- يالك من غبيّ، كم تبدو مغفّلاً!

كانت حماقتي تتجلّى في ذلك التناقض بين محبتي للفتاة وشكوكي وسوء ظني بنفس الوقت، بأمها. ولكن لو لم يكن هنالك سوى ذلك، لكنت قبلت أن أكون ذلك المغفّل، دون أن أحزن لهذا كثيراً. أما ماكان يسبب لي قلقاً حقيقياً فهو ذلك الشك وخشيتي من أنّ الفتاة هي أيضاً، مثلها في ذلك مثل أمها، ليست سوى متآمرة وحائكة للدسائس والمؤامرات. وماذا لو كانت الاثنتان تمثلان أمامي مهزلة دنيئة وضعت فصولها ونسّقت من وراء ظهري؟ كانت هذه الفكرة تسبب لي ألماً شديداً لدرجة أني لم أكن أظنّ أنّ لديّ القدرة على تحمّله. ولم يعد الأمر بالنسبة لي مجرد مسألة مسرّة أو مكروه، بل مسألة حيوية بشكل أساسي. ومع ذلك فاني كنت أشعر نحو الفتاة بثقة متينة جداً لدرجة أني لم أكن أستطيع أن أسمح لنفسي بأن يساورها بها أي شك. وهكذا كنت، وأنا أعاني من الضغوط بين الثقة والشك، كرجل لايستطيع التقدم ولاالتراجع. شك وثقة، كان هذا الشعور وذاك يمكن أن يرتكز الى أساس، وكان من الممكن أن هذا وذاك لاأساس له.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليس ذلك لأنهم كانوا غلاظاً فظين: ولكن بين ذلك وبين أن يزعجوا أنفسهم من أجل أصحاب المنزل....! كان ذلك يجري بشكل لو أنه حكم عليه حسب سلوك وتصرّفات الزائرين، لكنت أنا، المستأجر، أبدو وكأنني صاحب المنزل وسيده، بينما كانت الفتاة، وهي في بيتها، تتصرف، بالواقع، وكأنها احدى قريبات أصحاب المنزل الأكثر فقراً وخجلاً.

واني لأروي هذه التفاصيل كما ترد عبر ذكرياتي. ولكن كان من الممكن ألاّ يكون لها أهمية أخرى، لو لم تكن هنالك تلك الواقعة، التي لاأستطيع أن أتركها طي الكتمان: فقد كان يسمع، تارة في الصالون، وتارة في غرفة الفتاة، صوت رجل، يتحدّث بلهجة لم تكن تشبه اللهجة المعتادة لزواري أنا: فقد كان صوته منخفضاً دائماً. هل كان في كل مرّة هو نفس الزائر، أم لا؟ وعمّ كان يدور الحديث؟ كنت أجهد نفسي عبثاً لمعرفة ذلك. وكلما أجهدت نفسي لمعرفته كنت أشعر أن أعصابي تزداد تشنجاً وانقباضاً. وكانت هذه الحالة العصبية تزداد سوءاً وأنا محتجز في تلك الغرفة. فهل كان ذلك الرجل من الأقارب أم مجرّد أحد المعارف؟ هذا ماتساءلت عنه أولاً. ثم: أهو شاب، أم متقدم في السن؟ كيف أستطيع معرفة ذلك بينما أظل قابعاً وراء المنضدة؟ ومع ذلك فإني لاأستطيع الذهاب لكي أفتح الحاجز قليلاً! ولو قلت بأنّ أعصابي كانت ترتجف، لكان قليلاً: كانت كأنّ أمواجاً عاتية تصفعها، ترتطم بها بشدّة وتطرقها طرقاً. وحالما كان الزائر ينصرف، كنت كلّ مرة أسأل عن اسمه. وفي كل مرة كانتا تكتفيان، ان كانت الأم أو ابنتها، باعطائي الاسم الذي كنت أسأل عنه. وكانت خيبة الأمل ترتسم عند ذلك على وجهي. ولكن كيف كان يمكنني الحصول على الجرأة كي أطلب جواباً مرضياً! وبأيّ حق؟ كانت التربية التي تلقيتها تجبرني أن أحترم بعضاً من كبرياء الخلق لدي، ولذلك كنت ألتزم الصمت. ولكنّ هذا الاحترام الذي كنت أكنّه لنفسي، كنت أشعر،

بنفس الوقت، برغبة شديدة لتجاوزه، لدرجة أنّ وجهي الذي كنت أقابل به المرآتين كان يبدو وجه متسوّل حقيقي. كانتا تضحكان. ألم يكن ذلك سخرية أبداً؟ أم كان لطفاً فحسب؟ لطفاً حقيقياً؟ أم لطفاً مصطنعا؟ كنت إلى هذا الحد قد فقدت وسائلي لدرجة أني، في الحال، كنت أظلّ عاجزاً عن فهم أيّ شيء. وبعد ذلك، كنت لاأكف خلال ساعات عديدة عن الترديد بيني وبين نفسي:

- هل كانتا تعتبراني مغفلاً، أم لا؟

كنت حراً. حراً بأن أهجر دراستي في منتصف الطريق، حراً بالذهاب إلى حيث يحلو لي، حراً بأن أتّبع أسلوب العيش الذي يعجبني، حراً بأن أتزوج المرأة التي سأختارها، بغض النظر عن المكان الذي ولدت فيه. ولم يكن عليّ، وأنا الذي كنت أعيش وحيداً، أن أطلب النصيحة أو المشورة من أحد. ومرات عديدة، كنت قد اتّخذت قرارات حاسمة: نعم، سأطلب من الأم يد ابنتها بعد أن أتزود بالشجاعة الكافية! ولكنّ التردد كان في كل مرّة يوقفني، وهكذا فانّ الطلب لم يخرج مطلقاً من بين شفتيّ. ليس لأني كنت أخشى نتائج رفض محتمل. حقاً، انّ اصابتي بخيبة أمل، كان بامكانها أن تغيّر مصيري: إلى الأفضل، أم إلى الأسوأ، اني لست أدري. ولكنّ الأمر المؤكد، هو أنّ حياتي كان من الممكن أن تدخل، بسبب ذلك، في اتجاه جديد، يتيح لي فرصة التواجد أمام عالم جديد تماماً. وهذا العالم، كنت أستطيع، فيما لو هبطت إلى أعماق نفسي تماماً، أن أجد الشجاعة لمجابهته. كلا، انّ ماكان يجعلني بالحقيقة أتردد، كانت الفكرة، بأن من الممكن أن أكون، أنا، قد ابتلعت طعماً، أو أني وقعت في شبكة منصوبة: وهذا هو ماكان يثيرني. وبما أني كنت قد خدعت من قبل عمي، فقد أقسمت بيني وبين نفسي، على أنه لن يستطيع مطلقاً أيّ كائن أن يخدعني بعد الآن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأنظار بشكل واضح. ولكنّ أولئك الذين كانوا يتأملونها باعجاب، كانوا يلتفتون بعد ذلك نحوي، وكان ذلك يزعجني كثيراً.

ذهبنا نحن الثلاثة إلى مخازن «نيهومباشي» لشراء حاجياتنا. ولكننا كنا نتبادل الآراء ونحن نقوم بعمليات الشراء، وقد استغرق ذلك من الوقت أكثر مما كنت أظن. كانت الأم تأخذ رأيي، قائلة وهي تناديني باسمي، كما لو أنني كنت قد أصبحت أحد أفراد الأسرة:

ـ كيف ترى هذا؟

وكانت تبسط، من وقت لآخر، طرف ثوب من القماش الحريري، وبعد أن تضع القماش باتجاه الطول على جسم ابنتها من أعلى كتفيها حتى أسفلَ قامتها، ثم تقول لي:

ـ ارجع خطوتين أو ثلاث إلى الوراء، وقل لنا كيف يكون وقع هذا وأيّ تأثير يحدثه!

وكنت أقرّر، قائلاً على التوالي:

ـ هذا، انه غير مناسب!... أما هذا، فانه مدهش، ويدعو إلى الاعجاب! وباختصار، فإني كنت أبدي رأيي، بكل جدية ووقار، تماماً كرجل خبير بهذه الأمور.

وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً، وعندما انتهينا منه وعدنا إلى المنزل، كان قد حان موعد تناولنا طعام العشاء .وقالت الأم أنها تريد أنْ تقدّم لي شيئاً طيباً ومناسباً، تعبيراً عن شكرها: وهكذا فانها قد اصطحبتنا إلى زقاق «كيوارادانا» الضيق، حيث مازال يوجد مسرح صغير جداً. وإذا كان الزقاق ضيقاً، فانّ المطعم أيضاً لم يكن واسعاً أبداً. وأنا، الذي لم أكن أعرف ذلك الحي، أدهشني أنّ ذلك المكانَ يعجب الأم، وأنها تجد نفسها مرتاحة فيه.

كان قد حلّ الظلام عندمَا عدنا إلى المنزل. وكان اليوم

التالي يوم أحد، فمكثت في المنزل طيلة النهار. ويوم الاثنين، ذهبت في الصباح الباكر لحضور الدروس. وعند ذلك، قال لي أحد رفاقي، ساخراً:

- رائع! وهل يمكن أن نعرف منذ متى أنت متزوج؟ مع ذلك، لك التهنئة: فزوجتك جميلة جداً!

كان لابدّ أنه قد رآنا، نحن الثلاثة في «نيهومباشي».

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١٨ -

عندما عدت إلى البيت، رويت هذه القصة للمرأتين. فضحكت الأم وقالت لي:

- لابده أنّ ذلك قد أضجرك وسبّب لك ضيقاً شديداً!

قالت ذلك وهي تحدق بي متصفّحة وجهي باهتمام واضح. وفي الحال، فكرت بأنّ هذه هي تماماً الطريقة التي تتّبعها النساء لسبر أغوار قلب الرجال: فقد كان في عيني الأم من الأفكار المضمرة مايكفي لتبرير فكرتي هذه. أوّاه، لو أني فتحت حينذاك للأم، أعماق قلبي بكل صراحة وصدق، كم كان ذلك أفضل بالنسبة لي! ولكن كان هنالك مسبقاً شكوك راسخة تستقر في ذهني. وبينما كنت أهمّ بالكلام وفتح قلبي، انحبس فجأة صوتي داخل حلقي. ولم يكن لي بدّ من تغيير مجرى الحديث.

ولأنّي كنت أرغب أنا نفسي، بسبر نوايا الأم بشأن مستقبل ابنتها، فقد تجنّبت أن أضع نفسي كمعنيّ مباشرة بالأمر، وتظاهرت بأني أودّ الحصول على معلومات عن شخص يفترض أنه تقدّم ليخطبها، فأجابتني الأم:

- ليس معنى ذلك أنّ يد ابنتي لم تطلب مرّتين أو ثلاث مرّات. ولكنها مازالت صغيرة جداً! وكما تعلم فهي لم تنه دراستها الثانوية بعد! ولذلك فإني لست على عجلة من أمري بخصوص هذا الموضوع!

ومالم تقله بصراحة، ولكن كان من السهل ادراكه، ألا وهي القيمة الكبيرة التي يحتلها في نظرها جمال ابنتها العظيم، يدل على ذلك قولها:

ـ وعلى أية حال، لماذا العجلة؟ اني أستطيع تزويجها عندما أريد ذلك! وأضافت قائلة بما أنّ ليس لها الاّ هذه الابنة، فسيكون فراقها صعباً جداً بالنسبة لها. بل انها كانت تترك أيضاً مجالاً للظن بأنها لم تقرر بعد نوع الارتباط الذي ستختاره: هل ستبعث ابنتها كزوجة في أسرة أخرى، أم أنها ستتّخذ لابنتها زوجاً يمكن أن يأتي ويسكن معهما في نفس منزلهما.

وبرأيي أنّ هذا الحديث جعلني أعرف الكثر عن نوايا الأم. ولكنّ الاتجاه الذي أعطيته أنا نفسي للحديث جعلني أفوّت فرصة طيبة، كانت مناسبة جداً للتصريح برغبتي بطلب يد الفتاة. وفي نهاية الأمر، أصبح من المستحيل بالنسبة لي أن أقول كلمة واحدة عن مشاعري وعواطفي الخاصة. وعندما هدأت حدّة الحديث، اغتنمت هذه الفرصة للذهاب إلى غرفتي.

في بداية الحديث، عندما رويت ماقاله مازحاً رفيقي في المدرسة، كانت الفتاة تقف بجوارنا، وعند ذلك قالت ضاحكة:

ـ يمكن القول، مثلاً، أنّ هذه المزحة ثقيلة جداً!

ثم انحسبت بهدوء إلى احدى زوايا الغرفة وأدارت ظهرها نحونا. وإذ التفت قليلاً وأنا أهمّ بالنهوض، فلمحت قامتها. وبطبيعة الحال فانّ مشاعر الانسان وعواطفه لايمكن قراءتها على ظهره، وهكذا، فعن عواطفها هي، لم يكن لديّ أيّ معرفة أو دليل. كانت تجلس القرفصاء أمام خزانة فتح بابها قليلاً، وقد أخرجت منها قطعة من القماش وضعتها على ركبتيها. وهكذا فقد لمحت بوضوح، من خلال فتحة باب الخزانة قطعتي الحرير، اللتين اشتريناهما قبل يومين، احداهما لي والأخرى لها: كانت تلك القطعتان موضوعتين فوق بعضهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت أهمّ بالنهوض، عندما سألتني الأم فجأة بلهجة جادة:

ـ وأنت، مارأيك بذلك؟

ولأني فوجئت كثيراً بالسؤال، وباللهجة التي طرح بها، فقد كنت مضطراً، بالمقابل، للسؤال عن معنى هذا السؤال. عند ذلك قالت الأم موضحة ذلك:

ـ أتظن أنّ من الأفضل تزويجها بسرعة؟

فأجبتها أنّ من رأيي أنه من الأفضل عدم الاسراع بذلك أكثر من اللازم.

فقالت موافقة على رأيي:

ـ وأنا أظنّ ذلك أيضاً.

إلى هذا الحد كانت قد وصلت العلاقات بيني وبين الأم والفتاة، عندما فرضت عليّ الضرورة أن يتدخل بها رجل آخر. ولو لم نكن قد سكنّا أنا وهذا الرجل تحت نفس ذلك السقف، لكان كل مصيري قد تغيّر من جرّاء ذلك. ولو أنه لم يعبر حياتي، لما كان عليّ، دون أيّ شك، أن أكتب لك هذه الاعترفات، وأن أترك لك هذه الوصية. كنت أقف هناك، بكل سذاجة، دون أت أتبيّن أنّ الظل الذي سقط عليّ لم يكن سوى ظل الشيطان بالذات، ودون أن أدرك أنّ حياتي بكاملها سوف يكتنفها الظلام بسببه. وأنا مدين للحقيقة بالقول، بأني أنا، الذي فرضت ذلك الرجل على الأسرة وليس أيّ شخص آخر هو الذي فرضه على تلك الأسرة التي كنت أعيش معها. ولاشك أني لم يكن بامكاني الاستغناء عن موافقة الأم، وقد طلبت منها في الحال ودون أن أخفي عنها شيئاً، أن تلبّي رغبتي. وقد رفضت ذلك رفضاً قاطعاً في بداية الأمر. ولكن كان لديّ مبررات قوية لاحضار ذلك الرجل إلى قربي، بينما لم يكن لديها هي، أية مبررات، واضحة على الأقل، للمعارضة في ذلك. ولهذا فإني، رغم الجميع ورغم كل شيء، فعلت ماكنت أعتقد أنه من واجبي أن أفعله.

هذا الصديق، سأرمز إليه هنا بحرف «ك» وهو الحرف الأول في اسمه. «ك» وأنا كنا أصدقاء طفولة: أي، وربما تكون قد أدركت ذلك، أننا كنا من قرية واحدة. كان «ك» ابن راهب بوذي من طائفة «شن» التي تعتنق مذهب تمجيد الأجداد وقوى الطبيعة. لم يكن ابنه البكر، بل الثاني. ولذلك قبل والده أن يتبناه أحدهم. وهكذا فقد انتمى «ك» إلى أسرة أحد الأطباء. ولطائفة »شن» هذه، في بلادنا، نفوذ روحي عظيم، ويتمتع رهبانها بحظوة وامتيازات لايتمتع بها سواهم من رهبان الطوائف الأخرى: حتى من الناحية المادية. وإليك مثالاً على ذلك: عندما تبلغ ابنة أحد رهبان هذه الطائفة سنّ الزواج، يعقد أتباعه والمؤمنون، في منطقة خدمته «أبرشيته»، مؤتمراً يختارون لها خلاله أسرة مناسبة تدخل إليها بصفة زوجة لأحد أفراد هذه الأسرة، ومن المؤكد تماماً أنه لن يكون على الأب أن يهتم بأمر مهر العروس أو بجهازها. وباختصار، فانّ عناية المؤمنين ومساعداتهم، تجعل رهبان طائفة «شن» في بلادنا، يعيشون في بحبوحة تامة.

لم يكن اذن الأب الحقيقي لـ «ك» يشعر بالارتباك والصعوبات في سبيل تأمين معيشة أسرته. وهل كانت، مع ذلك، موارده لاتسمح له بأن يرسل ولده الثاني لاتمام دراسته في طوكيو؟ اني لست أدري، ولاأدري أيضاً فيما إذا كانت التسهيلات المتعلقة بالدراسة التي كان بامكان الأسرة الجديدة أتاحتها لولده قد دخلت في الحساب خلال المحادثات التي سبقت التبني. ولكنّ ذلك التبني قد تمّ، وكما ذكرت فانّ «ك» دخل في أسرة أحد الأطباء. كنا كلا الاثنين، هو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٠ -

دخلت أنا و«ك» الثانوية وانتسبنا سوية إلى نفس الفرع. كان «ك» ينفق بكل سلامة نيّة، النقود التي كان يرسلها له والده من أجل القيام بدراسة العلوم،على متابعة دراسة الآداب، وعن ذلك كان يقول بكل هدوء:

- لن يعرف أحد شيئاً عن هذا الأمر!

وكثيراً ماكان يضيف بجرأة شديدة:

- وحتى لو علموا بذلك، فماذا ترى أنّ ذلك سيؤثر عليّ؟!

الهدوء والجرأة، تلك كانتا تماماً، هما الصفتان اللتان لم أكن أستطيع منع نفسي من أن أرى «ك» من خلالهما. ومن الاثنين، كنت أنا الذي أشعر بمزيد من القلق.

وبنهاية العام الدراسي الأول، لم يرجع «ك» إلى القرية. فقد اتخذ له غرفة، لكي يدرس، على حد قوله، في معبد «كوماجومي». والواقع أني وجدته، عند عودتي في مطلع شهر أيلول، وقد حبس نفسه في ذلك المعبد الشديد القذارة، قرب تمثال «كانّون» العظيمة. وكان يقيم هناك في غرفة ضيقة مظلمة، هي أشبه بالزنزانة، في حالة بائسة تدعو إلى الشفقة، وكانت تلك الغرفة تقع بالقرب من المبنى الرئيسي. ولكنه كان قد استطاع العمل فيها كما يحلو له، وقد بدا لي مسروراً وراضياً عن ذلك. وكان يبدو لي، أنا، أني أجد بهذا السلوك الدليل على أنّ حياته تتجه خطوة فخطوة إلى حالة الرهبنة التامة. كان يحمل في يده مسبحة. وعندما سألته عما كان يفعل بها، اكتفى بابداء حركة بابهامه

لعدّ حباتها. وكل يوم، كان عليه أن يعدّ هكذا، مرات عديدة حبات مسبحته. ولكني لم أكن لأستطيع ادراك مغزى ذلك العمل. تعداد حبات صغيرة، شكّت بخيط على شكل دائرة، وتعدادها حبة فحبة، دون انقطاع! ومهما درنا طويلاً في تلك الدائرة، أين نجد النهاية؟ أين، التقدم؟ ومتى، وأين، سيصحو «ك» ويخرج من دنيا أحلامه لكي يكفّ عن ذلك التعداد لحبات المسبحة الذي يدعو إلى اليأس؟ لم يكن لقصة المسبحة هذه، أية أهمية أخرى، ولكني مع ذلك مازلت أفكر فيها في كثير من الأحيان.

كذلك، فقد رأيت في غرفة «ك» نسخة من كتاب التوراة. كان حتى ذلك الحين قد حدّثني كثيراً عن كتب البوذية المقدسة. ولكننا لم نكن قد تحدّثنا بعد، أبداً عن المسيحية. ولذلك ذهلت للمفاجأة، ولم أستطع أن أمتنع عن سؤاله عن سبب قراءته لهذا الكتاب، فأجابني قائلاً:

- السبب؟ ليس هنالك أيّ سبب!

ثم أضاف بعد برهة، قائلاً:

- انّ كتاباً كهذا يحظى بقدر كبير من التقدير، من الطبيعي جداً قراءته! وأضاف قائلاً أنه لو أتحيت له الفرصة، لكان قرأ القرآن بكل رغبة وطيبة خاطر. وكانت عبارة «القرآن أو السيف»! تحظى لديه بأعلى درجة من الاهتمام.

وفي الصيف الثاني، عاد «ك» إلى القرية، بناء على طلب الأسرة التي تبنته. ويبدو أنه قد امتنع عن التحدث بأي شيء عن دراسته، ولذلك فانّ أسرته لم تلاحظ شيئاً. وأنت الذي لدبك بعض الخبرة والمعرفة بالأمور المدرسية، سوف توافق معي بالتأكيد عندما ألاحظ أنّ عامة الناس تجهل كل شيء يتعلق بالطلاب وبالدراسة. بالنسبة لنا، فانّ ذلك في غاية البساطة، ولكنّ بقية الناس تجهل أبسط المعلومات عن هذه الأمور. ولأننا نحن، لانتنفس الاّ هواء قاعات الدروس، فاننا نتصوّر بمزيد من السرعة أنّ ذلك الجوّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معروف تماماً بكل مايحويه من أموركبيرة أو صغيرة من قبل كل الناس ومن العالم بكامله: وهذا خطأ كبير. ومن وجهة النظر هذه، كان لدى «ك» خبرة أكيدة تفوق خبرتي بعامة الناس من بني البشر. وعندما كان يعود إلى طوكيو، كانت تبدو على وجهه أمارات الغبطة وراحة البال. كنا نعود سوية بنفس القطار. ولانكاد نستقر في مكاننا في احدى حافلات القطار، حتى كنت أسأل «ك» بقلق:

- قل لي، كيف سارت الأمور؟

فكان يجيبني:

- لم يكن وارداً حتى بحث الموضوع!

وفي الصيف الثالث، ذلك الصيف الذي كنت مع قدومه، سأهجر، نهائياً ويا للأسف، الأرض التي تضم رفات والديّ، حاولت اقناع «ك» أن يعود معي ويقضي الصيف مع أسرته. فرفض ذلك، قائلاً:

- وما هي الفائدة من العودة هكذا كل سنة إلى القرية؟

كان يريد البقاء في طوكيو كي يدرس هناك. ولأني لم أتمكن من اصطحابه معي، فقد سلمت بذلك، وقنعت بالسفر بمفردي. أما كيف كان هذان الشهران اللذان حدّدا مستقبلي واللذان قضيتهما في مسقط رأسي، وكم كانت صاخبة تلك الاضطرابات التي عشتها خلال ذلك، فقد حدّثتك عن هذا ولن أعود لتكراره مرّة أخرى. أخيراً، وبعد أن طفحت روحي بالغم، وبالكآبة، وبذلك الأسى الذي تولّده الوحدة، عدت في شهر أيلول، والتقيت بـ«ك». ولكنّ مصيره هو أيضاً، كان قد تغير لتوّه. فقد كتب، بدون علمي، إلى والده بالتبني، وبذلك كشف غشه وخداعه. وهذا التصرّف، كان قد قرّر القيام به سابقاً، منذ اليوم الأول الذي كذب فيه. لأنه ربما كان يأمل أنه، أمام الأمر الواقع، الآن وبعد فوات الأوان من أجل اجراء أيّ تغيير، ربما يستطيع أن يجعل أسرته تنحني أمام رغبته

وتتركه يسير في الطريق الذي اختاره. والأمر المؤكد، هو أنه لم يكن في نيته أن يستمرّ في خداع أسرته بعد أن يدخل الجامعة. ومع ذلك، فانه لو أراد ذلك لما استطاع أبداً أن يأمل أنّ بامكانه اخفاء الحقيقة لزمن طويل بعد ذلك. فهل أدرك هذا الأمر؟ انّ هذا ممكن جداً.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢١ -

عندما تلقّى والد «ك» بالتبني الرسالة استشاط غضباً. وردّ عليه برجوع البريد أنه لن يرسل بعد الآن أية مساعدة إلى الشخص الفاسد الذي خدع أهله بهذا الشكل. وأطلعني «ك» على تلك الرسالة. وفي نفس الوقت تقريباً، وصلته رسالة ثانية، وكانت هذه من والده الحقيقي، فأطلعني «ك» عليها أيضاً. ولم يكن اللوم والتوبيخ فيها أقل قسوة مما حوته الرسالة الأولى. وهذا الأمر يمكن فهمه بسهولة، لأنّ الأب الحقيقي كان عليه حيال الأب المتبني واجب التضامن الأخلاقي الذي لايستطيع نكرانه. ولذلك دون شك، فقد أعلم ابنه بأنه لن يكون بامكانه بعد الآن، هو أيضاً مساعدته بأي شيء.كان ذلك حدثاً خطيراً بالنسبة لـ «ك». فهل سيطلب بعد الغاء تبنيه، الانضمام ثانية بصورة رسمية إلى أسرته الحقيقية، أم أنه، دون اللجوء إلى هذا التطرّف، سوف يحاول اجراء تسوية ومصالحة مع أسرته المتبنّية؟ السؤال يمكن أن يطرح مستقبلاً، ولكنّ الأمر الملحّ، كان بالنسبة له، هو أن يجد وسيلة يكسب بها معيشته.

وسألت «ك»:

- وهل لديك فكرة بشأن ذلك؟

- أوه، سأبحث عن دروس في احدى المدارس المسائية!

كان ايجاد عمل اضافي في ذلك الزمن، أسهل من اليوم، بل أسهل بكثير ممّا يمكن أن تظن: وكان يحدوني الأمل أنّ «ك» سوف يحل مشكلته بهذه الطريقة. ولكني كنت ملتزماً بالمسؤولية نحوه. إذ أنّ «ك» عندما خالف رغبة والده

بالتبني، وانطلق في طريقه الذي اختاره هو، كنت أنا قد شجّعته على ذلك. إذ لم يكن يجدر بي أن أقف واضعاً يديّ في جيوبي، قائلاً له دون مبالاة: «آه، ماهذا؟» وفي الحال، عرضت المساعدة على «ك». ولكنه، من جهته، رفض تلك المساعدة رفضاً قاطعاً وبلهجة لاتقبل الجدل. كانت معرفتي التامة بطباعه تجعلني متأكداً سلفاً بأنه يفضل أن يكسب معيشته هو بنفسه، بدلاً من أن يضع نفسه تحت حماية أيّ كائن كان، حتى ولو كان أحد أصدقائه. وكان مما قاله لي:

- انّ المرء إذا لم يكن جديراً بأن يكسب معيشته حالما يدخل الجامعة، فانه لايكون رجلاً!

ولم يكن بامكاني أن أجرح بعمق شعور «ك»، بحجة القيام بواجبي: ولذلك اكتفيت بتركه يتصرف كما يحلو له، دون أن أتدّخل كثيراً بشؤونه الخاصة.

لم يمض وقت طويل حتى وجد «ك» العمل الذي كان يرغب الحصول عليه. ولكنه وهو الذي كان ذلك الضنين بوقته والحريص عليه، فلا حاجة للقول بأنّ ذلك العمل كان ثقيل الوطأة عليه. ومع ذلك، فانه كان يتابع مسيرته بنشاط حاملاً عبأه الجديد دون أن تفتر عزيمته أو يهمل شيئاً من دراسته. كنت أبدي قلقي بشأن صحته. ولكنه، وهو الدؤوب الجمّ النشاط، لم يكن يفعل شيئاً سوى الضحك من مخاوفي، دون أن يحاول حتى الاصغاء إلى ماكنت أقوله.

وكانت علاقاته مع والده المتبني، أثناء ذلك تتعقّد أكثر فأكثر. ولم يكن قد بقي لديه بعد ذلك وقت يضيعه، ولاشك أني في تلك الفترة لم أكن أراه كثيراً كما في السابق، كي أكون مطلعاً على كل التفاصيل: ولكني كنت أعلم أنّ المصالحة كانت تبدو أكثر صعوبة كل يوم. وكان أحد الوسطاء قد تدخل في الموضوع: ولكنه عندما طلب من «ك» أن يعود لكي يشرح موقفه، رفض «ك» العودة. وكان التبرير الذي قدّمه هو أنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يستطيع أن يترك الدورس أثناء العام الدراسي. ولكنّ هذا التبريرلم يرونه في القرية الاّ دليلاً على العناد الشديد، الأمر الذي جعل القضية تسوء وتزداد تعقيداً: وهكذا فان «ك» قد أغاظ أسرتيه في وقت واحد. وقلقت كثيراً بسبب ذلك، فكتبت للأبين. ولكن دون جدوى، إذ أني لم أتلق أيّ جواب، وقد دفنت رسائلي هناك. عند ذلك صممت أنا أيضاً على التوقف عند هذا الحد. كانت حتى ذلك الحين طبيعةالأمور وقوتها هي التي تحدّد موقفي حيال «ك». أما من الآن فصاعداً، وبصرف النظر عن أيّ اعتبار للمبادىء، فقد قرّرت أن أتضامن معه تضامناً تاماً، وأن أقدّم له، من تلقاء نفسي، كل الدعم الذي أستطيع تقديمه.

وقد انتهى بهم الأمر، في القرية، إلى أن يقرروا اعادة «ك» للانضمام إلى أسرته الحقيقية، على أن تتعهد بأن تسدّد للأب المتبني المبالغ التي أنفقها. ولكنّ عدم اهتمام والده الحقيقي به، جعله يظل بعد ذلك مستسلماً للاعتماد على نفسه: خاصة وأنّ ذلك لم يكن خافياً عليه. وللتحدّث بلغة اليابان القديمة، فإنّ وضعه كان تقريباً، كما لو أنه قد طرد من بيت والديه. وربما لم يكن الأمر قد بلغ ذلك الحدّ: ولكنّ «ك» كان يعتبره هكذا. والشيء الأساسي في ذلك هو أنّ «ك» كانت تعوزه الأم التي كان قد فقدها منذ طفولته المبكرة. وأعتقد أن جانباً هاماً من طباعه قد تكوّن لديه من كون زوجة أبيه هي التي أشرفت على تربيته. وبتصوّري، لو أنّ أمه ظلت على قيد الحياة، لما تركت مثل هذه الهوة تتعمق بين الأب وابنه. ومن جهة أخرى، لم يكن بامكاني، عندما أفكر في ذلك، الاّ أن آخذ بعين الاعتبار أيضاً طباع الأب نفسها: فقد كان بطبعه راهباً بوذياً، ولاأرى بأساً بذلك. ولكنه فيما يتعلق بتفسيره المتزمت للالتزام الأخلاقي، كان يبدو، في كثير من الأمور، فارساً، أكثر منه راهباً بوذياً.

- ٢٢ -

بعد أن بلغت قضية «ك» بهذا الشكل، وضعا مستقراً توقفت عنده، تلقيت رسالة مطوّلة من زوج شقيقته الكبرى. وكان صهره هذا، يمتّ بصلة القرابة أيضاً إلى أسرة الطبيب الذي كان قد تبنى «ك». ولذلك فانه كان قد قام بدور الوسيط من أجل التبني، كما قام أيضاً بنفس الدور في سبيل العودة إلى الأسرة الحقيقية. وكان «ك» قد قال لي أنّ آراءه كان لها وزنها.

كانت تلك الرسالة تطلب مني بعض أخبار «ك»: كيف كان يعيش منذ أن قطع صلاته مع أهله؟ فقد كانت أخته الكبرى قلقة جداً بسبب ذلك، وكان زوجها يرجوني أن أبعث له بالجواب على وجه السرعة. كان «ك» مايزال يحب هذه الأخت أكثر مما كان يحبها أخوه الأكبر الذي خلف والده بالقيام بمهمة خدمة المعبد، وقد ظل يكنّ لها هذه المحبة حتى بعد زواجها وابتعادها عنه. كان الأخوة الثلاثة من نفس الأم. ولكن كان بين «ك» وأخته الكبرى فارق كبير بالسن: وعندما كان لايزال طفلاً، كانت هي التي قامت بدور الأم الثانية بالنسبة له، أكثر مما قامت به زوجة أبيه.

أطلعت «ك» على تلك الرسالة، فاكتفى بالقول بأنه، هو أيضاً، كان قد تلقى من أخته رسالتين أو ثلاث تنمّان عن القلق الشديد: وفي كل مرّة كان يرد عليها بالقول أنّه ليس هنالك أبداً مايبرر قلقها من أجله إلى هذه الدرجة. ولأنّ الأسرة التي انضمّت إليها أخته كانت فقيرة، فلم يكن بامكان هذه الأخت، مهما بلغت درجة حنانها وعطفها على أخيها أن تطلب من زوجها أن يساعده بشيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأرسلت إلى ذلك الصهر جواباً يكاد يكون نفس الجواب الذي أرسله «ك» إلى شقيقته. ولكني أضفت أني سأقوم بعمل كل ماهو ضروري، عند الحاجة، ولذلك فبامكانهم أن يكونوا مطمئنين. وقد أكدت على ذلك بكلمات واضحة، كما أوضحت بشكل خاص أني كنت قد اتخذت هذا القرار من تلقاء نفسي، وبشكل عفوي تماماً. وقد أردت، دون شك، تطمين تلك الأخت الكبرى على مستقبل أخيها. ولكني، بنفس الوقت، لم أكن أستطيع نسيان الاهانةالتي وجهتها لي العائلتان بعدم اجابتهما على رسائلي السابقة، ولم أكن مستاء من اعطائهما هذا الدرس.

عندما أعيد «ك» للانضمام إلى أسرته الأصلية، كان لايزال في سنته الجامعية الأولى. وحتى مايقرب من منتصف السنة الثانية، أي خلال عام ونصف تقريباً، كان يؤمّن معيشته الخاصة بوسائله الخاصّة. ولكن كان الاعياء قد أخذ يؤثّر عليه شيئاً فشيئاً: وقد ظهر ذلك على صحته،على معنوياته وعلى حالته النفسية. كما أن الصعوبات والمتاعب التي استمرت زمناً طويلاً بينه وبين الأسرة التي تبنته،من أجل تسوية وضعه، كان لها، على ماأعتقد، بعض التأثير على حالته. وعلى أية حال، فانّ عواطفه ومشاعره كانت تتحوّل إلى الكآبة والسوداوية. وكان يعلن أحياناً بملء صوته أنه ليس هنالك أحد يعاني من البؤس ومن المصائب التي انتابته هو، وأنّ عليه أن يتحمّل تبعاتها عن العالم بكامله: وإذا لفت نظره أحدهم إلى شقاء ومصائب الآخرين، كان ينفجر غاضباً. ثم، بعد أن أخذ يرى أحلام مستقبله الجميلة، تبتعد عنه، الواحد بعد الآخر، كانت تنتابه العصبية. ومع ذلك، فانها لتجربة شائعة ومألوفة: فكل شاب يكون لديه عند بداية دراسته آمال عريضة، ويكون عند انطلاقه كمن يتأهب للقيام برحلة جميلة. ويمرّ عام وعامان. ويقترب موعد الفحوص الأخيرة. ويشعر الشاب ببطء سيره، فيستولي

عليه اليأس. ومرّة أخرى، فهذه أيضاً تجربة عادية وكثيراً ماتحدث، وكانت ردود فعل «ك» مشروعة. وكل ماهنالك أنها كانت تتّصف بحدّة ونزق شديدين. وقد ظننت أنّ واجبي الأول هو أن أهدّيء روع صديقي وأعيد له هدوءه.

فذكرت له أولاً أنّ عليه أن يترك في الحال أيّ عمل اضافي، وأن يستعيد حريته لبعض الوقت على الأقل، كي يستطيع التسلية واللهو: فعلى هذه الراحة يتوقّف مستقبله. ولكنّ «ك» كان عنيداً، ولم يوافق على ذلك. وهذا ماكنت أتوقعه. ولكن بعد أن أحرجت هكذا وبدا لي أنه من الصعب عليّ أن أقرّر شيئاً أو أتّخذ موقفاً، بدت لي المهمة تدعو إلى اليأس أيضاً أكثر مما كنت أظن، إذ أني كلما حدّثته عن ذلك كان يجيبني دائماً:

- هيّا، أيمكن أن تعتقد أنّ دراستي هي الهدف الوحيد الذي أسعى لتحقيقه!؟ انّ هدفي هو تقوية ارادتي، وأن أصبح رجلاً، ورجلاً حقيقياً! ومن أجل ذلك، كما تعلم، لاشيء يحقّق ذلك مثل بحث المرء بنفسه عن أقسى مايمكن من الصدمات!

كان ذلك جنوناً مطبقاً، بنظر أبسط منطق وتفكير سليم. وعلاوة على ذلك فقد أثبتت التجربة أنه كان أبعد مايكون عن تقوية ارادته، وأنّ كلّ ماعمله بدلاً عن ذلك، أنه حطم أعصابه بذلك التصرف. ولكني، أنا، كنت قد فشلت، ولذلك غيّرت خطتي وطريقتي في العمل. وتظاهرت بأنه قد أقنعني وعبّرت له عن رغبتي بأن أتبنى، أنا أيضاً، من الآن فصاعداً نفس المثل الأعلى، وأن أسير على نفس الدرب. والحق يقال، أنّ هذا لم يكن كذباً كله: هكذا كانت قوة الاقناع لدى «ك» لدرجة أنّ المرء يشعر عند الاستماع إليه، أنه منجذب رغماً عنه إلى مشاركته الاقتناع بما يقتنع به هو نفسه. ومهما كان الأمر في ذلك، فقد توصّلت أخيراً إلى اقناعه بأن يأتي ويسكن معي كي يرشدني للسير على دروب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأمور النفسية والروحية. وهكذا، فبعد أن ذهب بي الأمر إلى حد الركوع أمامه كي أثنيه عن عناده، ويعلم الله بعد أية جهود توصلت أخيراً إلى اقناعه بأن يأتي ليعيش بقربي.

كان هنالك غرفة صغيرة ملحقة، كما يقال، بغرفتي. وعندما كان أحد يأتي من المدخل، فلكي يصل إلى غرفتي يجب أن يمر بهذه الغرفة. وهذا ماكان يجعل الاقامة فيها غير مريحة. ولكن لعدم وجود مكان أفضل، فقد جعلت «ك» يقيم فيها. كانت الفكرة الأولى التي راودتني هي أن أتقاسم معه غرفتي، وأن نحتفظ، لنا نحن الاثنين، بحرية التصرف بالغرفة المجاورة: ولكن رغم كونها ضيقة جداً، فان «ك» فضّل أن تكون له غرفته الخاصة به، وكان هو نفسه الذي قرّر هذا الحل.

وكما سبق لي أن قلت فانّ صاحبة البيت لم تكن قد أعطت في الحال موافقتها، فقد قالت لي:

- لو أني كنت أدير نزلا حقيقياً، لكان يناسبني أن يزداد عددكم: فاثنان أفضل من واحد، وثلاثة أفضل من اثنين. ولكني لاأعتبر ذلك قضية عمل. وإذا كان بامكانك الاستغناء عن احضار صديقك إلى هنا، فانّ ذلك يكون من دواعي سروري!

- ولكنه خفيف الظل، ومتطلباته قليلة جداً، أرجو أن تعلمي ذلك!

- ليست هذه هي المسألة. كونه ثقيل الظل، كثير المطالب أم لا، فأنا أجهل كل شيء عنه، أما اسكانه في منزلي، فأنا لاأرى ذلك الاّ سبباً للازعاج والمضايقات!

- ولكني أنا أيضاً لم أسكن هذا البيت منذ الأزل، وفي أول الأمر لم تكوني تعرفين شيئاً عني، على حد علمي!

- بالنسبة لك، الأمر يختلف: إذ أني منذ اليوم الأول عرفتك جيداً، وعرفت مع من أتعامل!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التغلب على مقاومة الأم. أمّا «ك» فقد كتمت عنه كل هذه المداولات، من البداية وحتى النهاية: وكنت أشعر بسرور حقيقي من جرّاء تصرّفي على هذا النحو. وانتقل «ك» ذات يوم إلى المنزل، وكأن شيئاً من كل ذلك لم يكن، واستقبلته أنا بنفس الوجه الباشّ، الذي كنت ألقاه به على الدوام.

وساعدته الأم وابنتها بكل مودّة على فتح حقائبه وفك أمتعته. وكنت أعرف أنّ ذلك لم يكن سوى ملاطفة من قبلهما موجهة لي أنا، وهذا ماجعلني أشعر بسعادة كبيرة. أما «ك»، من جهته، فكان يبدو لامبالياً بشيء كما هي عادته دائماً.

وعندما سألته كيف يرى مسكنه الجديد، اكتفى بالقول:

- لابأس به!

ولو سمح لي بقول شيء لقلت أني كنت أتوقّع منه أفضل من هذه الـ«لابأس»! إذ أنّ «ك» لم يكن حتى ذلك الحين قد استطاع الحصول الاّ على غرفة قذرة، موجّهة نحوالشمال، رطبة تنبعث منها رائحة العفونة. أمّا غذاؤه فلم يكن أفضل حالاً من ذلك أبداً. وكان انتقاله إلى المنزل الذي كنت أقيم فيه، بالنسبة له، كما لو أنه نقل إلى قمة عالية، بعد أن غادر قاع أحد الوديان المظلمة. أمّا هو، فمع ذلك لم يكن يبدو عليه أنه يتبيّن لكل هذا أية قيمة. انه عناد ينم عن الكبرياء، دون أي شك. ولكن المسألة، على الخصوص، مسألة مباديء. أذ أنه وهو المعتنق للعقيدة البوذية، فقد كان في نظره، اللباس والغذاء والسكن، أمور محتقرة. وكان مجرّد اعارتها أقل اهتمام يشكل خطيئة كبرى. ولكونه كان يعيش من جديد، خلال مطالعاته، حياة كبار الرهبان البوذيين، وتلامذة السيد المسيح، فقد نشأ لديه مايشبه الهاجس بأنه لم يعمل مافيه الكفاية لكي يفصل في ذاته بين الروح والجسد. ولو أنه ذهب حتى إلى حد التأكد والاقتناع بأنه انما يمكن أن تستنير الروح عن طريق جلد الجسد بالسوط، لما أقسمت على عكس ذلك.

وتحاشيت عمل أيّ شيء يمكن أن يشكل صدمة مباشرة لمعتقداته. وكل ماهنالك أني نويت أن أعرّض إلى الشمس تلك الكتلة المتجمّدة، آملاً أنها يمكن أن تذوب وتتحوّل إلى مياه دافئة. قائلاً في نفسي، انه، عند ذلك، سوف يفهم من تلقاء نفسه.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٤ -

ومن جهتي أنا، فقد كان الرفق الذي عاملتني به السيدة صاحبة المنزل، هوالذي أعاد لي، مع مرور الأيام، البهجة. وأردت اجراء نفس التجربة مع «ك». ولمعرفتي به منذ زمن طويل، فاني كنت أعرف، دون شك، كم هي مختلفة طباعنا.وفوق ذلك، فاني لاحظت، منذ دخولي إلى هذا المنزل، أنّ ماكان في طباعي من عيوب أخذت تزول كلها، الواحد بعد الآخر. وكنت أظن أن ليس هنالك أيّ سبب يمنع الجو الذي يسود هذا المنزل، من أن يضفي، عاجلاً أم آجلاً، على قلب «ك» السكينة الكبرى التي كان بحاجة لها.

كان «ك» رجلاً أكثر مني وضوحاً في توجّهاته. ليس لأنه كان يكّرس للدراسة ضعف الوقت الذي كنت أنا نفسي أكرّسه لها فحسب، بل انّ ذكاءه الطبيعي كان يفوق ذكائي بكثير. كنا قد التحقنا باختصاصين مختلفين في الجامعة، ولذلك كان يصعب اجراء التصنيف والمقارنة بيننا: ولكن في المدرسة الثانوية وفي المعهد العالي، حيث كنا في نفس الصفوف، كان «ك» يتقدّمني دائماً. حتى أني، كنت أعتبر دائماً، من تلقاء نفسي، وأيا كانت درجة النشاط المطلوب، وجود استحالة تامة بيني حيثما كنت وبين اللحاق به. ومع ذلك فاني عندما نجحت باحضاره إلى المنزل الذي كنت أقيم فيه، حصل لديّ انطباع بوجود زاوية كنت أحكم من خلالها على الأمور ببصيرة وبعد نظر أكثر منه. ولو سمح لي التعبير عن رأيي لقلت أن «ك» لم يكن يتبيّن الهوةالتي تفصل بين القدرة على التحمّل وبين الصبر. ولكن من أجل أسلوب السلوك الذي يجب أن تتّبعه، سأركّز قليلاً على هذه

النقطة، وأسترعي انتباهك إلى ذلك. وأليك ماأقصده: الوظائف الفيزيولوجية أوالوظائف الأخلاقية والنفسية، كل وظائفنا الداخلية مرتبطة بالتحريض الذي يأتيها من الخارج. وإنما هذا التحريض الخارجي الذي يظل باستمرار على وتيرة واحدة ومساوياً لنفسه، يبطل مفعوله كمحرّض، عند ذلك تنشأ ضرورة بالنسبة للوظيفة لتلقّي تحريض تتزايد قوّته.ولكن هنالك ضرورة أخرى ألا وهي اقامة توازن متناسق بين التحريض والوظيفة: والاّ فانّ الشخص، حتى وان كان دون علمه، ودون علم ذويه، يتعرّض عند ذلك لخطر جسيم. وهذا هو بالأساس مايقصده الأطباء عندما يحذّرونك ممّا يسمّونه «خيانات» المعدة: إذ لو أنك اعتدت أن تقتصر كل وجبة من وجباتك على شوربة الرز، عندئذ، بعد وقت معيّن، وحتى دون أن تشعر بذلك، تصبح معدتك بحالة تجعلها ترفض هضم الأطعمة الأكثر صلابة، هذا مايقوله الأطباء، ولذلك فهم ينصحون بوجوب التدرّب باستمرار على تناول أكثر الأطعمة تنوّعاً، بقدرالامكان. هل يعني ذلك أنه يجب تعويد المعدة بصورة منتظمة على تقبّل كميات متزايدة دائماً من الأطعمة؟ كلا انّ الأطباء لايقولون ذلك. فالمسألة ليست مسألة كمية، بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل مسألة توازن بين التحريض والوظيفة، أي تزايد التحريض بشكل مناسب وسليم لاثارة الوظيفة بشكل مناسب وسليم. ومن السهل فهم هذا الأمر. ولنفترض، فعلاً، أنّ معدة تتناقص مقاومتها بينما تزاد حصتها من المأكولات، فماذا سيحدث لهذه المعدة البائسة؟ هذا المثال يوضح جيداً كيف يجب أن نفسّر توصية الأطباء بتنويع الأطعمة. وبهذه الأدلة والحجج، انما أردت أن أجعلكم ترون بأم العين كيف أنّ «ك» كان بمعنى من المعاني، أقلّ نفاذ بصيرة مني، وان كان يفوقني بقوة روحه المعنوية. كان المحرّض بالنسبة لـ«ك» هو الصعوبة. ولكنّ الأمر الذي كان يخطيء فيه «ك» هو اعتقاده أنّ بامكانه التغلب على الصعوبة بقوةالعادة وحدها. فقد كانت لديه القناعة بأنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تجربتي أنا، وكم كان شاقاً ومؤلماً بالنسبة لي الشعور بوحدتي. فهل كان بامكاني أن أجازف وأضع هذا الصديق الذي كان عزيزاً عليّ، في نفس هذا الوضع يعاني الشدّة والضيق؟ ماذا قلت، أضعه في نفس الشدة والضيق: كان ذلك يعني أني أدفعه، بيديّ أنا، إلى وضع من الضيق والشدّة أسوأ بكثير أيضاً. ولذلك فاني، حتى بعد أن بدأت حياتنا المشتركة، اتخذت لنفسي، لبعض الوقت على الأقل، قاعدة تقضي بأن أتحاشى أن أوجه له أيّ نقد يمكن أن يبدو له لاذعاً ومزعجاً أكثر ممّا ينبغي. وكنت أعهد إلى ذلك الجو الهادىء بأمر العناية بتهدئته وبعث الاطمئنان في نفسه، دون شعور منه بذلك.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٥ -

طلبت من السيدة صاحبة المنزل ومن ابنتها، بشكل سرّي، أن تتحدّثا إلى «ك» كلما أمكنهما ذلك. فقد كان، باعتقادي، ذلك الصمت المطبق الذي فرضه على نفسه، هو الذي أضرّ به وأساء إليه كثيراً. فكما تصدأ قطعة من حديد أهملت ولم تستخدم لشيء، هكذا كان قلبه قد اعتراه الصدأ: كانت هذه الصورة تفرض نفسها عليّ. وأجابتني الأم على طلبي ضاحكة:

– ولكنه مخلوق لايعرف المرء بالحقيقة كيف يتعامل معه ولامن أيّ جانب يمسك به.

أمّا الفتاة فقالت كي تشرح لي ماكانت أمّها تقصده:

– أنت، مثلاً، تسأله عمّا إذا كان لايزال يوجد نار في موقده. فيجيبك: «كلاّ». فتعرض عليه أن تأتيه ببعض الفحم لاضرام النار وزيادة اشتعالها. ولكنه يجيبك: «لاحاجة لذلك». فتبدي حينئذ القلق من أن يصاب بالبرد، فيردّ قائلاً: «اني أشعر بالبرد، ولكني لاأريد فحما». وبمثل هذه الطريقة يتهرّب من أيّ حديث. فما العمل؟

الضحك كان سهلاً. ولكني بالحقيقة لم يكن بامكاني ترك الأمور على هذه الحالة. فهذا الوضع لم يكن مقبولاً بالنسبة للمرأتين، وكان يجب معالجة الأمر. أعرف جيداً أننا كنا في فصل الربيع وأنّ «ك» ربما كان لديه العذر لكونه أراد القول أنّ الموقد لم يكن ضرورياً جداً بالنسبة له. ومهما كان الأمر بشأنه، فلم يكن هنالك شك بأنه كان رجلاً يصعب التعامل معه.

ولذلك كنت، وكأني أقف في الوسط، أحاول جمع المرأتين و«ك» في دائرة واحدة. فإذا كنت أتحدّث مع «ك» أعمد في الحال إلى استدعاء المرأتين. وإذا ذهبت لتبادل الحديث مع المرأتين، كنت أبحث عن «ك» لمرافقتي.وباختصار لم تكن تفوتني أية فرصة لتقريبهم من بعضهم. ولاحاجة للقول أنّ هذا الأسلوب لم يكن يروق كثيراً لـ«ك». ولذلك فانه أحياناً كان ينهض وينصرف دون أيّ اعتذار. أو أنه كان يمتنع عن الحضور عندما كنت أناديه، ويقول لي:

– أيّة متعة يمكن أن يجدها المرء في الثرثرة بهذا الشكل؟؟

وحيال هذا السؤال لم يكن يسعني الاّ الضحك. ولكن، في قرارة نفسي، كان لديّ شعور واضح بأنّ «ك» كان يحتقرني.

وربما كنت، بمعنى من المعاني، أستحقّ هذا الاحتقار. لقد كان أفقي، بلاشك، أقل سعة وعلواً من أفق «ك» أنا لاأنكر ذلك. ولكنّ ابقاء العينين مثبّتتين إلى السماء دون رؤية أيّ شيء ممّا يحدث في الأسفل، أليس ذلك عجزاً؟ وبهذا الخصوص، كان الأمر الهام قبل كل شيء، باعتقادي، هو جعله انسانياً. فمهما كانت ذاكرته ذاخرة بالصور العظيمة، ماجدوى ذلك إذا لم يصبح هو نفسه رجلاً عظيماً؟ كانت هذه الفكرة تبدو لي كحقيقة واضحة. ولجعله انسانياً، كانت الوسيلة الأولى، برأيي، هي أن نجعله يجلس بين النساء. وحالما يغمره ذلك الجو الذي تعرف النساء وحدهن خلقه، فانّ دمه الملوّث سوف يتجدّد من تلقاء نفسه.

وبدأت التجربة بداية حسنة. فما كان يبدو متمرّداً وجامداً أخذ يبدو وكأنه بدأ يذوب شيئاً فشيئاً. وأخذ «ك» يدرك أنّ خارج ذاته يوجد عالم آخر. وذات يوم أسرّ لي قائلاً أنّ المرأة، بعد كل شيء، ليست كائناً يستحقّ الاحتقار إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه الدرجة. وكان في البداية، يبدو أنه يتطلّب من المرأة نفس درجة المعرفة والذكاء التي اعتاد أن يجدها لديّ. وعندما كانت المرأة تخيّب أمله في هذا الأمر، كنا نشعر أنه يكّن لها مايشبه الاحتقار. ودون أن يترك مجالاً، هو نفسه، للمرأة أن تدنو منه أو تتناوله، كان يلقي على الكون، بما فيه من رجال ونساء دون تمييز، نفس النظرة على حدّ سواء. ولكنه أخذ يتغيّر. وعندما قلت له أنّ تبادل أفكارنا، وحدنا نحن الاثنين، كرجلين، لانستطيع التقدّم الاّ في اتجاه واحد، بينما يفوتنا ادراك بقية الناس في العالم، قال لي

- هذا صحيح!

وأنا، عندما كنت أتحدّث عن بقية الناس، فانما كنت أفكر بفتاة أحلامي. ولكني لم أبح بشيء من سرّي لـ«ك».

وحتى ذلك الحين، كان «ك» قد بنى من كتبه قلعة، وحبس قلبه في داخلها. أمّا الآن، فقد بدا أنّ هذا القلب قد أخذ ينفتح. وكانت هذه أكبر فرحة يمكن أن أتوقّعها. ولم يكن لي سوى هذا الهدف، منذ أن قررت احضار «ك» للسكن معي: وعندما رأيت نجاحي وشيك التحقيق إلى هذه الدرجة لم أستطع الامتناع عن الفرح والابتهاج. وقد كتمت كل هذا عن «ك»، ولكني ذهبت وبحت به للمرأتين: فشاركتاني فرحتي.

* * *

- ٢٦ -

كُنا، أنا و«ك»، نتابع في كلية واحدة، دراسات مختلفة، لاتتزامن ساعات دروسها مع بعضها.ولذلك كنا لانذهب ولانعود في نفس الوقت. وعندما كنت أعود، إذا كان «ك» قد سبقني إلى البيت، كنت أكتفي بتحية موجزة. فكان عندئذ يقول وهو يرفع عينيه عن كتابه وفيها دائماً نفس النظرات:

- ها أنت قد عدت؟

فكنت تارة أردّ فقط بمجرّد ايماءة برأسي، وتارة كنت أقول:

- نعم!

وذات يوم، كان عليّ أن أذهب إلى مكان بعيد، فتأخرت، وعدت مسرعاً. وعندما وصلت إلى البيت، فتحت الباب الخارجي محدثاً ضجة قوية.وسمعت في تلك اللحظة صوت الفتاة. كان ذلك الصوت يبدو لي أنه صادر من غرفة «ك». كان هنالك الصالون على خط مستقيم، بالنسبة للقادم من المدخل، ثم غرفةالفتاة، وبعدها إلى اليسار، غرفة «ك»، ثم غرفتي: هكذا كان مخطط المنزل. وكنت قد اعتدت، بعد أن عشت فيه خلال شهور طويلة، على أن أعرف بسهولة وفي الحال أين يتكلمون، ومن هم المتكلمون. أغلقت الباب. فانقطع الصوت. وبدأت بخلع حذائي. ولكن لأني كنت قد أخذت أتّبع الزيّ الدارج «الموضة»، فقد كنت أنتعل حذاءً طويلاً برباط يطول أمر فكه، فأخذ ذلك مني بعض الوقت. وماعدت أسمع شيئاً. وبدا لي الأمر غريباً، ولكني قلت لنفسي ربما كنت مخطئاً. وذهبت كالعادة، إلى غرفة «ك»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأزحت الحاجز: كانت الفتاة و«ك» موجودين هناك، جالسين بكل هدوء. فقال لي «ك» كعادته:

– هاأنت قد عدت!

أمّا الفتاة فحيتني دون أن تنهض قائلة:

– سعيدة بعودتك!.

أكان ذلك مجرّد وهم؟ولكنّ تحيةالفتاة هذه بدت لي جافّة بعض الشيء. وخيّل لي أنّ لهجتها مختلفة عن نفس لهجتها السابقة. فقلت لها:

– وأين أمّك؟

ولم يكن لي أيّ قصد خاص بهذا السؤال. وكل ماهنالك أنّ البيت كان يبدو لي وقد خيّم عليه صمت غير اعتيادي، فأتتني تلك الكلمات عفو الخاطر.

وحقيقة الأمر، أنّ الأم كانت قد خرجت، بصحبة الخادمة، وتركت الفتاة وحدها مع «ك». وأطرقت برأسي وكأني استسلمت للتفكير: فمنذ سكنت هنا، وقد مضى على ذلك زمن طويل، لم يسبق للأم أن تركتني، أنا، ولامرّة واحدة، أنفرد بابنتها! وأخيراً سألتها:

– هل خرجت أمك لأمر ملحّ أو لقضاء حاجة عاجلة؟

فأخذت الفتاة تضحك. وشعرت بصدمة من جرّاء ذلك. فأنا لاأحب من المرأة أن تضحك في مثل هذه الحالة، وان كان الأمر والحق يقال، مألوفاً لدى كل الفتيات أن يضحكن لأتفه الأسباب، وأنّ ليس هنالك أيّ مبرر لكي تستثنى فتاة هذا البيت من ذلك. غير أنها عندما لاحظت استيائي، استعادت في الحال أسلوبها المعتاد وقالت لي بلهجة أكثر جدّية:

– كلا، لم يكن هنالك أمر ملحّ: كل ماهنالك أنها ذهبت لاحضار بعض الأشياء.

ولكوني لم أكن سوى نزيل في ذلك البيت، فلم يكن لي الحق أن أتمادى أكثر من ذلك.

لم يكد ينقضي الوقت الذي استبدلت خلاله ملابسي حتى كانت الأم والخادمة قد عادتا. ثم حان موعد العشاء، فالتقينا نحن الأربعة على نفس المائدة. كنت في بداية اقامتي في هذا البيت أعامل كضيف، وكانت الخادمة تحضر لي دائماً وجبات طعامي إلى غرفتي. ولكن مع مرور الزمن، أبطلنا هذه الطريقة الرسمية بعض الشيء، وأخذت أتناول وجباتي بصحبة المرأتين. وعندما أتى «ك» إلى هذا المنزل، استطعت الحصول، بعد الحاح شديد، على موافقتهما بأن يعامل بنفس الطريقة. ولهذه الغاية قدمت، كهدية لربّة البيت، مائدة خفيفة ذات قوائم يمكن طيّها. وهذا النوع من الموائد موجود الآن لدى كل الأسر. ولكن في الزمن الذي أتحدّث لك عنه، لم تكن قد جرت العادة بعد أن تجتمع الأسرة كلها، لتناول وجبات الطعام، حول مائدة واحدة: ولذلك كان عليّ أن أوصي نجاراً من «أوشانوميزو» لصنع مائدتنا المذكورة، وتحديد مقاييسها حسب فكرتي نجارا من «أوشانوميزو».

وعندما جلسنا حول المائدة، تحدّثت الأم موضحة أنّ بائع السمك لم يمرّ في موعده اليوم، ولذلك كان عليها أن تذهب مسرعة وتتجول في المدينة لشراء السمك وبقية المواد الغذائية. وفكرّت بأنّ الأمر طبيعي جداً، لأنها كان يجب عليها تحضير طعامنا ولابدّ أنّ هذه الفكرة قد بدت على ملامح وجهي إذ أنّ الفتاة، انفجرت ثانية، بضحكة قوية. ولكنها هذه المرّة، كفّت عن ذلك في الحال بعد أن وبّختها أمها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد ذلك بثمانية أيام، وبينما كنت أعبر غرفة «ك»، وجدته يتحدّث مرّة ثانية مع الفتاة. وماكادت تراني أدخل حتى أخذت تضحك. كان يجب عليّ أن أسألها عمّا تجد فيّ من مضحك إلى هذه الدرجة. ولكني اكتفيت بالذهاب مباشرة إلى غرفتي. أمّا «ك» الذي لم أقل له شيئاً عند دخولي، فقد امتنع هو أيضاً عن ترديد عبارته المعتادة: «هاأنت قد عدت!؟». ولم يكن من الفتاة عند ذلك الاّ أن دفعت الحاجز قليلاً، وانسحبت إلى غرفتها.

وعلى مائدة العشاء أعطت الفتاة لأمها فكرة مفادها أني رجل مضحك: وهذه المرة أيضاً، وبعد بعض التردد، امتنعت عن سؤالها لماذا تفعل ذلك. وكل ماهنالك أني لاحظت أنّ الأم، من جهتها، وجّهت لابنتها نظرة شديدة القسوة.

وبعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، اصطحبت «ك» للقيام بنزهة. فسرنا خلف معبد «دنزوين» ودرنا حول حديقة النباتات، ثم خرجنا عند أسفل شاطيء «توميزاكا». وكنزهة لم تكن تلك المسافة التي قطعناها قصيرة. ولكننا قليلاً ما تكلمنا مع بعضنا . فقد كان «ك» أقلّ ثرثرة مني، أنا، الذي لم أكن ثرثاراً. ومع ذلك فقد حاولت، ونحن نسير في طريقنا، أن أبدأ الحديث ودفعه للمشاركة فيه. وقد تحدّثت بشكل خاص عن البيت الذي كنا نقيم فيه، رغبة مني بمعرفة رأي «ك» بالمرأتين. فلم يردّ عليّ الاّ بأجوبة مبهمة، يصعب تفسيرها، غير محدّدة، بسيطة وموجزة بمجملها. وبدلاً من اهتمامه بالمرأتين، كان اهتمامه محصوراً بدراسته. كان صحيحاً أنّ امتحانات السنة الثانية أخذت تقترب، وأنّ موقفه هذا، في هذه الظروف، كان طبيعياً أكثر من موقفي.

لم يكن يتحدث مطلقاً الاّ عن «سويدنبورغ»(١)، «سويدنبورغ» من هنا، «سويدنبورغ» من هناك...، وأنا كنت أبدي إعجابي به، رغم جهلي كل شيء عنه.

واجتزنا فحوصنا، وعند ذلك قالت لنا صاحبة المنزل:

- لم يبق لكما الآن سوى عام واحد!

كانت تبدو سعيدة جداً. وكنت أظن أنا، أنّ ابنتها، موضع اعتزازها الوحيد، سوف تنهي، هي أيضاً، دراستها الثانوية. وذات يوم عندما تحدثت عنها إلى «ك» قال لي:

- هيهات! انّ الفتيات يخرجن من المدراس الثانوية دون أن يكنّ يعرفن شيئاً على الاطلاق!

والأمر الذي كان قد نسيه، هو أنّ الفتاة، بالاضافة إلى برنامجها النظامي، كان عليها أن تتعلم الخياطة، بعض الأعمال المنزلية، وطريقة تنسيق الزهور. وضحكت من غفلته ودهشته، ولفتّ نظره إلى أنه مع ذلك، ليست أغنى الدراسات بالمعارف والعلوم، هي التي تكوّن أفضل النساء: كان هذا أحد أفكاري المفضلة، أبديه له من جديد. ولم يخالفني الرأي في ذلك. ولكنه أيضاً لم يكن يبدو مقتنعاً تماماً. ولاشيء كان يمكنه أن يدخل مزيداً من السرور إلى قلبي. ولدى سماعي اياه يعبّر بنفس لهجته التي تتصف باللامبالاة، عن احتقاره للنساء، كنت أستنتج أنّ الفتاة، التي كانت بالنسبة لي، تمثل كل النساء، لم تكن داخلة في حسابه، هو. واليوم، عندما أستعيد ذكرى أيامي الماضية، أدرك أنّ بذور الغيرة كانت، منذ تلك اللحظة قد نبتت في قلبي.

تحدّثت إلى «ك» بشأن الذهاب إلى مكان ما لقضاء بعض الوقت في فصل الصيف. ولكنّ ذلك لم يبد لي أنه يروق له.وفي حالة الانزعاج التي كان يعيشها، كان أمراً طبيعياً ألاّ يستطيع السفر بعيداً بمفرده: ولكن أين الصعوبة إذا اصطحبته أنا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسألته:

– لماذا لاتريد أن نسافر؟

– ليس لديّ سبب خاص. وكل ماهنالك أني أرى أنّ هنا أفضل بالنسبة لي من أجل الدراسة!

– ولكن، من أجل الصحة، فانّ الذهاب إلى أحد مراكز الاصطياف، والتمتع بجوّه اللطيف، أفضل بكثير!

– حسن، اذهبْ اذن إلى هنالك وحدك!

أن أذهب إلى هنالك وحدي، كلاّ، اني لم أستطع تقرير ذلك. لأني كنت منذ ذلك الحين، قد أخذت أنظر بكثير من سوء الظن الى نموّ الالفة والمودة وتزايدهما بين «ك» والمرأتين. ولكنك سوف تسألني، لماذا كانت تلك النتيجة التي لاحقتها وسعيت لتحقيقها في البداية، بحماسة شديدة، هي بالذات التي أدّت إلى جرحي بهذا الشكل؟ فأنا أقسم، بأنّ ليس لديّ ماأجيب به، الاّ إذا قلت بأني لاأرى مطلقاً أيّ فارق بيني وبين أحد المغفلين البلهاء. ومهما كان الأمر في ذلك، فانّ الأم، وقد أقلقها ذلك النقاش الذي كاد يستمر طويلاً، عمدت إلى التوسط بيننا،نحن الاثنين. واتفقنا، في نهاية الأمر، على الذهاب إلى شاطيء «بوشو»، على الساحل.

---

(١) سويدنبورغ: فيلسوف متصوّف سويدي، ذو أفكار حديثة وغريبة، ولد في استكهولم (١٦٨٨ – ١٧٧٢) كتب مؤلفات كثيرة لاقت رواجاً في انكلترا وأمريكا، حيث له هناك أتباع كثيرون(المترجم).

لم يكنِ «ك» قد قام بكثير من الرحلات. وبالنسبة لي، أنا أيضاً، كان موقع «بوشو» جديداً. وقد نزلنا في أول مرفأ توقفت فيه السفينة الصغيرة، وكنّا نحن الاثنين نجهل كل شيء عن هذا الشاطيء. وإذا كنت أذكر جيداً، فالمكان يدعى «هودا». ولاأعلم الآن كيف أصبح ذلك المرفأ. ولكنه لم يكن في ذلك الوقت الاّ عبارة عن احدى قرى صيادي السمك البائسة. والشيء الذي يسترعي الانتباه على الفور هناك، كانت رائحة السمك الكريهة. ولكن الأمر المزعج بشكل خاص، أنّ المرء تنسحج ذراعاه وساقاه حالما يحاول الاستحمام هناك، إذ أنّ أمواج البحر تدفعه يميناً ويساراً، وليس هنالك تحت هذه الأمواج سوى حجارة بحجم قبضة اليد، تتدحرج دون توقف، مع الأمواج التي تدفعها من جهة إلى أخرى.

ومللت بسرعة من الاقامة في ذلك المكان. أمّا «ك»، من جهته، فلم يكن يبدي رأياً، ان كان حسناً أو سيئاً. وعلى كل حال كانت ملامح وجهه تبقى كما هي على حدّ سواء، لايطرأ عليها أيّ تبدّل أو تغيير. ويعلم الله، مع ذلك، أنه لم يكن قد استحمّ مرّة، الاّ وأصيب بعدّة جروح. وأقنعته أخيراً بتغيير المصيف. فذهبنا إلى «توميورا»، ثم إلى «ناكو»، على نفس الشاطيء. كان ذلك الجزء من شبه الجزيرة يقصده الطلاب بكثرة، إذ أنّ الأسعار فيه كانت مقبولة. كنا، أنا و«ك»، كثيراً مانبقى جالسين على صخور الشاطيء، نتأمّل تباعاً الألوان التي تصطبغ بها الأمواج بعيداً، وقاع البحر، تحت أقدامنا. وهذا القاع، على الخصوص، كان جذاباً: فالأسماك الصغيرة، الزرقاء منها أو الحمراء، التي لاترى أبداً في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأسواق، كانت تشقّ هناك المياه الصافية، ذاهبة في كل اتجاه: وكنا نراها بكثير من الوضوح بحيث كنا نستطيع أن ندلّ عليها باصبعنا.

وكثيراً ماكنت أفتح كتاباً، وأنا جالس على تلك الصخور. أما «ك» فكان يبقى طيلة الوقت تقريباً، لايقوم بأيّ عمل، صامتاً، لاينطق بأية كلمة. هل كان مستغرقاً في تأملاته؟ شارداً في تأمل المناظر؟ أم أنه كان منشغلاً بأوهام تلك المخيلة التي كانت أوفى رفيقة له؟ ماكنت لأستطيع البت في ذلك، أو قول شيء عنه. وكنت أسأله من وقت لآخر:

– ماذا تفعل؟

– لاشيء!

وأنا كنت أفكر في كثير من الأحيان:

– لو أني فقط كنت أستطيع أن أرى فتاة منزلنا، جالسة بجانبي، مكان «ك»، كم أكون سعيداً عند ذلك!

ولكنّ هذا التفكير الذي يعتبر نوعاً من عدم الوفاء ازاء «ك» كان مايزال لايشكل شيئاً. فالأسوأ من ذلك، هو أني كنت أضيف إليه هذا الشك القاسي بأنّ «ك»، ربما كان هو أيضاً يداعب في نفس الوقت نفس الصورة لتلك الفتاة بالذات، وهو جالس على الصخرة بجواري. حينئذ، كان البقاء هناك، جالساً بكل هدوء أمام كتاب مفتوح، يثير غيظي فجأة. فأنهض بغتة وبعنف، صارخاً، دون هوادة، بأعلى صوتي. ولاتعتقد أني قد خطرت لي الفكرة أن أنشد، على سبيل التسلية إحدى القصائد الصينية، أو أن أغني احدى أغاني بلدنا: اذن لما كنت احتملت عذوبة ذلك. كلاّ. انمّا كانت أصوات متوحش، تلك التي كنت أطلقها. بل اني لقد تماديت مرّة الى حدّ أني أمسكت بـ«ك» من ياقته، وقلت له:

– وماذا لو دفعتك وألقيت بك في البحر؟

ولم يرفّ له جفن أو تبدر منه أية حركة، وكل مافعله هو أنه قال حتى دون أن يلتفت:

– انها فرصة ممتازة: فلا تزعج نفسك!

وفي الحال أرخيت أصابعي.

كان «ك» يبدو وكأنه شفي تقريباً، في ذلك الوقت، مما كان يعاني منه من كآبة وانهيار عصبي. وعلى العكس منه، كنت أنا، أصبح، كل يوم، أكثرعصبية. وعندما كنت أرى «ك» أكثرهدوءاً مني، بدأت أحسده. ثم أخذت أحقد عليه لتلك اللامبالاة التي تتصف بعدم الاكتراث التي كان يبديها نحوي. وعند التفكير في ذلك جيداً، يتضح لي أنّ ذلك كان دون شك نوعاً من الكبرياء والغطرسة من جانبه. ولكن حتى وان كان ذلك عبارة عن كبرياء، فانه لم يكن كافياً لاعادة الهدوء والاطمئنان إلى نفسي. وحاولت حينئذ تحليل هذه الكبرياء. ولنر. هل ذلك بسبب مخططات الدراسة أو مخططات المستقبل.، أن استعاد «ك» ثقته بنفسه؟ إذا لم يكن لديه سوى هذا النوع من الكبرياء، اذن في هذه الحالة، فلا خوف من أن تحدث بيننا أية منافسة أو خصومة. بل على العكس من ذلك تماماً، كان الشعور بأنّ المساعدة التي قدّمتها إلى «ك» قد أعطت ثمارها، لايمكن الاّ أن يدخل السرور إلى قلبي. نعم ولكن.. إذا لم يكن الأمر كذلك؟ إذا كانت، مثلاً، راحة بال «ك» هذه، قد نشأت لديه من حب شديد ربما كان يكنّه للفتاة التي كنت أنا نفسي، أحبّها؟ أبداً، كلاّ، حينئذ أبداً، لن أستطيع أن أغفر له ذلك! كان هنالك أمر يبدو لي غريباً: هو أنّ «ك» لم تبدر منه أقل اشارة تدل على أنه شعر، من خلال مواقفي، بحبي لتلك الفتاة... ولكن من جهة أخرى، والحقيقة تقال، لم أكن قد أبديت مايدل على هذا الحب! وعلاوة على ذلك، فانّ «ك» لم يكن ثاقب النظر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بخصوص هذا النوع من العواطف! وانما لهذا السبب بالذات، أني لم أكن قد ترددّت باحضاره إلى المنزل الذي كنت أقيم فيه: وقد قلت لنفسي: «لاخطر من اكتشاف شيء عني، مع وجود «ك».

* * *

كنت قد قرّرت اطلاع «ك» على سرّي، وأن أفتح له قلبي، ،لم يكن قراري هذا متسرّعاً: فهو يعود إلى ماقبل سفرنا من «طوكيو»، ولكن كان يجب اختيار لحظة مواتية للتحدّث عن ذلك: ولم أكن أتقن اغتنام هذه اللحظة عندما تبدو، وقبل فواتها، ولا ايجادها عندما لاتلوح من تلقاء نفسها. وعندما أمعن اليوم التفكير بأخلاق ذلك الزمن، أوافق على أنّ البيئة التي كنت أعيش فيها كان بيئة خاصة جداً. فلم أكن قد سمعت أبداً أيّ شخص يتحدّث عن النساء حتى وان كان بقدر قليل من عدم الاهتمام. ولاأقول أنّ من بين الناس الذين كانوا هناك، لم يكن حقاً لدى أحد شيء يقوله حول هذا الموضوع: ولكن بين هؤلاء أنفسهم الذين يمكن أن يكون لديهم مايقولونه سراً فيما بينهم، فالقاعدة كانت هي أن يلزموا الصمت. وأنتم الذين تستنشقون حالياً هواء مكوّناً من الحرّية، سوف تجدون ذلك غريباً. فهل كان هذا من أثر مذهب «كونفوشيوس» حيث كان بعض أجدادنا يجدون قانونهم الأخلاقي؟ أم أنه مجرّد حياء فقط؟ اني أترك لك أمر الحكم على ذلك.

كنا، أنا و«ك» صديقين حميمين جداً، بحيث لم يكن بيننا أبداً أيّ مواضيع لم يكن ممكناً التطرّق إليها ومعالجتها. وليس معنى ذلك أنه لم يحدث لنا أحياناً، وان كان نادراً، أن تحدّثنا عن الميول والعواطف، أو حتى عن الحب: ولكنّ الحديث لم يكن يؤدّي أبداً الاّ إلى نتائج مجردة وعامة تتصف بالغموض. وهذا النوع من الأحاديث، وأكرّر ذلك، كان أمراً استثنائياً بيننا. كنا، بخاصة نتحدّث عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتب والدراسة والمستقبل والطموحات والتقدم الأخلاقي: كانت تلك، كما يقال، اهتماماتنا الوحيدة. ومهما كانت صداقتنا تتصف بالالفة، وبالمودة الشديدة، فاننا بعد أن اعتدنا مثل هذه الجدّية، لم يكن بامكاني، دفعة واحدة،تغيير لهجتي. ولأنّ صداقتنا الحميمية نشأت من الجدية وعليها، فلم تكن تتقدّم الاّ على طريق الجدّ والجدّية. أمّا أفكاري عن فتاة المنزل، فكم من مرّة كنت على وشك البوح بها لـ«ك»! فقد كانت تجعل لساني يتآكل ويرعاني لدرجة أنه كان يؤلمني: وكم كنت أودّ لو أحدث له ثقباً في رأسه، أبوح له بسرّي من خلاله، وكأنه أنفاس عذبة.

وأنت الذي تقرأ ماكتبته، لن ترى في كل ذلك سوى وسواس تافه ومضحك: أمّا بالنسبة لي، فان الصعوبة كانت آنذاك هائلة. فطيلة مدة الرحلة كنت أشعر أني جبان، تماماً كما كنت في البيت. فقد كنت أراقب «ك» على الدوام، مترصّداً الفرصة كي أفتح له قلبي وأبوح له بمكنوناته. ولكنّ نظرته المتعالية إلى الناس التي تجعله يبدو وكأنه يطأ العالم بقدميه، كانت توقعني في حيرة تامة ويأس شديد يمنعاني تماماً من الكلام. ولو استطعت استخدام احدى الصور لقلت أن «ك» كان لديه قلب مطليّ تماماً بصباغ كثيف أسود. والدم الذي كنت أقدّمه له، لم تكن نقطة واحدة منه تدخل قلبه، وانما عليّ أنا كان يتدفّق دمي عائداً من جديد.

وموقف «ك» هذا، بالذات، الذي يتّسم بكثير من القوة والسمو، كان هنالك مع ذلك لحظات، يوحي لي براحة نفسية كبيرة. فكنت حينئذ أندم على الشكوك التي كانت تساورني نحوه، ولو استمر لديّ نفس الاندفاع، لوددت أن أطلب منه أن يغفر لي ذلك. وكنت أشعر عندئذ، إلى درجة المذلة، بسوء طبيعتي وخستها: الأمر الذي يجعلني أكره نفسي.

ولكنّ نفس الشكوك ماتلبث أن تعود لتراودني وتصدمني، متدفقة بموجات كبيرة. فتنشأ عنها ألف مقارنة،

جميعها في غير صالحي: إذ أني كنت أحدّث نفسي قائلاً: انّ ملامح «ك» هي من تلك الملامح التي تعجب النساء أكثر مما تعجبها ملامحي، وأنّ طباعه التي لاتشوبها أيّ من الصغائر التي تتصف بها طباعي، كانت أكثر جاذبية واغراء. وأنّ ما لاأدري كنهه من صفات غائبة بشرود، تنضم لديه إلى مالاأعرفه من صفات الرجولة القوية، كانت تجعله يتفوّق عليّ ويصبح أكثر حظوة مني، وأنه كان يفوقني أيضاً بحدة الذكاء.. ولم يكن بامكاني، فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة، الاعتماد على أيّ تصنيف، لأننا لم نكن نتابع نفس الدروس: ولكني كنت أشعر أني غير جدير بأن أصل حتى إلى كاحله! وهكذا، عندما كنت أستعرض مزاياه هو، ومزاياه فقط، كان ذلك يجعل عينيّ كأنهما أصيبتا بالعمى. فينتابني ثانية قلقي القديم، طارداً دفعة واحدة، الهدوء الذي كان بالكاد قد تسرب لتوه لنفسي.

وانتهى الأمر بـ«ك» بأنه بدا قلقاً من سلوكي، وتصرّفاتي الغريبة، فقد قال لي:

– بالطبع، كما تعلم، إذا كنت قد مللت الاقامة هنا فيمكننا العودة إلى «طوكيو»!

كان يكفي أن يعرض عليّ «ك» هذا الاقتراح، كي أفقد الرغبة بالعودة. وهل كانت لديّ، بحقيقة الأمر، حتى مجرد تلك الرغبة؟ أم أني كنت أخذت أشعر فجأة بالخوف من العودة بـ«ك» إلى «طوكيو»؟

وهكذا خطرت لي حينذاك فكرة القيام برحلة طويلة سيراً على الأقدام. وبعد أن درنا حول رأس «بوشهو»، انتقلنا إلى شاطيء شبه الجزيرة الآخر. وكنا نشعر بالتعب الشديد ونحن نسير تحت أشعة الشمس المحرقة. لاهثين [illegible] بحذا شاطيء [illegible] كا [illegible]

[illegible]

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أوه، انّ المكان الذي تسألون عنه لايبعد من هنا سوى مسافة بسيطة لاتزيد على أربعة كيلومترات». حتى أني أنا الذي قرّرت تلك المسيرة، انتهى بي الأمر إلى عدم معرفة سبب القيام بها، والتساؤل قائلاً: «لماذا كنا نسير. هذا ماقلته لـ«ك» وأنا أرغم نفسي على المزاح. ولكنه قال:

- ولماذا نمشي؟ لأنّ لنا سيقان!

وعندما كانت الحرارة تزداد شدة، كنا نعمد إلى الاستحمام على أول شاطيء رمليّ نصله. ولكننا بعد أن نتعرّض من جديد لأشعة الشمس المحرقة،كانت أجسامنا المنهمكة تتلوى كالخرق البالية.

* * *

- ٣٠ -

بعد متابعة مجهود كهذا، فانّ تأثيرالحرارة والتعب سيؤدّي في الحال إلى اختلال التوازن في ايقاعات الجسم البشري. وهذه، مع ذلك، حالة تختلف تماماً عن المرض كان الاحساس الذي نشعر به، هو أن الروح، الغائبة، قد اغتربت وحلّت في جسد آخر. كان كما لو أن سلوكي وأسلوبي الاعتياديين غائبان عن الكلام الذي كنت أتبادله مع «ك». فالصداقة، والكراهية النابعة من الغيرة، اللتان كنت أشعر بهما، بالتناوب الواحدة بعد الأخرى، نحو «ك»، كان يخيّل لي، أنهما وقد ولدتا مع الرحلة، كانتا يجب أن تنتهيا معها، كما لو أن الرحلة نفسها كانت قد منحتهما طبيعة جديدة. وباختصار، فانّ ماكنت أشعر به هو أنّ الحرارة، والملح البحري، والمسيرة الطويلة، قد أحدثت انقلاباً في علاقتنا القديمة، وأعطتها ايقاعاً جديداً. لم نكن قد أصبحنا، أنا و«ك» الاّ كبائعين متجولّين جمعتهما مصادفات الطريق وجعلتهما يسافران سوية. ومهما كنّا قد تحدّثنا كثيراً: فانّ كلامنا لم يعد يبلغ مستواه المعتاد، ولم يكن يتطرّق إلى أيّ موضوع تتطلّب تعقيداته أقلّ مجهود فكريّ.

وعلى هذه الطريقة تابعنا سيرنا حتى مرفأ «شوشي». كانت رحلة عادية جداً، لم يقع فيها مايميزها، سوى حادث وحيد، مازلت أذكره بكل وضوح. وقبل أن نغادر مقاطعة «بوشو» ذهبنا إلى مكان اسمه «كوميناتو»، وبالقرب منه، زرنا مزار «تينورا»، أو خليج «دوراد». وهذه الرحلة أصبحت قديمة العهد، وذكرياتي عنها باهته وغير واضحة: خاصة وأنا لم أكن أعير أيّ اهتمام، في ذلك الوقت، لمثل تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القصص. ولكن، يظلّ أنه لابدّ من القول أنما، في «كوميناتو»، كما حدّثونا، أنّ الراهب البوذي «نيشيرين» قد ولد. وتروي الأسطورة أنه في اليوم الذي ولد فيه، دفعت مياه المحيط إلى رمال الشاطيء بسمكتين مرجانيتين ذهبيتي اللون، كقربان يبشّر بالفأل الحسن. ولذلك فقد امتنع صيادو تلك القرية (منذ ذلك الحين) عن الصيد في ذلك الخليج، حيث تتجمّع تلك الأسماك المرجانية بأعداد كبيرة. واستأجرنا قارباً للذهاب لرؤية تلك الأسماك الذهبية.

وكان كل مافعله أنا، أني كنت أتأمل الأمواج. وكانت الانعكاسات والتموجات البنفسجية لتلك الأسماك التي لاتحصى، تبدو وهي تلتقي وتتشابك، ولم أكن أملّ من تأمّل ذلك المنظر. أمّا «ك» فلم يكن يهمّه شيء فيه. وأتصوّر أنه كان منصرفاً للتفكير بـ «نيشيرين» بدلاً من تفكيره بالأسماك. وعدنا إلى القرية. وكان فيها معبد يسمى «تنجونّي»، أو معبد «الميلاد»، كذكرى، دون شك، لميلاد «نيشيرين». وكان هذا المعبد جميلاً جداً. وأبدى «ك» رغبته بأن يرى هناك الراهب البوذيّ الأكبر. ولكنّ ملابسنا، كانت والحق يقال، تدعو للسخرية بشكل غريب: كانت قبعة «ك» قد أطاحت بها بعيداً رياح الشاطيء، فاستعاض عنها بقبعة من قش الخيزران. وكانت ملابسنا، نحن الاثنين، وسخة، تفوح منها رائحة العرق.ولذلك حاولت اقناع «ك» بعدم الدخول وملابسه على هذه الحالة. ولكن «ك» أبدى العناد، وقال لي:

– إذا كنت لاتريد الدخول، فلابأس بذلك، انتظرني في الخارج!

ورافقته مرغماً، وأنا متأكد بأنهم سيطردوننا. ولكنهم، على العكس من ذلك عاملونا بلطف تام. إذ أنهم أدخلونا إلى قاعة كبيرة وجميلة. واستقبلناالراهب الأكبر شخصياً، في الحال ودون أن يتركنا ننتظر. لم تكن اهتماماتي تتفق مع

اهتمامات «ك»، ولذلك لم أعر الحديث سوى أذن لاهية. وأعتقد، مع ذلك أني مازلت أذكر أنّ «ك» عندما طرح بعض الأسئلة عن «نيشيرين» أجابه الراهب البوذي، وكأنه يسمّع درساً:

- انهم ينسبون له، بحق وعن جدارة، الشهرة كمعلم كبير، في ذلك النوع من علم الخط الذي يدعى الخط الموجز..

وبدا الانزعاج والخيبة على «ك» إذ أنّ خطه كان شنيعاً، وكأنه يقول: محتجاً:

- وماذا تريد أن يهمّني ذلك، ان كان يكتب بشكل جيد أو بشكل سيء! وماكان، يرغب، هو، أن يعرفه عن «نيشيرين» دون شك، كان فلسفة أكثر عمقاً! ولاأستطيع القول فيما إذا كان الراهب قد أرضى متطلّبات «ك» أم لا. وعلى العكس من ذلك، فاني أعرف جيداً، أننا لم نكد نتجاوز سور المعبد، حتى أخذ «ك» يتحدث باسهاب، وبكل اقتناع وحماس، عن «نيشيرين». أما أنا، فلم أستطع المشاركة في ذلك، لأنّ الحرارة كانت تضايقني، ولم أكن أردّ الاّ بصوت ضعيف كأنه آت من بعيد. وقد انزعجت في نهاية الأمر، فلم أعد أردّ البتة.

وإذا لم تخنّي ذاكرتي، فاننا لم نستطع أن نأخذ قسطاً من الراحة في أحد الفنادق، الاّ مساء اليوم التالي. وعندما استلقينا بعد تناول طعام العشاء، بدأ «ك» الحديث لاأدري حول أيّ موضوع شائك. ولم أكن قد أجبت في اليوم السابق، مطلقاً، على أحاديثه عن «نيشيرين»: ولاشك أنّ ذلك لم يرضه تماماً، إذ أنه، في لحظة معيّنة، انطلق قائلاً أنّ المرء عندما لايكنّ في قلبه أية رغبة بالتقدم الأخلاقي والمعنوي، فلابدّ أن يكون بالحقيقة أبلها ومغفلا. كان ذلك التهجم موجّهاً لي أنا، وكان «ك» يعتبرني هزيل الفكر، ضعيف النفس، ويعاملني على هذا الأساس. أمّا أنا فلم يكن في قلبي سوى صورة الفتاة التي كنت أحبها: فقد سيطرت عليّ، تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصورة وامتدّت إلى أعماقي، تماماً كما الشجرة تمدّ جذورها بعيداً... ومع ذلك، لم يكن بامكاني ازاء احتقار كهذا، أن أكتفي بالابتسام: بل أخذت، بدوري، أشرح أفكاري وأوضح موقفي.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التكلّف، وهذا الغرور لم يكونا تكلّفا، أو غرورا، مبتذلين أو وضيعين تماما. ولكنّ هذا الفارق البسيط، سوف تتبيّنه، وهذا يكفيني.

عندما عدنا إلى طوكيو كانت الشمس قد لوّحتنا تماماً. وقد أحدثت هذه العودة أيضاً تحوّلاً في أفكاري. «انساني» أو «غير انساني»، كانت هاتان الكلمتان قد أخذتا تمّحيان من ذهني. و«ك»، من جهته، كان قد تخلّى عن موقفه الديني: إذ أنّ مشكلة الجسد والروح لم تعد، على مايبدو، تراود ذهنه. كنا نتأمّل ذات اليمين وذات الشمال، وكأننا أجانب تقريباً، معالم «طوكيو» هذه المدينة التي تسودها مظاهر الانهماك بالعمل. وفي «ريوغوكو» تناولنا، رغم شدّة الحرارة، وجبة من وجبات الشتاء الحقيقية مؤلّفة من لحم الدجاج الحامي. ومثل ذلك الطعام لايمكن الاّ أن يمدّنا بمزيد من الطاّقة: فاقترح «ك» أن نستخدم تلك الطاقة دون ابطاء لكي ننهي طريقنا، من «ريوغوكو» إلى «كواشيكاوا» سيراً علي الأقدام. ولأني كنت أقوى منه، فقد قبلت دون تردد.

وعند وصولنا، تأمّلتنا الأم وقد استولى عليها الذهول. فلم نكن قد عدنا من تلك المسيرة الطويلة وقد اسودّت وجوهنا فحسب: لقد عدنا وقد نحلت أيضاً أجسامنا كثيراً. وقالت الأم، مبدية اعجابها، بعد أن زالت دهشتها:

- كم أصبحتما قويّين!

أما الفتاة فلم تكن تنظر الينا نفس النظرة: إذ أنها أخذت تقهقه ضاحكة. وقبل عطلة الصيف هذه، كانت هذه الضحكة الساخرة تجرح شعوري. ولكني، شعرت اليوم عند سماعها بسرور حقيقي. إذ لاشك بأنّ في رؤيتنا على تلك الحالة كان هنالك بالحقيقة مايدعو للضحك. ولكن كان ذلك، على الخصوص، لأني لم أكن قد سمعتها تضحك منذ زمن طويل!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تزايد في الحال سروري بلقاء الفتاة لشعوري بأن تغيراً واضحاً قد طرأ على سلوكها وتصرّفاتها. وبعد رحلة طويلة جداً كرحلتنا، كنا عند استئناف حياتنا المعتادة، نواجه ألف مشكلة صغيرة تكاد تربكنا، ولايمكن أن يحلّها لنا سوى الأيدي النسائية. ولاحاجة للقول أن تلك الخدمات البسيطة كانت ربّة البيت كعادتها تؤديها لنا. ولكن كان موقف الفتاة هو الذي يهمّني. وكان يبدو لي جيداً أنها كانت تقدّمني على «ك» في كل شيء، تاركة اياه في المقام الثاني. ومن المؤكد، لو أنها أبدت تفضيلها هذا، جهاراً وبكثير من العلانية، لكان «ك» اعتبر ذلك بمثابة اهانة تلحق بي، بل ربما لم أستطع عدم الشعور بصدمة من جرّاء ذلك. ولكن كل شيء كان يحصل بمزيد من الحس السليم، بحيث لم يطرأ مايفسد عليّ فرحتي.وكل ماهنالك أنها كانت تمنحني، عند قسمة ظرفها ومودتها، نصيباً أكبر، ولكن بطريقة، كان يبدو لي معها، أني، أنا وحدي، الذي كنت أستطيع تبيّن الفارق البسيط الذي يميّزها. ولذلك، كان «ك» من جهته، يحتفظ بمزاج رائق تماماً. لدرجة أني، كنت أستطيع اطلاق العنان لنفسي لأنشد، سرّاً في قلبي، نشيد انتصاري على «ك».

كان الصيف، حينذاك، قد انتهى، وبحلول منتصف أيلول، كان يجب علينا العودة لاستئناف الدروس. وكانت مواعيد دروسنا، هذا العام، مختلفة أيضاً، وباختلافها كانت تختلف المواقيت التي كنا نذهب ونعود فيها. وكنت أعود بعد «ك» ثلاث مرات في الاسبوع. ولكني ماعدت فاجأت بعد ذلك الفتاة تتحدّث إليه أبداً. وكنت تقريباً قد فقدت عادة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يجب عليّ أن أسألها ضاحكاً، لماذا هربت، قبل بضع دقائق.ولكني لم أكن ذلك الرجل الذي لديه هذه الصراحة. وأن أدع في الخفاء هذه الحادثة البسيطة كي أستطيع بعد ذلك استعادة ذكراها بكل ألم، هذا كل ماكنت جديراً بالقيام به! وانسحبت الفتاة في الحال عن طريق الممرالخارجي، وبعد أن توقفت أمام غرفة «ك»، تبادلت معه كلمتين أو ثلاث عبرالحاجز. كان ذلك لابدّ أنه يشكل تتمة لحديثهما الذي بدءاه قبل وصولي، لأني لم أفهم شيئاً من كلامهما.

أثناء ذلك، كان موقف الفتاة يتحرّر ويتوضّح يوماً بعد يوم. فوجودي لم يعد الآن يزعجها أبداً. وكثيراً ماكانت تطلب، وهي في الممرّ الخارجي، من «ك» ن يسمح لها بالدخول إلى غرفته: وعندما تدخل، كانت تطيل البقاء بكل رضى معه. كنت حينئذ أعرف جيداً أنها، من المحتمل، أن يكون لديها عمل ما، تقوم به هناك: ايصال البريد، اعادة بعض الملابس المغسولة وما أدراني، كل مايشكل جزءاً من أعمال البيت اليومية. هذا صحيح. ولكني، وقد سيطرت عليّ إلى ذلك الحد، الرغبة البهيمية بامتلاك تلك الفتاة، أنا لوحدي، فانّ شيئاً من كل ذلك، لم يكن يبدو لي، أنا، طبيعياً. بل اني كنت أتصوّر أحياناً، أنها تتحاشى عمداً الذهاب إلى غرفتي لكي لاتذهب الاّ إلى غرفة «ك»... ولكنك سوف تقول، إذا كان الحال كذلك، فلماذا لم تطلب من «ك» أن يغادر المنزل؟ ذلك بكل بساطة، لأني أنا الذي أتيت به إلى هذا المنزل بالرغم عنه تقريباً، وإذا أخرجته منه، فان مبادرتي الأولى تصبح بلا معنى. كلا، اني أنا، لن أسمح لنفسي القيام بذلك!

كان ذلك في يوم بارد ماطر، من شهرتشرين الثاني. كان قد تبلّل معطفي، وكنت، كعادتي دائماً، قد اجتزت سور معبد «كونياكو - ايمّا» الصغير، وسرت مصعّداً الطريق الصاعد الذي كان يوصل إلى المنزل. وهناك، وان كانت غرفة «ك» خالية، فقد رأيت في موقده ناراً قوية كانت قد أضرمت ألتوّها. ولأني كنت أرغب أنا أيضاً؛ تدفئة يديّ على النار، فقد دفعت بسرعة الحاجز ودخلت إلى غرفتي. ولكنّ النار في موقدي أنا، كانت مطفأة، ولم يكن قد بقي فيه الاّ الرماد الداكن، ولاحتى قطعة فحم واحدة كان يمكن أن تطمر فيه، وبواسطتها كان بالامكان اشعال النار من جديد. وفجأة شعرت بالانزعاج.

وأتت الأم إلى غرفتي لدى سماعها وقع أقدامي. ولابدّ أنها قد شعرت بالشفقة نحوي عندما رأتني جامداً هكذا في مكاني، كالأخرس، لاأنطق بكلمة: فأخذت تساعدني على خلع معطفي وارتداء الملابس المنزلية، وعندما شكوت من البرد، ذهبت إلى الغرفة المجاورة وأحضرت لي موقة «ك». عند ذلك سألتها:

- هل عاد «ك»؟

- لقد عاد وخرج ثانية!

كان ذلك اليوم من الأيام التي ماكان يجب أن يعود فيها إلى المنزلَ الاّ بعدي: فأخذت أفكر في سرّي:

- ايه، كيف حدث أنه قد أتى إلى هنا قبل الآن؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكنّ الأم أسرعت تقول، وكأنها أدركت أفكاري:

- لابدّ أنه كان لديه عمل ماهنا!

أخذت أقرأ خلال بعض الوقت. لم يكن يسمع أيّ صوت في ذلك المنزل الذي كان يخيّم عليه هدوء عميق. وقد استولى عليّ الحزن وبرد أواخر الخريف، دون غيرهما. وفجأة شعرت أني لم أعد أستطيع التحمّل، فأغلقت الكتاب وانتصبت واقفاً. كنت أشعر برغبة قوية بالحركة، وبرؤية الناس يتحرّكون حولي. كان المطر قد توقّف أخيراً، ولكنّ الجوّ ظلّ بارداً، والسماء داكنة مثقلة بالغيوم. حملت ممطرتي على كتفي، ونزلت من جهة الشرق، سائراً بمحاذاة جدار الترسانة المبني من الطين المجفّف. لم تكن الشوارع قد سوّيت بعد. وكان المنحدر أكثر وعورة وصعوبة ممّا هو عليه اليوم، والشارع أقلّ عرضاً وأكثر تعرّجاً. وكان يوجد في أسفل الوادي، من جهة الجنوب، أبنية عالية تحجب أشعة الشمس، وفوق كل ذلك، كانت ترتيبات تصريف المياه ماتزال بدائية. لدرجة أنّ الشارع، في قسمه الأسفل، كانت تغمره الوحول، وخاصة بين الجسر الحجري الصغير القائم هناك وشارع «ياناجيشو». حتى لو كان المرء يسير هناك بقبقاب عال أو ينتعل جزمة، فانه لايستطيع التقدّم الاّ بحذر شديد. وكان على المارة أن يسيروا في منتصف الطريق المرتفع قليلاً بحيث يشطرالوحل إلى شطرين مشكلاً خطاً يجب على المارة السيرعليه بحذر شديد. وعندما أقول خطاً، فانه مع ذلك كان عرضه قدماً أو قدمين، وكان يبدو تماماً وكأنه زنّار ياباني مدّ في منتصف الشارع: وكان المارة يسيرون عليه تباعا ببطء شديد وقد انتظموا في رتل أحاديّ. والذي حدث أني، على هذا الشريط الضيق، وجدت نفسي، فجأة، وجهاً لوجه، أنا و«ك». ولم أكن قد لمحته، لأنّ ماكان يشغل بالي هو أين أضع قدميّ فقط. ولم أرفع نظري نحوه، الاّ عندما شعرت أنّ الممرّ مسدود أمامي. عند ذلك سألته:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٣٤ -

سألت «ك»:

- هل خرجت مع الفتاة؟

فقال لي:

- كلا: لقد التقيت بها مصادفة في «مازاغوشو»، وعدنا سويّة!

لم يكن لي الحق أن أتمادى وأذهب إلى أبعد من ذلك، ولم يكن يمكنني الاّ كتم الأسئلة التي كانت تزدحم في ذهني. ولكني، عند تناول طعام العشاء، أخذت أسأل الفتاة لمطابقة المعلومات. فأخذت تضحك تلك الضحكة التي كنت أكرهها منها. وأخيراً قالت:

- إلى أين ذهبت؟ حسناً، ابحث عن ذلك!

كنت حينئذ في حالة من التأثر تكاد تكون مرضية، ولم يكن بامكاني تحمّل أن تعاملني فتاة بهذا القدر من الاستخفاف دون أن أثور وأغضب.ولكن لم يكن يوجد حول المائدة التي كانت تجمعنا كل يوم، سوى الأم، التي كانت عادة، تدرك شعوري هذا. و«ك» كان يظلّ لامبالياً بكل شيء. أمّا الفتاة، فهل تبيّنت لديّ هذا الاستعداد للغيظ والغضب، وهل كانت تعمل عمداًعلى اثارة هذا الاستعداد، أم أنها لم تدرك شيئاً من ذلك، وانما كانت تتصرّف بكل سذاجة؟ كان من الصعب جداً أن أبدي رأياً قاطعاً بهذا الخصوص. وبالنسبة لفتاة شابة بمثل سنها لم تكن تعوزها قوة التمييز والمحاكمة. ولكن لم يكن يمكن القول أيضاً أنها خالية وبريئة تماماً من العيوب التي كنت أكرهها عند عامة النساء. وانما

كان منذ وصول «ك» على الخصوص، أني لاحظت وجود تلك العيوب لديها، هي. سوف تقول لي: ولماذا حدث ذلك، فقط منذ وصول «ك»؟ أكان ذلك، يا آلهي، لأنّ غيرتي من «ك» كانت تمنحني مزيداً من نفاذ البصيرة؟ أم كان وجود شابين اثنين، قد أغرى الفتاة على اظهار مزيد من الغنج والدلال؟ الحقيقة أني لاأدري ماأقول بهذا الخصوص.ولكنّ الأمر الذي لاأستطيع انكاره، حتى في الوقت الحاضر، هو أني كنت أغار من «ك» وأحسده. ،كثيراً ماقلت لك ذلك: لقد كنت أشعر، على الدوام، بضغوط الحسد والغيرة تعتلج في نفسي. أمّا أسباب ذلك ومبرّراته، إذا نظرإليها من الخارج، فانها تبدو أموراً تافهة وضئيلة الشأن:ولكن بنظر غيرتي المتحفّزة والمترصّدة، فقد كانت أية حجة أو ذريعة، كافية لكي تجعل رأس أفعى من أفاعيها ينتصب في قلبي. ومن جهة أخرى، وليكن قولاً عابراً، فاني لأتساءل فيما إذا لم تكن الغيرة هي بالضرورة، القفا، الذي يمكن، بالضرورة، أن يكون الحب وجهاً له.تأمّل: منذ أن تزوّجت، رأيت غيرتي تتضاءل وتخف حدّتها يوماً بعد يوم، ومع تضاؤل تلك الغيرة، خمدت حرارة حبي التي كانت تلازمه في بدايته.

وقلبي، الذي كان يعتريه التردد الشديد حتى ذلك الحين؛ كانت تمرّ لحظات كم كنت أودّ خلالها أن ألقي به بين يدي منْ تستطيع تلقيه: ولم أكن أستطيع تقديم هذه الهدية للفتاة، بل للأم. نعم، كم كنت أرغب أن أفتح قلبي تماماً للأم، وأن أطلب منها يد ابنتها. ومع ذلك، فانّي كنت أرجيء الكلام من يوم إلى آخر. انك سوف تتهمني بضعف الارادة عند سماعك هذا الاعتراف، وأنا أفهم منك هذا: ومع ذلك، فلم يكن ضعف الارادة هو الذي يمنعني من الكلام.الذي منعني من التقدّم، كان، قبل مجيء «ك» إلى ذلك البيت، الخوف من أن أخدع مرّة ثانية من قبل الغير. ومامنعني من التصرّف بعد أن أصبح «ك» يعيش معنا، كان شعوراً آخر: تلك الخشية،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي كانت تسيطر عليّ، من أن تفضّل الفتاة «ك» عليّ. فاذا كان قلبها يميل حقاً نحو «ك» فماذا يمكن أن يفيدني الاعتراف لها بحبي؟ ولاتعتقد، مقدّماً، بأنه لم يكن هنالك سوى الخوف من أن أقابل بالرفض: فمهما كانت درجة حبي لها عظيمة، وحتى لو فرضنا أني لقيت قبولاً لديها، فانّ مجرّد التفكير بأنها تفضّل شخصاً آخر، كان كافياً كي يثنيني عن اتخاذها زوجة لي. مع أني أعرف أنّ هنالك رجالاً كثيرين يتزوجون المرأة التي تعجبهم، دون أن يستشيروا أحداً، حتى ولا تلك التي يختارونها، ويسيرون بعد ذلك بين الناس ونظراتهم تنمّ عن الرضى عن أنفسهم. ولكنّ هؤلاء الرجال لاينتمون الاّ إلى صنفين خاصّين جداً: امّا أناس يعيشون حياةالترف ولايهتمون الاّ بملذاتهم الخاصة، والذين خرّبت لديهم تجربتهم الطويلة في هذا المجال كل حسّ بالفضيلة وبواجب احترام المرأة. أو أنهم من أولئك البلهاء، الذين يجهلون كل شيء عن الحب، ولذلك لم يدركوا طابع التبادل الحرّ الذي يلازمه، ويكتفون بالقول: حالما يتزوّج المرء، تحلّ كلّ المشاكل، وتتدبّر الأمور كلها!! ولكنّ هذاالرأي، لم يكن بامكاني، أنا، التوصّل إلى تقبّله: إلى هذه الدرجة كانت شديدة حرارة حبّي. وباختصار، كنت أبدو، في موضوع الحب، ماهراً جداً في النواحي النظرية، وفي آن واحد، غرّاً جاهلاً في مجال التنفيد والتطبيق.

ليس معنى ذلك أيضاً، وقد عشنا ذلك الزمن الطويل تحت سقف واحد، أنها لم تتح لي في كثير من الأحيان، الفرصة لأفتح قلبي للفتاة وأبوح لها مباشرة بحبي. ولكني، وقد نشأت في ظل تقاليد اليابان القديمة، كنت أدرك بحزم ووضوح أنّ أسلوباً كهذا لم يكن مسموحاً به. ولكنّ هذا الأمر ماكان يحول بيني وبين الكلام، وان كان مازال من المشكوك فيه تماماً أن أتكلم. فقد كان لا جدوى مطلقاً في ذلك! هذا لأنّ الخلق الياباني إذا كان يتصف على الدوام وفي كل مكان

بانطوائيته وتحفّظه، فعلى الأرجح أني لم يكن بامكاني أن أتوقّع أن يكون لدى فتاة يابانية، في مثل هذه الحالة، الجرأة على اعطاء الجواب المطلوب، عن حقيقة العاطفة التي تكنّها في قلبها، بكل صراحة، ودون أيّ تحفّظ.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٣٥ -

وهكذا، بقيت ملقى في مكاني لأني لم أكن أستطيع التقدّم ولاالتراجع. وعندما يكون المريض ملازماً سريره ويغفو قليلاً في النهار، يحدث له أن يرى بوضوح الأشياء التي تحيط به، دون أن يستطيع، مهما فعل، تحريك ساقيه، ولاذراعيه: تلك كانت أحياناً معاناتي وآلامي الدفينة.

في تلك الأثناء، كان قد انقضى العام السابق وحلّ العام الجديد. وذات يوم، طلبت سيدة المنزل من «ك» أن يدعو بعض أصدقائه للمشاركة في بعض التسليات أثناء السهرة. وعندما أجابها «ك» في الحال، بأن ليس لديه، حتى ولاصديق واحد، أصيبت ربة البيت بالذهول. والواقع، أنّ «ك» لم يكن له أصدقاء، ممّن يمكن اعتبارهم أصدقاء حقّاً. لقد كان له، بلا شك، عدد معيّن من أولئك الرفاق الذين تلقى عليهم التحية عند المرور بهم، ولكنهم لم يكونوا بالحقيقة من الناس الذين يمكنهم أن يشاركوا بمثل هذه التسليات. عند ذلك، طلبت ربة البيت، مني أنا، دعوة بعض أصدقائي. ولكن كيف يمكن أن تغريني تسلية تافهة كهذه، وأنا في الحالة النفسية التي كنت فيها؟ وأجبت بردّ مبهم، لاأكثر. ومع ذلك، عند حلول المساء، أتت الفتاة تبحث عنا، نحن الاثنين، وكما يقال، جرّتنا إلى مواجهة لعب الورق. لم يكن هنالك أيّ مدعو: نحن الأربعة فقط، وبدأت جولة اللعب هادئة جداً. بحيث أنّ «ك» الذي لم يكن من عادته أن يلعب الورق، كان موقفه كالمتفرّج الذي يضع يديه في جيوبه. فسألته:

- ولكن هل تحفظ غيباً على الأقل، ديوان «المئة قصيدة» القديم لـ «المئة شاعر»، الذين أخذت منهم تلك الأشعار؟

فقال:

- كلا، ليس غيباً!

فهل اعتبرت الفتاة سؤالي مهيناً بالنسبة لـ«ك»؟ لست أدري. ولكنها منذ تلك اللحظة، أخذت تهب لمساعدته بشكل واضح. وأكثرت من ذلك، بحيث كان الاثنان يتّحدان ضدي كحليفين حقيقيّين. وقد أوشك ذلك الموقف على أن يجعلني أنفجر. ولكن «ك»، ظل، منذ البداية يحافظ على مزاج متزن، وامتنع بكل براءة وحسن نية عن التباهي بانتصاره، بحيث أنّ الأمسية انتهت دون أن يحصل حادث آخر.

كان ذلك بعد تلك الأمسية - بيومين أو ثلاثة أيام، إذا لم أكن مخطئاً - أن تغيّبت المرأتان للذهاب، كما قالتا، لزيارة بعض الأقارب في «ايشيغايا» بمناسبة عيد رأس السنة. ولم تكن دروس كانون الثاني قد بدأت بعد، وهكذا فقد بقينا أنا و«ك» وحدنافي ذلك البيت الخاوي. لم تكن لديّ أية رغبة بالمطالعة ولابالخروج، ولذلك استسلمت للتفكير وأنا في حالة نفسية غامضة وقد أسندت مرفقيّ على حافّة الموقد، وذقني في باطن يديّ.. وكان «ك» في غرفته، لايصدر عنه أيّ صوت أو ضجّة. وهكذا كان السكون يخيّم علينا، بحيث لايمكن لمن يصغي الينا أن يقول أكنّا موجودين هنالك أم لا. وذلك التصرّف كان مألوفاً بالنسبة لنا، ولذلك لم أكن أعيره انتباهي. ولكنّ «ك» أزاح الحاجز الذي يفصل غرفتينا، بشكل مفاجيء،حوالي الساعة العاشرة، وقال لي وهو يقف هناك:

- بماذا تفكر؟

ولم أكن، أنا، أفكرمطلقاً، وكل ماهنالك أنّ صورة الفتاة كانت في ذهني، وكذلك صورة أمّها. وصورة «ك» أيضاً، التي كانت تدور وتدور في رأسي، وقد حلّت فيه فشوّهت صورة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرآتين. ووجّهت نظري إلى «ك». ولكني، أنا الذي كنت أعتبره، منذ بعض الوقت، كعائق في طريقي، هل كان بامكاني أن أقول له ذلك في وجهه صراحة؟ كلا، لم أتفوّه ولابكلمة واحدة، وكل مافعلته أني أحدقت في عينيه.عند ذلك دخل إلى غرفتي، وجثا في الجهة المقابلة لي، قرب الموقد. فأبعدت مرفقي عن حافة الموقد، ودفعته قليلاً، بكل لطف، نحوه.

عند ذلك بدأ «ك» حديثاً، بدا لي غريباً منه، إذ أنه قال:

- لقد ذهبتا إلى «ايشيغايا»، ولكن إلى عند من؟

- إلى عند احدى قريباتهن، عمة أو خالة، كما يبدو لي!

- ومن هي هذه القريبة، عمة كانت أو خالة؟

- انها زوجة أحد الضباط، على ماأعتقد!

- ولكنّ النساء لايقمن بالزيارة بمناسبة العام الجديد قبل منتصف كانون الثاني، على ماأعلم! فلماذا بدأتا هذه الزيارة هكذا قبل موعدها، هما الاثنتان؟

- هذا، لاأعرف شيئاً عنه! وبأيّ جواب آخر كان يمكنني أن أجيبه؟

ولزمن طويل بعد ذلك، لم يتحدّث «ك» الاّ عن المرأتين: وكان يذهب به الأمر إلى حد طرح أسئلة عن تفاصيل دقيقة جداً بحيث لم يكن بامكاني الاجابة عليها. ولكنّ كلامه لم يكن يثير في نفسي انزعاجاً بقدر مايثير اهتماماً. كنت قد حدّثته، أنا، سابقاً، في كثير من الأحيان عن المرأتين.ولكن كم كان موقفه آنذاك ينمّ عن اللامبالاة! وكم تغيّرت لهجته الآن! ومثل هذا التبدّل لايمكن أن يخفى عليّ. وفي النهاية سألته:

- يا للشيطان! ولكن لماذا لاتحدّثني اليوم الاّ عن هاتين المرأتين؟ فصمت «ك» فجأة، عند سماعه هذا السؤال. ولكنّ شفتيه كانتا ترتجفان، وكنت أنا أمعن النظر في ذلك الرجفان. كان «ك» بالفطرة، ضنيناً بالكلام. وكانت الكلمات عادة لاتخرج أبداً من فمه، دون أن تبدر منه تلك الحركة اللاارادية المتمثّلة بمدّ شفتيه إلى الأمام، كما تفعل الأرانب تقريباً: وكأنّ شفتيه تعارضان ارادته بكل وضوح، وأنه كان عليه أن يحقّق النصر عليهما لكي يستطيع الكلام. وربما كان هذا، هو مايعطي لكلامه مثل ذلك الوزن: وحالما يندفع الكلام، وكأنه يمزّق فمه، يصبح أقوى مرّتين من كلام عامّة الرجال.

أخذ، على الفور يخالجني الشعور، وأنا أمعن النظر في شفتيه، بأنّ كلاماً خارقاً للعادة، لاأدري ماهو، يكاد يخرج من بينهما. ولكن ماذا سيقول؟ لم يكن يراودني أيّ حدس بشأن ذلك. وعندما خرجت أخيراً الكلمات، استولى عليّ ذعر شديد. كان مأخذ يبوح لي به بكلمات بطيئة، شديدة الوطأة، هو حبه الشديد للفتاة نفسها التي كنت أحبها. وعليك، أنت، أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تدرك ذعري وذهولي. فقد كان، كما لو أنه، بضربة من عصا سحرية، قد حوّلني إلى صخرة جامدة. ومددت، أنا أيضاً، شفتيّ: ولكني لم أستطع النطق بالكلام.

فهل تحوّلت إلى جسم من الرعب، أم إلى كتلة من الألم والمعاناة، اني لست أدري: ولكني كنت كتلة جامدة. قدّت من الحجر أو من الحديد، فلم أكن، من رأسي إلى أخمص قدميّ، سوى كتلة متجمّدة قاسية. وقد فقدت رئتاي كل مرونتهما، وشعرت بثقل وطأتهما، هما أيضاً، وكأنهما قد أصبحتا، كتلة قاسية داخل صدري. ثم استعدت روعي. وعدت من جديد كائناً حياً. وفي الحال قلت لنفسي:

- لقد قضي الأمر! وخسرت الجولة: انه قد سبقني!

ولكن ماالعمل؟ لم أكن أرى شيئاً يمكن عمله لأيّ شيء.وبأيّ جانب من نفسي كان يمكنني التفكير؟ كان العرق البارد ينفذ من قميصي متصبباً من تحت ابطيّ: تحمّلت ذلك، ساكناً لاأبدي أية حركة. كان «ك» خلال ذلك، يفرغ عليّ مكنونات قلبه، فلذة فلذة، من خلال شفتيه البطيئتين. وأنا، لم يكن بامكاني بعد ذلك تحمّل ألمي. كان لابدّ أنّ ذلك الألم، يرتسم، دون شك، بكل وضوح، وبأحرف كبيرة على وجهي، كما تكتب لافتات الدعاية. وقد لاحظ «ك» نفسه، ذلك، رغم ضعف احساسه المعتاد: ولكنه وهو المنطوي جداً على نفسه، لم يعرني أيّ انتباه. وكانت مسارّته تنساب، من أولها إلى آخرها بلهجة بطيئة ثقيلة لاتتغيّر.ولكن من ذلك البطء والثقل بالذات، في لهجته، كنت أعلم أنّ لاشيء،مطلقاً، يمكن أن يقتلع حبّه. لم أكن أصغي إليه تماماً. بل كنت منصرفاً إلى التساؤل: ماالعمل؟ ولأني كنت في حالة سيئة من القلق الاضطراب، فلم تكن أذنيّ تستوعبان جيداً تفاصيل اعترافه.

ولكنّ لهجته كانت تعصف بصدري وتهزّ كياني. وقد أخذ ينتابني الخوف، ممتزجاً في نفسي مع الألم: كان خصمي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انسحب كلّ منا إلى غرفته، وبقينا هناك، كل من جانبه.كان «ك» ملتزماً الصمت كما كان في صباح ذلك اليوم بالذات. وكنت أنا مستغرقاً في التأملات، جامداً في مكاني، لاتبدر مني أية حركة.

ورأيت أني، من وجهة النظر الأخلاقية، مدفوع لأفتح قلبي لـ«ك». ولكن، كان يبدو لي بنفس الوقت، أني قد فوّت اللحظة المناسبة للكلام. فلماذا لم أقاطع «ك» عندما تكلم في الصباح، وأقوم بدور الهجوم؟ لقد كانت آنذاك غلطتي الكبرى. ولو أني، على الأقل، بعد أن تركته ينهي اعترافه، تكلّمت بعده على الفور، لكم كان ذلك أفضل! أمّا الآن، وقد باح «ك» بما في قلبه، فكيف يكون موقفي، وكيف يمكن أن أبدو لو تكلّمت؟ لكم قلّبت هذا السؤال وأعدت تقليبه: فلم أنته من ذلك. أمّا أن أتكلم الآن، فكم سيبدو ذلك غير مناسب وفي غير أوانه! كانت آلام ندمي لأني لم أتكلم تعصف برأسي بشدة وعنف.

لو أنّ «ك»، يزيح الحاجز، ويعود نحوي بنفس انطلاقة هذا الصباح فقط، اذن لكنت نجوت! والخلاصة، لقد كنت صباح هذا اليوم كمن وقع في كمين: لقد فوجئت، ولم أكن أتوقّع شيئاً. ولكن لو رجع «ك»، لكنت حينئذ أستعيد الميّزة التي فقدتها! وجّهت نظري إلى الحاجز: عبثاً، فلا هو ينزاح أو يتحرّك. و«ك» لايزال محتجزاً في جموده وصمته العميق.

هذا السكون الذي التزم به «ك» كان، دقيقة بعد دقيقة، يدور ويؤثر في ذهني: كنت أخاطب نفسي قائلاً: بماذا، يا ترى يفكّر وهو جالس وراء هذا الحاجز؟ كان هذا السؤال يلحّ

عليّ، ولم يكن بامكاني تحمّل حالة الشك والحيرة ازاءه. كانت هكذا عادتنا، في كثير من الأحيان، أن نلزم نفس الصمت وعدم الحركة، على جانبيَ الحاجز نفسه: كنت أنسى حينذاك، وبشكل طبيعي تماماً، وجود «ك». ولكن، وعليك أن تفهم ذلك جيداً، كل هذه التصرّفات، اليوم، كانت مزيّفة. فهل سأقوم أنا بازاحة الحاجز، والاقتراب من «ك». كلا، اني لم أكن أستطيع القيام بذلك. لقد كنت قد فوّتّ الفرصة المناسبة التي سنحت لي كي أتكلم، ولذلك كان يجب الانتظار أن يقوم «ك» ثانية بالمبادرة. الانتظار. هذا كل ماكان مسموحاً لي به.

لم أكن أستطيع البقاء بعد ذلك في مكاني ولو أني بقيت هناك، فاني أعتقد، أنّ من الممكن أن أقفز وأنقضّ على «ك». ولذلك سرت في الممر، ومن الممر، إلى الردهة. لم أكن أشعر بالعطش: ومع ذلك تفقّدت الغلاّية، سكبت بعض الماء الساخن، وشربت، ومن هناك، قصدت المدخل: ووجدت نفسي في وسط الشارع. دون هدف معيّن. ولكني لم أكن أستطيع التوقّف: وأخذت أسير، دون أن يهمّني إلى أين كنت أتجه، في تلك الشوارع الهادئة، في شهر كانون الثاني.ولكني كلما استمرّيت بالمسير، يظل «ك» يلازمني. ولم أحاول حتى أن أتخلّص من هذا الهاجس المزعج الذي كان يلازمني: بل على العكس من ذلك كنت أستعيده وأنا أسير، كلما ابتعد عني.

وماكان يثير انتباهي قبل كل شيء، لدى «ك»، كان ذلك التعقيد النفسي الذي لايمكن فهمه. كيف استطاع، فجأة، أن يفضي لي بهذا الاعتراف؟ هل كانت عاطفة حبه اذن قوية إلى هذا الحد، بحيث لم يستطع الامتناع عن أن يبوح لي بها؟ وذلك الرجل الآخر الذي كان في داخله، «ك» الاعتيادي الذي كنت أعتقد أني أعرفه، أين قذفته تلك الرياح العاصفة؟ ألغاز كثيرة. بل أمور كالألغاز. لقد كان «ك» هو القوّة بالذات. كان الجدّية نفسها. وقبل أن أحدّد سلوكي أنا، كان يجب عليّ حتماً أن أتحدّث إليه، وأن أستجوبه: مطوّلاً. ولكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن أعتبره خصماً! كانت هذه الفكرة تجعلني أرتجف. كنت أسير كأنني في حلم، من شارع إلى شارع. كنت أرى بعين الخيال غرفة «ك» وأرى هناك وجهه، الذي كان يلازمني كالهاجس المزعج. وكنت أسمع كأنّ صوتاً يهتف بي:

- امش، تابع المشي على الدوام: فبأيّ طريقة تحرّكت، أنت، فانه يظلّ مرتبطاً بعاطفة حبه، وعنها لن تستطيع زحزحته!

عند ذلك، كان يبدو لناظريّ على هيئة شيطان: وكنت أشعر أنّ سيطرته اللعينة سوف تلازمني إلى الأبد.

ورجعت إلى المنزل، محطّماً. كان يسود غرفته صمت عميق بحيث يظنّ أنّ ليس فيها أحد.

* * *

لم أكد أستقرّ في غرفتي بعد عودتي إلى المنزل، حتى سمعت صوت مركبات الجر. لم تكن، في ذلك الزمن، دواليب تلك المركبات مزوّدة باطارات مطاطية، وكان يمكن سماع قرقعة الدواليب المعدنية، من بعيد، وهي تحتكّ بأرض الطريق. وتوقّفت المركبات عند عتبة باب المنزل.

بعد نصف ساعة، دعيت لتناول طعام العشاء. كانت ملابس الخروج التي كانت ترتديها المرأتان ملقاة، على حالها، كما خلعتاها للتوّ لاستبدالها، محدثة في غرفة الفتاة فوضى بألوانها الكثيرة.

وقالت الأم:

- لم نشأ أن نسبّب لكما أيّ ازعاج: لقد أسرعنا، كي نصل في الوقت المناسب لتحضير طعام العشاء!

ولكنّ هذه المجاملة اللطيفة لم تلاق أيّ صدى لدى «ك» ولالديّ. وجلست إلى المائدة، ولكني ضننت بالكلام، ولم أردّ الاّ بجواب مقتضب. وكان «ك» أيضاً أكثر مني بخلاً بالكلام: فقد ظلّ صامتاً. أمّا المرأتان، فقد عادتا مبتهجتين جداً من مشوارهما الاستثنائي، وكان موقفنا الذي ينمّ عن الكآبة والحزن يشكل تناقضاً مثيراً مع موقفهما.

وسألتني الأم:

- ولكن، آخر الأمر، ماذا بك؟

- لاأشعر بأني على مايرام!

وكان ماقلته هو الحقيقة. وألقت الفتاة، من جانبها، نفس السؤال على «ك». فأجاب مزدريا بمثل تلك المعذرة البسيطة:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ليس لديّ رغبة بالكلام!

فتابعت الفتاة قولها:

- ايه! ولماذا؟

فتّحت، في تلك اللحظة، أجفاني المثقلة، ووجّهت نظري إلى «ك»، متسائلاً: بماذا سيجيب؟ كان ذلك يهمّني كثيراً. كانت شفتاه، ترتجفان قليلاً، كما هي العادة دائماً. ولكن بالنسبة لمن لم يكن يعرفه جيداً، لايمكن أن تعني تلك الحركة اللاإرادية شيئاً سوى أنه كان عاجزاً عن الجواب. وقهقهت الفتاة بالضحك، ثم قالت:

- فهمت: مازلت مستسلماً لبعض التأملات الصعبة، أليس كذلك؟

فاحمرّ وجه «ك» قليلاً.

أويت إلى فراشي قبل الموعد المعتاد. لم تنس الأم أني كنت قد شكوت بأني لست على مايرام، وحوالي الساعة العاشرة، جلبت لي «مغلي القمح الأسود». ولكن بما أني كنت قد أطفأت المصباح، فقد أعلنت عن قدومها، قائلة:

- هيا، هيا!

قالت ذلك، وأزاحت الحاجز الذي كان يفصلني عن «ك». فانساب اليّ نور جانبيّ من مصباح الكاز الذي كان على منضدته: لم يكن «ك» نائماً. وجلست الأم بجوار سريري، قائلة:

- من المؤكد أنه رشح بسيط، أدفيء نفسك جيداً! خذ!

وبكل حزم، قدّمت لي مغلي القمح الأسود الكثيف: فشربت تحت مراقبتها.

استمرّيت في التفكير حتى ساعة متأخرة من الليل. ولكني لم أكن أستطيع سوى تقليب نفس الأفكار واعادة

تقليبها... و«ك» ماذا كان يفعل، بالقرب مني؟ عند ذلك ناديته، وكأنّ شفتيّ تكلمتا من تلقاء نفسيهما:

- ايه!

فأجاب:

- ايه!

- لست نائماً؟

- أريد أن آوي إلى فراشي!

- وماذا تفعل الآن؟

لم يردّ عليّ «ك».ولكن سمعته بعد قليل يفتح خزانته، ويخرج منها أغطيته، ثم يرتّب سريره.

وسألته:

- كم الساعةالآن؟

- الواحدة والثلث!

ثم سمعت مايدلّ على أنه قد أطفأ مصباحه. وأدركت أنّ الظلام الدامس قد ساد المنزل. وران عليه هدوء شامل.

وتحت جنح ذلك الظلام، بل وبفضله، كانت عيناي تريان بقوّة. وبصورة آليه، نادت شفتاي «ك».

- ايه!

فردّ علي بنفس اللفظ:

- ايه!

- ماحدّثتني عنه صباح اليوم.. ألا تريد، ثانية... هذا ماقلته كبداية. ولم أكن، بالتأكيد؛ أفكر بمتابعة هذا الحديث عبر الحاجز: كنت أرغب فقط، أن أعرف فيما إذا كان «ك» مستعدّاً لاستئناف مسارّته. ولكنه، وقد ناديته مرّتين، وفي المرّتين ردّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليّ بصورة طبيعية جداً، تردّد هذه المرّة. وكان كل ماقاله، وبصوت أجش ومكتوم:

- أوه، بلى!

فغمرتني عند ذلك دهشة كبيرة.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان هذا التصوّر النفساني، الذي رسمت خطوطه على هذا الشكل، يبدو بسيطاً جداً. ولكنّ المشاعر كانت تزدحم في نفسي، معقدة جداً، تتصارع في حركة تشبه تماماً حركة المد والجزر في مياه البحر، في تناوبها صعوداً وهبوطاً. ولو كان، من جهة، موقف «ك» يظل سوياً مستقراً، فانّ ذلك لن يمنعني من تأويله بعدة طرق. ومن جهة أخرى، لو أضفنا، في فكرنا، أحاديث المرأتين إلى تصرّفاتهما، فاني لم أكتشف فيها ماهو غير طبيعي، وذلك لن يجعلني أتساءل إلى أيّ حدّ كانت صادقة التصرّفات التي كنت أعوّل عليها. أخيراً، من وجهة نظر أقل واقعية، فاني كنت أشك على الدوام إذا لم يكن وهماً، أن نفترض أن تلك المجموعة من الآليات المعقدة التي هي النفس البشرية، يمكن أن تفسح المجال للافصاح عن مكنوناتها، بنفس السهولة التي يفصح بها عن الوقت لناظر إليه، جهاز الساعة، بواسطة العقارب. وباختصار، فاني بعد أن نسبت لنفس المعطيات عدّة تفسيرات متناقضة، كنت قد عانيت من المشقّة أكثر ممّا ذكرت، من أجل التوصل إلى ذلك الهدوء النسبي. كما أني لو أردت اختيار كلماتي بمزيد من الدقة، فليس «الهدوء» هي الكلمة التي يجب أن أكتبها، لكم كان يجب عليّ هنا أن أتحاشى هذه الكلمة، لأني في ذلك الوقت لم أعرف أبداً الهدوء الحقيقي.

كانت الدروس قد استؤنفت أثناء ذلك. وكنا نذهب إلى الجامعة ونعود منها في الأيام التي كانت مواعيد دروسنا متطابقة. ولم يكن يبدو أنّ شيئاً قد تغيّر في الفتنا ومودتنا للمراقب الذي يمكن أن ينظر إلينا من الخارج. ولكن أن يكون كل منّا، نحن الاثنين، يقيم في قلبه عالماً من الأفكار خاصاً تماماً به، فاننا نحن، من جهتنا لم نكن نشك في ذلك مطلقاً. وذات يوم، لم أعد أستطيع احتمال كل ذلك.وفجأة، عمدت إلى الهجوم، في وسط الشارع تماماً. وقبل أيّ شيء سألت «ك» فيما إذا كنت الوحيد الذي باح له بسرّه: ألم يسبق له

أن تحـدّث عن ذلك إبداً إلى المرأتين؟ وكنت أفكر بأن أحـدّد خطّ سلوكي تبعاً لجوابه.

وأجابني «ك»:

– انما بحت بسرّي لك أنت فـقط، وليس لأيّ شـخص آخر!

وغمرني هذا الجواب بالفرح. كنت أعرف أنّ «ك» يمكن أن يعمد إلى الحيلة أكثر مني، وأنه كان أكثر مني مهارة. فقد استطاع أن يستمرّ في خداع الأسرة التي تبنته، بشأن مخصصات دراسته، طيلة ثلاث سنوات. ولكني كنت أعرف الباعث لذلك العمل، ولم يؤثّر بشيء على ثقتي به، بل على العكس من ذلك تماماً، لقد زاد تقديري له بسببه. ولذلك فرغم أني كنت كثير الشكوك، لم تراودني حتى مجرّد فكرة الشك بالتأكيد الذي أبداه لي بكل وضوح.

حاولت حينئذ سبر أفكاره حول نواياه. لقد كان يحب: فماذا سيفعل؟ هل سيقف عند حد الأمور التي باح لي بها، أم أنه يفكر بمخرج ماوبنتيجة على الصعيد العملي؟ ولم يردّ «ك»، على سؤالي الثاني هذا. بل تابع سيره صامتاً، مطرقاً بالأرض. توسّلت إليه ألاّ يكتم عني شيئاً، وأن يفتح لي أعماق قلبه ويبوح لي بمكنوناته. ولكن دون جدوى: فلم أحصل منه على أيّ جواب آخر سوى أنه ليس لديه أيّ مبرّر ليكتم عني شيئاً. أمّا بشأن الناحية المحدّدة التي كنت أرغب استيضاحها، فلاشيء! لقد كنا في الشارع: ولم أكن أستطيع التوقف والكف عن الكلام ولاالضغط عليه واستعجاله أكثر من ذلك. وبقيت الأمور عند هذا الحد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٤٠ -

ذهبت، ذات يوم، إلى مكتبة الجامعة: كان قد مضى عليّ زمن طويل لم أفعل ذلك. كنت أتصفّح المجلات الأجنبية التي وصلت حديثاً، وأنا جالس إلى طرف منضدة عريضة وجانب كبير من جسمي معرّض لأشعة الشمس المنسابة من طرف النافذة المجاورة. كان عليّ أن أقدّم في مطلع الأسبوع التالي للمشرف على دراستي، بعض المواد والمعلومات حول موضوع معيّن. وماكنت أجد شيئاً، ولذلك اضطررت خلال ذلك أن أستبدل المجلات مرّتين أو ثلاث مرّات. وأخيراً وجدت موضوعاً هاماً، وأخذت أقرأه بحماسة شديدة.ولكن كان هنالك من يناديني بصوت خفيض جداً من الجانب الآخر للمنضدة. رفعت عينيّ فلمحت «ك» يقف، منحنياً نحوي فوق المنضدة. وكما تعلم فانه لايجوز، في المكتبات، أن يزعج المرء جيرانه، وانها لقاعدة أن يتحدّث كلّ منا بصوت منخفض: ولذلك فانّ تصرّف «ك» لم يكن الاّ طبيعياً جداً. ومع ذلك، فقد شعرت بما يشبه الصدمة.

قال «ك»، وهو مازال يتحدّث بصوت منخفض جداً:

- أتعمل؟

- نعم، اني أقوم ببحث صغير!

ولكنّ «ك» ظلّ على وضعيّته نفسها. وقال بنفس الصوت الأجش المكتوم:

- ألا تريد أن تأتي لتتمشّى معي؟

- أريد ذلك تماماً، لو أنك تستطيع انتظاري قليلاً.

- سأنتظرك!

وجلس قبالتي. وكنت أنا، قد اضطرب ذهني كثيراً، ولم أعد أستطيع القراءة. فقد كان يبدو لي، دون سبب واضح، أنّ لدى «ك» نية غامضة يكتمها في نفسه. فهل أتى ليطلب مني تقديم حساب عن سلوكي وتصرّفاتي السابقة؟ كان هذا الشعور يفرض نفسه عليّ. فلم يكن بامكاني بعد ذلك عمل شيء. سوى طي مجلتي. وسألني «ك» بكل هدوء وهو يراني أهمّ بالنهوض:

- هل أنهيت بحثك الآن، وبهذه السرعة

- كلا، ولكن لابأس!

وأعدت المجلّة وخرجت مع «ك».

فإلى أين سنذهب؟ لم يكن لذلك أهميّة كبيرة بالنسبة لنا. خرجنا عن طريق «تاتسويوكاشو»، وبعد أن اجتزنا «ايكينوهاتا» دخلنا إلى حديقة «أوينو». وعند ذلك، أخذ «ك» يتحدّث في الموضوع الذي يلهب ذهنينا، نحن الاثنين. وعندما أفكر بذلك الآن، أرى أنه من الواضح جداً، أنه لم يدعني إلى تلك النزهة، الاّ لكي يفعل ذلك، وحدّدت في الحال رأيي وتوقّعاتي: لم يكن «ك» قد توصّل بعد إلى الخروج من مجال العواطف لكي يحدّد خط سلوك معيّن ودقيق. وكان كل ماقاله بعد ذلك أنه ألقى عليّ هذاالسؤال الغامض:

- وأنت، قل لي، ماهو رأيك بذلك؟

و«مارأيك بذلك»، هذه كانت تعني:

- أنت الذي ترى في أية هاوية ألقى بي الحب، قل لي بأيّ عين تنظر إليّ، وماهو حكمك عليّ؟

وباختصار، فانّ ماكان يريده، هو رأيي بذلك الرجل الحائر والمضطرب الذي أحاله إليه الحب وحكمي عليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورأيت بذلك الاضطراب وتلك الحيرة دليلاً واضحاً على التغيّر الذي حصل لدى «ك». واني وانْ جازفت بتكرار ذلك مرّة أخرى، فلابدّ لي من التأكيد الآن أنّ «ك» كان ذا طبيعة قوية جداً لدرجة أنه لم يكن يبالي برأي الآخرين. وماكان يعتبر أنه يجب أن يفعله، كان هو الرجل الجدير بأن يفعله: بمفرده، ازاء الجميع وضدّهم، دون أن يرى شيئاً سوى هدفه، متقدّماً نحوه بخطى واسعة، تغمره الجرأة والشجاعة. ومازلت أحتفظ بذكرى سلوكه وتصرّفاته حيال الأسرة التي تبنّته، منقوشة بقوّة في ذاكرتي حتى اليوم. نعم، لقد تغيّر «ك»، هذه المرّة: كانت هذه النتيجة بادية لكل ذي عينين.

وقلت له:

– ايه، وكيف أصبح رأيي ضرورياً بالنسبة لك، هذه المرّة؟

عند ذلك اعترف لي أنه يخجل من ضعفه الذاتي، قائلاً بلهجة غلب فيها الحزن على لهجته المعتادة:

– لقد ضعت، اني تائه ولم أعد أرى شيئاً في قرارة نفسي. وليس لديّ وسيلة أخرى سوى أن أسألك، أنت، كيف تراني!؟

شعرت بالسيطرة عليه وأني قد أمسكت به، فلم أفلته، وقلت:

– تائه، ضائع! ماذا تعني بذلك؟

فقال لي:

– اني لم أعد أعرف فيما إذا كان يجب عليّ أن أتقدّم، أم أنّ عليّ أن أتراجع! فشدّدت من قبضتي عليه:

– ولكنك لو كنت تريد التراجع، فهل بامكانك القيام بذلك؟

وبدا وكأنّ أنفاسه تتقطّع من جرّاء سؤالي، وقال شاكياً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما يتقابل بطلان من مدرستين مختلفتين، في مبارزة بالسيوف، يحدج أحدهما الآخر، قبل البدء بالمعركة، بنظرات حادة: وبهذا الشكل تماماً كنت أراقب «ك». فقد كانت عيناي، وذهني، وعضلاتي، وكل مايكوّن ذاتي يتجمّع مشكّلاً حرساً متراصّاً جداً بحيث لايترك أية ثغرة: بهذه الوضعية كنت أجابه «ك». أمّا هو، البريء الخالي الذهن، فقد كان في غفلة شديدة، بحيث لو قيل عنه أنّ فيه كثيراً من الثغرات لكان هذا قليلاً: وأن يقال أنه كان بكامله عبارة عن ثغرة، فذلك هو التعبير الصحيح. وباستخدام صورة من نوع آخر، فقد كان كمن كلّف بالدفاع عن حصن، ثم قام هو نفسه بتسليمي مخططه فأخذت أتفحّصه بتأنٍّ، تحت سمعه وبصره.

«ك» هذا، كنت أراه يراوح مهتزاً، تائهاً بين مثله الأعلى القديم وبين الواقع الذي يترصّده. كنت أعرف أني بضربة واحدة، كنت أستطيع القضاء عليه: وهذه القوة التي هي قوّتي كانت تسحرني. ودون أن أنتظر أكثر من ذلك، انقضّيت على ذلك الخصم المكشوف. تطاولت أمامه، واتّخذت وضعاً وقوراً، رسمياً ونوعياً. كنت أتظاهر بذلك، وكان كله تكلّفاً من قبلي، دون شك. ولكن كل تفكيري كان مركّزاً ومتّجهاً إلى ذلك التصنّع لدرجة أنه لم يدعني أشعر لابتفاهتي أنا شخصياً ولابخجلي الذاتي، وهكذا أفرغت كل ماكان في قرارة نفسي:

- من لايحمل في قلبه أية رغبة بالتقدم الأخلاقي، يكون مغفّلاً وأبله! وهكذا رددت له، حرفياً، وبنفس اللهجة، الهجوم

الذي وجّهه لي خلال رحلتنا إلى «بوشو». ولكني كنت أهدف من وراء ذلك، وأنا أوجّه لنفسي هذا الاتهام، إلى ماهو أشدّ قسوة أيضاً، من الانتقام: أي إلى أن أقطع عليه الطريق إلى حبه وغرامه.

كان «ك» قد نشأ في ظل عقيدة مذهب »شن». ولكنه منذ زمن دراسته الثانوية، أخذ يتباعد عن تلك العقيدة. وليس بامكاني هنا وضع بيان كامل بالاختلافات العقائدية بين مختلف المذاهب: فأنا لاأدّعي أبداً أني أتمتع بمثل هذه الكفاءة. ولكن هنالك جانب يسهل عليّ فهمه: فأنا أعتقد أني أعرف الخلافات العقائدية بين المذاهب حول العلاقات المشروعة أوغير المشروعة بين الرجل والمرأة. ومذهب «شن» واسع ومتسامح جداً في هذا الموضوع. و«ك»، كما سبق أن قلت، كان قد اتّخذ لنفسه من طفولته، كلمة »شوجن» كشعار، وهي، كما تعلم، تتضمن فكرة الزهد والتعفّف. وهذا الأمر كنت أفهمه جيداً. وعندما علمت من فم «ك» بالذات بأيّ معنى مطلق كان يتخذ شعاره ويفهمه، فانّ هذا قد أدهشني مع ذلك. وبما أنّ «الصراط» أو «طريق الهداية»، كان بالنسبة له كل شيء تماماً، فكان من الواجب تضحية كل شيء من أجله. كان هذا منطلق ايمانه ومعتقداته، وهذا يفرض عليه بطبيعة الحال، ليس التعفّف وحسب، بل الزهد والتقشف المطلقين. وينتج عن ذلك أنّ أيّ تفكير بالحب، حتى وان كان بريئاً من أية رغبة جسدية، هو، بالنسبة لـ«ك» عائق بينه وبين «الصراط». هذا ماكان «ك» قد ردّده كثيراً أمامي، في ذلك الزمن الذي كان يشقى فيه ويتعب في سبيل كسب العيش. ولكون الحب كان يمدّني، في تلك الفترة، بمزيد من القوّة، فقد كنت أعارضه في معتقداته، من كل قلبي. ولكني عندما كنت أقف ضد أفكاره، كان ينظر إليّ مشفقاً: وكانت نظراته تنمّ عن الاحتقار أكثر ممّا تنمّ عن الشفقة والرأفة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبعد أن أمضيت برفقة «ك» كل ذلك الزمن، ثم أصفعه بهذه العبارة: «الأبله وحده هو الذي لايحمل في قلبه أية رغبة بالتقدم الأخلاقي» فان ذلك يشكل اساءة كبيرة ويسبب له ألماً فظيعاً. ولكن كما ذكرت لك سابقاً، كانت خطتي بسيطة. انها بالحقيقة، لم تكن تقضي بأن أهدم بضربة قدم الماضي الأخلاقي الذي بناه «ك» لقاء معاناته الكثير من التقشف وتعذيب الجسد: بل على العكس من ذلك تماماً، كانت خطتي تهدف إلى جعله يقرّر متابعة مسيرته نحو مثله الأعلى الأول. وهكذا، وعلى هذه الصورة، فانه ان وجد «طريق الهداية» أو لم يجده، وان لمس السماء أو لم يلمسها، فلم يكن لديّ أيّ فرق أبداً في ذلك، بل كان على حدّ سواء تماماً بالنسبة لي. ولكن ماكنت لاأرغب بأيّ ثمن أن يحدث، هو أن يهمل فجأة اتجاهه الأول في الحياة، ويأتي فيقف حائلاً ضدّ مصالحي، أنا. وباختصار شديد، فاني عندما صفعته بعبارة: «لابدّ أن يكون المرء أبلهاً لكي لايحمل في قلبه أية رغبة بالتقدم الأخلاقي» انما كان الأنانيّ وحده، فيّ، هو الذي يتكلم.

- من لايحمل في قلبه أية رغبة بالتقدّم الأخلاقي هو أبله!

وللمرّة الثانية ردّدت له هذا الرأي. ثم راقبت بانتباه شديد ردّ الفعل على وجهه:

- نعم، اني أبله: أبله حقيقي!

وأخذ يحدق بالأرض بنظرات مأساوية وقد تسمّر في مكانه. أمّا أنا، فقد أصابني هذا الوضع بالذهول. لأني لم أكن أتوقّعه. ألم أكن قد نجحت اذن الاّ بتحويله إلى الأبد عن الطريق الذي كنت أودّ أن أدفعه عليه وبمزيد من القوة أيضاً؟ وفجأة أخذ «ك» يبدو لي وكأنه لص قد فوجيء متلبّسا، وبعد أن قبض عليه، أخرج فجأة سلاحاً مخبأً،

وبدوره، جعلك تحت رحمته. ومع ذلك، فانه في هذا الدور كان صوته ضعيفاً جداً بشكل ينمّ عن الحزن! وكم كنت أودّ أن أقرأ في عينيه أفكاره الحقيقيّة. ولكنه كان يحوّل باصرار وجهه عني. وأخيراً، استأنف السير ببطء، وهو مايزال مطرق الرأس.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخذنا نسير الآن، أنا و«ك» جنباً إلى جنب. وماكنت أنتظره وأنا بادي الهدوء، كانت الكلمات الأولى التي ستنطق بها شفتاه. وبدلاً من قولي «أنتظر»، انمّا كان يجب أن أقول «أترصّد». وكنت أردّد بيني وبين نفسي:

- هيّا، بادر إلى القضاء عليه، مستغلاً عنصر المفاجأة: انك تستطيع ذلك! وليس معنى ذلك أني كنت متوحّشاً، سيء الخلق. فقد أخذت من التربية التي تلقّيتها كل الحسّ الأخلاقي الذي تضمّنته. ولو أنّ أحدهم أسرّ لي في أذني، في تلك اللحظة، قائلاً: «أنت نذل!»، لكان من المحتمل أني كنت قد عدت إلى رشدي في الحال. نعم، لو أنّ «ك» تحدّث معي بهذا الأسلوب، لكان وجهي احمرّ منه خجلاً. ولكنّ «ك» هو نفسه كان مستقيماً أكثر ممّا ينبغي، لدرجة أنه لايمكن أن يساوره أي شك بأني أتصف بنذالة كهذه. كان بسيطاً، طيب القلب، سريع التصديق. أمّا أنا، وفي غمرة الكراهية التي كانت تعمي بصري، فلم أكن أرى شيئاً. ولم أكن أحترم شيئاً من تلك الطيبة المتأصلة فيه، وكل ماكنت أفعله هو أني كنت أستغلها للقضاء على خصمي.

ومشينا برهة، وفجأة، ناداني «ك»، وقد رفع رأسه. فتوقفت: وتوقف هو أيضاً. حينئذ فقط، رأيت عينيه. كان «ك» كبير القامة، أكثر مني طولاً. وكنت أنظر إليه من الأسفل. كما ينظر الذئب للخروف.

وقال لي:

لنمتنع عن الكلام أبداً بعد الآن، بهذه القصة، أتوافق

على ذلك؟ كان في عينيه وفي صوته ألم ينمّ عن الأسى والحزن بشكل عجيب. ولما لم أردّ، تابع قائلاً:

- لنمتنع عن التحدّث عن ذلك بعد الآن، هل أنت موافق؟

كان صوته ينبض، هذه المرّة، بنبرة الرجاء. أمّا أنا، فلم أكن أرى سوى شيئاً واحداً: وهو أنّ الخروف قد سلّمني رقبته. وبكل قسوة ووحشية وثبت، وقضمتها بأسناني:

- ألاّ نتحدث بذلك بعد الآن! ولكن قل لي، هل أنا الذي بدأت أم أنت؟ ألاّ نتحدّث بذلك بعد الآن: فليكن ذلك! ولكن أيمكن أن تعتقد بأنه يكفيك أن تغلق فمك لكي تتخلّص من كل ذلك وتصبح وكأنّ لاعلاقة لك به؟ وقلبك، من جهته، هل اتخذت قراراً باغلاقه؟ وفي حال عدم قيامك بذلك، فمثلك الأعلى الجميل، ماذا ستفعل به؟؟

عند ذلك رأيت قامة «ك» الضخمة تنحني وتنهار. كان «ك» شديد العناد، ولكنه كان الشرف مجسّماً، وهكذا لم يستطع المقاومة ازاء ماقذفته بوجهه: التناقض الذي كان واقعاً فيه مع نفسه. أمّا أنا، فقد تنفست الصعداء أمام تلك الخرقة البالية. ولكنّ «ك» قال فجأة:

- أن أتّخذ قرارا...؟

ودون أن يدع لي مجالاً للتدخل، أضاف قائلاً:

- نعم، يجب أن أتّخذ قراراً... ايه، حسنا، ولكن... هذا القرار... أنا لم أقل أني لم أتّخذه!

كان كمن يتحدّث مع نفسه وكأنه في حلم.

ودون أن نقول شيئاً آخر، تابعنا السير في طريقنا إلى البيت. لم تكن الرياح قوية، ولم يكن البرد قارساً، ولكن مع ذلك، كان الفصل فصل الشتاء. وكانت الحديقة الكبرى عارية كئيبة الأجواء. كانت أشجار الزينة فيها متيبّسة وكأنها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

محروقة بتأثير الجليد، وجذوعها كالأعمدة الصفراء، ترسل ظلالها التي تبدو صفوفاً سوداء قاتمة، تنعكس صورتها في السماء. وبينما كنت ألتفت لأتأملها للمرة الأخيرة، شعرت بالبرد يسري في ظهري. وبعد أن اجتزنا هضبة «هونغو»، نزلنا إلى الوادي، ثم صعدنا السفح المقابل متّجهين نحو «كواشيكاوا». ثم سرنا في المنحدر، وعند ذلك فقط، استطعت أن أبعث الدفء في جسمي وأن أشعر بهذا الجسم حياً تحت معطفي. لم نكد نتحدّث بشيء طيلة الوقت الذي استغرقته عودتنا. فهل كان ذلك لأننا كنا نمشي بسرعة كبيرة؟

وعندما جلسنا إلى المائدة، قالت الأم مبدية قلقها:

- لقد تأخرتما كثيراً!

- ذلك لأن «ك» قد اقتادني إلى «أوينو»!

فقالت وقد استولت عليها الدهشة:

- في هذا الطقس البارد!

وأخذت الفتاة، من جهتها تقهقه ضاحكة، ثم قالت:

- ايه! وهل يمكن أن نعرف ماذا يوجد من أشياء جميلة، في «أوينو»؟

قلت:

- بالحقيقة، لاشيء! لقد تنزّهنا هناك، ولاشيء سوى ذلك! أمّا «ك» الذي كان عادة قليل الكلام، فقد بدا، مساء ذلك اليوم، صامتاً تماماً كالأخرس. ولم تستطع كلمات الأم اللطيفة المعبرة عن قلقها، ولاضحكات الفتاة، أن تجعله يرد ولو بكلمة واحدة. وتناول طعامه على عجل، وكان يبلعه دون أن يمضغه. ثم تركنا في أماكننا، وذهب ليحبس نفسه في غرفته.

في الزمن الذي أتحدّث لك عنه، لم تكن بعض الكلمات مثل (اليقظة) أو (الحياة الجديدة) قد شاع استعمالها بعد. ولكن، عليك ألاّ تعتقد أبداً أن «ك» إذا كان لم يتخلّ عن ذاته القديمة ويتّخذ بشكل حاسم وواضح اتجاهاً جديداً، انما كان ذلك لعدم شيوع استعمال هذه الكلمات الجديدة والتطلعات التي تعبر عنها. فهذه التطلعات والطموحات، كانت من الأفكار الدارجة في ذلك الزمن، وان لم يكن قد شاع استعمال الكلمات. كلا. لقد كان السبب الحقيقي لموقف «ك» هو ماضيه الذي كان كبير التأثير عليه ويثقل كاهله كثيراً، بحيث لم يعد بامكانه التخلّي عنه. حتى أنّ بامكاننا القول، أنّ «ك»، إذا كان قد عاش حتى ذلك الحين، فانما عاش لاشادة هذا الماضي. ومع ذلك فقد كان يحب. سوف تقول لي أنه لم يكن يبدي أبداً أي استعجال في ركضه وراء الحب: ولكنّ هذه ماهي الاّ حجّة واهية لاتثبت أنّ حبّ «ك» لم يكن حاراً، بل فاتراً! أما الحقيقة فهي هذه: لقد كان حبّه يحرقه، ولكن مهما كانت شديدة حرارة ذلك الحب، التي تلهب أحشاءه، فانه لم يكن بامكانه أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام، دون أن يخشى العقاب. كان بحاجة لهزة قوية تنزع عنه شخصيته لكي تتاح له الفرصة لاستعادة حرّيته والسير في طريق الحب. وطريقه الوحيد، له هو، كان، على خط مستقيم، امتداد ماضيه والاستمرار فيه. كان بامكانه، بالطبع، كما لو أنّ ذلك قد حدث عرضا، التوقف لحظة على ذلك الطريق. وحتى لو أنه لم يلتفت الاّ قليلا، ولم يكن بامكانه الاّ أن يلتفت، فانّ الطريق الذي قطعه كان يدلّه إلى الطريق الذي يجب عليه أن يتابع السير فيه. وعلاوة على ذلك فقد كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتحلّى بذلك الاصرار، وذلك الجلد، والقدرة على التحمّل التي لم يعد يتحلّى بها رجال اليوم. شعور بالالتزام تجاه مثله الأعلى الأول، وقوة خلقية ومعنوية غير مألوفة، هذا هو «ك». فقد كانت عيناي قد نفذتا إلى أعماقه فيما يتعلق بهذين الجانبين الأساسيين من خلقه وطباعه.

تمتّعت بفترة هدوء نسبي في قرارة نفسي، مساء اليوم الذي عدنا فيه من «أوينو». تبعت «ك» إلى غرفته، فرضت نفسي عليه، وجلست هناك، أحدّثه في أمور مختلفة. كان، هو، يبدو منزعجاً من ذلك. أمّا أنا، فكان بريق النصر في عينيّ، وفي صوتيّ نبرات الزهو والغرور. وبقيت برهة في مكاني، باسطاً يديّ على موقده، ثم ذهبت إلى غرفتي. كان لديّ دائما، في أيّ نوع كان من النشاطات، شعور بالنقص أمام «ك»: وللمرة الأولى، تخلّصت من عقدة النقص هذه، حياله.

استغرقت بسرعة في نوم هادىء. ولكني استيقظت فجأة، وأنا أشعر بأنّ هنالك من يناديني. فتّحت عينيّ: ان «ك» يقف هناك، بين درفتي الحاجز المفتوحتين. كان «ك»، أوعلى الأقل ظلّه الأسود. وكان مصباحه مايزال يضيء غرفته. وبسبب تغيير الجو بهذا الشكل المفاجيء، بقيت لحظة وقد احتبس صوتي، وفقدت القدرة على التفكير، وأخذت فقط أنظر إلى خلفية تلك اللوحة.

وسألني «ك»:

– هل أنت نائم؟

كان «ك» رجل السهرات الطويلة.

فقلت إلى ذلك الظل الأسود:

– ماذا هنالك؟

– لاشيء. كنت ماراً في الممر، فأتيت لأرى فيما إذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان «ك» يحترم نفسه إلى أقصى درجة، وهذا ماكان يمنعه من التراجع عن أيّ قرار يتّخذه. كنت قد بلغت هذا الحد في تفكيري، عندما بدت فجأة، على خلفيّة ذكرياتي كلمة (قرار)، هذه الكلمة التي كان قد ردّدها بالحاح في اليوم السابق. ولم تكن هذه الكلمة، حتى ذلك الحين قد أثارت اهتمامي.ولكني أخذت أشعر الآن أنها تزعجني كثيراً وتضغط على صدري بقوّة لامثيل لها.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي أحبها! وجرأته، وهي أساسية في خلقه، والتي أعرفها جيداً، سوف يضعها بكاملها في خدمةعاطفته! وكنت حينئذ أقول لنفسي: ها هو قراره! فأيّ خطأ فظيع، كان ويالالأسف، خطئي!

ومهما كان الأمر في ذلك، فاني حالما فسّرت على هذا الشكل نوايا «ك»، سمعت في داخلي صوتاً يقول لي:

– هيّا، هلاّ حزمت أمرك أخيراً؟

وأطعت هذا الصوت، فاستجمعت شجاعتي، وقرّرت تسوية كل الأمور وحلّها لصالحي، حتى قبل أن يشعر «ك» بشيء. ومنذ تلك اللحظة، أخذت أترصّد خلسة الفرصة المناسبة.وانقضى يومان وثلاثة،دون أن تسنح تلك الفرصة. وكانت خطتي تقضي بأن أغتنم فرصة غياب «ك» والفتاة معا، لكي أتحدّث إلى الأم. ولكن عندما كان يتغيّب أحدهما، يكون الآخر موجودا في البيت. وتابعت الانتظار: ولكن دون جدوى.ومرّت الأيام، دون أن تسنح لي أية فرصة. وكان ذلك يتعب أعصابي ويجعلني أكثر عصبية ونرفزة.

وانقضى أسبوع وأنا على هذه الحالة. وصباح ذات يوم، شعرت أني لم أعد أطيق الاحتمال، فادّعيت المرض. ودعتني الأم والفتاة و«ك» نفسه للنهوض من فراشي: فتخلّصت منهم بأجوبة مبهمة. وأخيراً خرج «ك»، ثم الفتاة. وهذا ماكنت أنتظره. وحالما هدأت كل حركة، نهضت بسرعة من فراشي. فأتت الأم وقالت لي:

– ماذا يؤلمك؟ سأجلب لك طعام الافطار.ولكن عليك أن تبقى في سريرك، فذلك أفضل!

كنت بصحة جيدة، ولم أكن أهتم أبداً بالبقاء مستلقياً في السرير. غسلت وجهي، وذهبت كالعادة إلى الردهة لتناول طعام الافطار. فقدمت لي الأم الطعام من الجانب الآخر من المائدة.ولم يكن بامكاني القول، أكانت تلك وجبة

الصباح أم وجبة الظهر. ولكني، وأنا أمسك بكوب الأرز بيدي، لم أكن أفكر الاّ بالطريقة التي أبدأ بها الحديث: كان ذلك يشغل بالي كثيراً، بحيث كنت أبدو للناظر إلى هيئتي وكأنني مريض تماماً.

انتهيت من تناول طعامي،وأخذت أدخّن. وبما أني لم أنهض، فانّ الأم، في الجانب الآخر من المائدة، لم تكن تستطيع، هي أيضاً، أن تتركني: كان التهذيب يستبقيها. ولذلك نادت الخادمة، وطلبت منها رفع الأواني عن المائدة، ثم أخذت، بكل اتزان، مع بقائها برفقتي، تملأ الغلاّية وتمسح جوانب الموقد.

وسألتها:

- أمشغولة أنت؟

- كلا! لماذا؟

- ذلك لأني... لديّ أمر صغير أريد أن أحدّثك عنه!

- ايه! وفي أيّ موضوع؟

ووجهت نظرها اليّ. ولكنّ لهجتها التي كان يشوبها الاستخفاف كانت تتناقض كثيراً مع أفكاري التي كنت أتردد بمتاعبة الحديث عنها. وتحدّثت عن أمور مختلفة. وأخيراً، قلت لها: ألم يقل لك «ك» في هذين اليومين شيئاً خاصاً؟

- كلا! وفي أيّ موضوع؟

ثم أضافت، دون أن تتيح لي وقتاً للاجابة:

- وهل قال شيئاً لك، أنت؟؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن لديّ رغبة بأن أبوح للأم بالسر الذي أفضى لي به «ك». ولذلك أجبتها على سؤالها الأخير، قائلاً:

- كلا!

وشعرت، في الحال، بوطأة كذبتي تثقل كاهلي. ولكن، بعد كل شيء، فانّ «ك» لم يكلّفني أبداً أن أنقل إلى الأم السرّ الذي كان قد أفضى لي به، ولذلك حوّلت الحديث مباشرة وعلى خط مستقيم:

- ولكن ليس عن «ك» كنت أريد أن أتكلّم معك!

- ايه!

كان هذا كل ماقالته، موجّهة كل انتباهها إلى ماسأقوله بعد ذلك.

وبعد أن قلت ماقلته، كان عليّ أن أتابع الكلام، مهما كان الثمن، وبشكل مفاجيء، قلت لها:

- ابنتك، أعطيني اياها!

ولم يبد أن ذلك قد فاجأ الأم وأدهشها بالقدر الذي كنت أتوقّعه. ومع ذلك فقد ظلّت برهة محدقة في عيني لاتحير جوابا، أمّا أنا، فلم يكن يهمّني أن تتفرّس في وجهي، بعد أن نطقت بكلماتي الأولى، ولذلك تابعت:

- أعطيني اياها! أعطيني اياها، أتوسّل إليك بذلك! أعطيني اياها كزوجة!

والأم، - بتأثير السن ولاشك - كانت أكثر هدوءا:

- نعم، يمكنني أن أعطيك اياها: ولكن ألا تعتقد أنّ في هذا كله، بعض التسرع؟

- ولكني أريدها في الحال!

فأخذت تضحك:

- ايه، ماقولك، هل فكّرت جيداً؟

- ليس هنالك سوى طلبي الذي يتّصف بالتسرع: أما قراري، فقد اتخذته منذ زمن طويل!

تكملت معها بهذا الشكل، وبتلك القوّة التي يعطيها الصدق للكلمات.

بعد ذلك، تبادلنا جملتين أو ثلاث، لم أعد أذكر فحواها. كان في خلق الأم وطبعها، جانب يتّسم بالحزم والصراحة، يكاد يكون من صفات الذكور: وهذا ماكان يتيح لها، بخلاف عامّة النساء، أن تتكلّم، في حالة كهذه، بكل حرية:

- حسنا، اني أعطيك اياها! إذ أنّ وضعنا نحن، ليس من تلك الأوضاع التي تسمح بابداء كبرياء مبالغ بها! وعليك، أن تتنازل، أنت نفسك، وتقبلها كزوجة، أرجوك! وكما تعلم، فهي فتاة فقدت أباها...

وهكذا أخذت، هي بدورها، تتوجّه اليّ بما يشبه الرجاء.

وهكذا، بصورة بسيطة جداً وواضحة عقد اتفاقنا. وكل ذلك لم يستغرق ربع ساعة. ولم تفرض الأم أية شروط. بل أوضحت أنه ليس هنالك أية ضرورة لاستشارة العائلة: ويكفي ابلاغها ذلك فيما بعد. أما بخصوص الفتاة، فكان التأكد من موافقتها من الأمور التي لاحاجة لها. ومع ذلك، فانّ التقاليد التي نشأت في ظلها، كانت تتطلّب في نظري، مراعاة المزيد من الشكليات بخصوص كل هذه الأمور. الأقارب، يمكن أيضاً الاستغناء عن موافقتهم! ولكنّ الفتاة؟ أليس من طبيعة الأمور التأكد من قبولها وموافقتها؟ هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مـاأبديت قلقي بشأنه أمام الأم. ولكنها، طمأنتني باختصار قائلة:

- دع عنك كل هذا! انك لايمكن أن تفترض على أيّ حال، أني يمكن أن أعطي ابنتي لرجل يمكن أن أعرف أنها لاتحبه!

وعندما عدت إلى غرفتي، بدا لي أنّ كل الأمور قد حلّت ورتّبت بسهولة كبيرة جداً: وبقيت وأنا أكاد لاأصدّق ذلك بشكل يدعو للاستغراب. حقّا، أكان ذلك ممكنا؟ كنت أشك بسعادتي.وأن تكون حياتي قد تقرّرت تماماً هكذا، فانّ ذلك قد خلق مني رجلا جديداً.

وحوالي الظهر، عدت إلى الردهة، فالتقيت بالأم وسألتها:

- ولكن، معها هي، متى ستتكلمين؟

- بعد أن اتخذت أنا، قراري، فانّ ذلك لم يعد له كبير أهمية!

كان الأمر واضحاً: فالأم، رغم كونها امرأة، كانت أقوى مني خلقا: وماعليّ الاّ أن أدعها تعمل. وعندما هممت بالانصراف، أوقفتني قائلة:

- اسمع! إذا كنت قلقا، حسنا، فسأكلمها اليوم بالذات، وحالما تعود من درسها: فهل يسرّك ذلك؟

- نعم، تكلمي معها، أرجوك!

عدت إلى غرفتي، ولكن، هل سأمكث فيها، صامتاً كالأخرس أمام منضدتي، منصرفاً للاصغاء، كمن يسترق السمع، إلى حديث المرأتين؟ كلا! ثم، لقد كان هذا الجمود يثقل كاهلي كثيرا. لذلك تناولت قبعتي وخرجت. وفي أسفل المنحدر التقيت بالفتاة. وبدرت منها، عند رؤيتي، هي التي لم تكن تعرف شيئاً، حركة تنمّ عن المفاجأة، وحيّيتها قائلاً:

- ها، اذن لقد عدت؟

وقالت هي، من جهتها:

- ولكن قل لي أنت، هل شفيت من مرضك؟

- شفيت؟ بالتأكيد لقد شفيت!

وأسرعت بالهرب نحو «سويدوباشي».

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اجتزت «ساروغاكوشو»، ثم «جيمبوشو»، واتجهت إلى جهة «أوغاواماشي». وكان من عادتي ألاّ أمرّ أبداً من هناك دون أن أتوقف عند بائعي الكتب القديمة. ولكني في ذلك اليوم لم أشعر بميل لتلك الكتب القديمة الوسخة. كنت أمشي. لاأفكر الاّ بما كان يجري هناك. كنت أستعيد ذكرى موقف الأم في صباح ذلك اليوم نفسه. وتصوّرت، بالمقابل، موقف الفتاة، عند عودتها. وكانت الذكرى والخيال تدفعان خطواتي للاسراع. أو أني أيضاً، كنت أقف في وسط الشارع، وأحسب:

- الآن، انتهى كل شيء: لابدّ أن تكون الأم منهمكة بالتحدّث إليها! ثم:

- الآن، يجب أن تكون انتهت من ذلك: لقد تحدّثت إليها!

- وعبرت جسر «منسيباشي،» ثم صعدت مرتفع معبد «ميوجين»، ونفذت إلى «هونغو»، ومن هناك نزلت ثانية منحدر «كيكوزاكا»، فوجدت نفسي في «كواشيكاوا» من جديد. وبمروري عبر هذه الأحياء الثلاثة: «كاندا»، «هونغو» و«كواشيكاوا» أكون قد قمت بجولة كبيرة جداً: ومع ذلك، فطيلة تلك النزهة، لم تكد تساورني أية فكرة عن «ك». ومازلت، حتى اليوم، عندما أستعيد ذكرى تلك اللحظات، أعجز عن تفسير ذلك بشكل جيد، وكل ماهنالك أنّ هذا الأمر يدهشني. ولاشك أن المشكلة التي شغلت بالي في الصباح، بعد أن ملأت مجالي النفسي، كانت تدفع إلى الموقع الخلفي

صورة «ك». ولكني لم أنخدع بذلك أبداً: فقد كان ضميري متيقِّظاً، ومحتفظاً بشبح أعمالي المنكرة، سليماً ومستعداً للاندفاع والظهور من جديد.

هذا وعلاوة على ذلك، فقد استعدت بسرعة الشعور بوجود «ك». إذ كان يكفي أن أفتح الباب الخارجي وأن أذهب إلى غرفته لقد كان هناك. ورفع نظره عن كتابه وألقاه عليّ. وكنت أتوقع عبارته المعتادة:

– هاأنت قد عدت؟!

ولكنه قال لي بكل عذوبة ولطف:

– هل تشعر أنك قد تحسّنت؟ وهل أنت عائد من عند الطبيب؟

لكم وددت حينئذ أن أضع يديّ الاثنتين على الحصير، وأن أطلب منه الصفح جاثيا على الركبتين.وإذا كنت لم أفعل ذلك، فلا يجب أن يجعلك هذا تستنتج أني كنت ضعيف الاحساس لدرجة أني لم أستطع الشعور بالصدمة ذاتها التي تتصوّرها بسبب وجودي وجهاً لوجه أمامه. ولو أني وجدت بمفردي معه في حقل واسع، لكنت انصعت لصوت ضميري وجثوت أمامه. ولكن، ونحن في ذلك البيت، كان الاحترام الانساني يوقف اندفاعي. والأكثر مدعاة للحزن هو أنني، بعد تلك اللحظة، لم يعد بامكاني أبداً اصلاح خطئي الذي يتصف بالنذالة.

وعلى مائدة العشاء، وجدت نفسي من جديد وجهاً لوجه أمام «ك». كان يبدو حينذاك خالي الذهن، لاتساوره الشكوك، صامتاً كعادته دون شك، ولكنه بعيد عن أيّ شعور بالريبة والحذر. كما أن الأم، من جهتها، لم يكن يساورها أيّ شك حول كل ماكان يكنّه قلب «ك» في الخفاء. فأنا وحدي، كنت أعرف كل شيء عن الجميع: وكنت أشعر أنّ الأرزّ الذي كنت أبلعه ثقيلا كالرصاص. ولم تبد الفتاة أبدا. وعندما نادتها أمها، أجابتها:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- نعم، اني قادمة!

ولكنها لم تأت.وسأل عنها «ك »:

- ألا تأتي الآنسة؟

فقالت الأم:

- لاشك أنها منزعجة!

قالت ذلك وهي تنظرالي. وألحّ «ك » بالأسئلة، وقد بدا عليه مزيد من الاستغراب وانشغال البال:

- منزعجة؟ ولماذا؟

ووجّهت الأم نظراتها طويلاً اليّ، وهي تبتسم.

ومنذ اللحظة التي جلست فيها إلى المائدة، قرأت على وجه الأم أن كل شيء قد سار سيراً حسناً. ولكن ماذا لو أنها أخذت تخبر «ك » بهدوء، وبحضوري بكل شيء - وهي المرأة التي يمكن أن تفعل ذلك - وأنا، كيف سيكون موقفي؟ لقد كنت أرتجف خوفا. ولكنّ «ك »، لحسن الحظ، كفّ عن أسئلته. كما أنّ الأم من جهتها توقّفت عند هذا الحد، رغم حيويتها ومرحها الزائدين عن الحد المعتاد. وذهبت إلى غرفتي وأنا أتنفسّ الصعداء فرحاً بالخلاص. ولكنّ القلق مالبث أن استولى عليّ هناك من جديد. فما هو الموقف الذي يجب أن أتّخذه ازاء «ك »، من الآن فصاعدا؟ أخذت أتصوّر عدّة دفاعات لاستخدامها في الدفاع عن قضيّتي، إذا دعت الحاجة لذلك: ولم يبد لي أيّ منها لائقا. أخيراً، وبما أني كنت جبانا، فقد قرّرت عدم اعطاء «ك » في الوقت الحاضر، أيّ تفسير.

- ٤٧ -

تركت الأمور على حالها، خلال يومين أو ثلاثة أيام. وفي غضونها كان تبكيت الضمير يعصف بقلبي، ولابدّ أنّ هذا يسهل فهمه عليك. فلو أني وجدت بمفردي وجها لوجه أمام «ك»، لكنت شعرت في الحال بأني من وجهة النظرالأخلاقية ملزم بأن أعترف له. ولكن، علاوة على هذا الالتزام الداخلي، كان سلوك وتصرّفات الأم والفتاة تدفعني هي أيضاً، ساعة بعد ساعة لهذا الاعتراف: وكان هذا يزيد أيضاً من عدم امكانية تحمّل اضطرابي وقلقي. ألا يمكنني أن أعتبر أنه أمر مؤكد، أن تقوم الأم، وهي التي تتصف بتلك الطبيعة الحازمة والصريحة، بين لحظة وأخرى، باخبار «ك» بكل شيء، حتى وان كان على مائدة الطعام؟ وكانت الفتاة، من جهتها، قد اتخذت حيالي، منذ اليوم التالي بالذات، لليوم الذي أفصحت فيه عن طلبي، موقف الخطيبة الذي ينم عن اللطف والالفة والمودة: ألم يكن ذلك أكثر مما ينبغي، بالنسبة لـ«ك»، والشكوك تتوالى واحد بعد آخر، كي يشعر بكل غيوم السماء العاصفة تتراكم في قلبه؟كان يجب أن أفصح لـ «ك» بطريقة أو بأخرى أيّ رباط جديد أصبح يربطني بذلك البيت.كان هذا أمراً ضرورياً بالنسبة لي. وفي نفس الوقت كان يشكل في نظري صعوبة لايمكن التغلب عليها، خاصّة وأنا أعرف مابي من جبن.

كنت قد فكرت ملياً بأن أرجو الأم أن تكلّم «ك»، لعدم وجود طريقة أفضل، ولاحاجة للقول أن ذلك يجب أن يحصل في غيابي. ولكنّ تكليفها باخبار «ك» بالحقيقة، لن يمنع العار أن يلحق بي. سيكون الاعتراف غير مباشر وهذا هوكل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفرق. كان هنالك أيضاً طريقة تلفيق لاأدري أية قصة يمكن أن ترويها الأم لـ«ك». ولكن كان يجب الحصول على موافقة الأم وقبولها بالتغاضي، والاّ فانها ربما سألتني عن المبرر لهذا الكذب. كما أنّ الاعتراف بالحقيقة كاملة، يمكن أن يعني أيضاً نشر نذالتي وتصرفاتي المتّسمة بالجبن أمام الفتاة التي أحبها. وهكذا أكون قد جازفت بحياتي كلها: لم أكن أستطيع التعرض لخطر فقدان ثقة المرأتين بي إلى الأبد. وأن أفقد قبل الزواج، ولو قسطاً ضئيلاً من الثقة التي توليني اياها زوجة المستقبل، فان ذلك كان يبدو لي مصيبة لاخلاص منها.

وباختصار، فاني بعد أن سرت على طريق الصدق والأمانة، تعرّضت لكبوة دون انتباه أثناء سيري: وكنت، كما يريد من يحب أن يحكم عليّ، أبلها أو ماكرا، هذه الكبوة لم يعرف أحد عنها شيئاً بعد، سوى الله وأنا. ولكن لكي أنهض من كبوتي، ولكي أستأنف السيرعلى الطريق المستقيم، كنت مضطراً ن أعلن غلطتي أمام عيون جميع الناس الذين يحيطون بي: تلك كانت حالة الضيق والشدّة التي كنت أعانيها. كنت أودّ أن أخفي غلطتي حتى النهاية، ولم أكن أستطيع أن أفعل ذلك الاّ إذا بقيت في مكاني، ولكنّ الحياة، في نفس الوقت، كانت تدفعني، ولم يكن بامكاني البقاء في مكاني: تلك كانت الدائرة المغلقة التي كنت أجد نفسي محتجزاً داخلها.

بعد ذلك بخمسة أو ستة أيام، سألتني الأم بشكل مفاجيء فيما إذا كنت قد أخبرت «ك» بموضوع خطبتي، فأجبتها:

– كلا، اني لم أخبره بعد!

– ولكن لماذا لم تفعل ذلك؟

ومكثت لحظة كالمصعوق. وانما كان حينذاك أن جّهت لي

الأم ذلك اللوم، الذي مازالت حتى اليوم، كل كلمة فيه ماثلة في ذهني، فقد قالت لي:

- عرفت الآن لماذا تغيّرت ألوان صديقك وبدا غريب الهيئة، عندما أخبرته، أنا، بخطبتك! وبالحقيقة لم يكن هذا مستحسناً منك! أخفيت ذلك عن أعز أصدقائك! واستطعت أن تبدو أمامه وكأنّ شيئاً لم يكن!

ومكثت برهة عاجزاً عن النطق، كالأخرس تماماً. وأخيراً سألتها:

- وماذا قال لك عندما أخبرتيه بذلك؟

- أوه... لاشيء!

لم أستطع الامتناع عن الالحاح: كنت أودّ الحصول على أكبر قدر ممكن من التفاصيل. ولم يكن لدى الأم أيّ مبرّر لتكتم شيئاً عني: وهكذا فقد روت لي كيف حدث ذلك، دون أن تتبيّن أنّ هنالك أيّ شيء خاص.

والقليل من التفاصيل التي ذكرتها لي كان يكفيني لاعادة ترتيب المشهد من جديد وتصوّره. فهذه الصدمة الأخيرة تلقاها «ك» بذهول يتّسم بالهدوء الشديد جداً.

وعندما علم بالأمر، كان كل ماقاله:

- ايه!

عند ذلك، قالت له الأم:

- بما أننا سعداء، تفضّل، أنت أيضاً، وشاركنا في فرحتنا!

فتأملها «ك» وجهاً لوجه، وقال مبتسماً:

- أرجوك أن تتقبلي كل تمنياتي!

ثم نهض، وهمّ بالانصراف، ولكنه التفت قبل أن يزيح الحاجز وسألها:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ومتى سيتم الزواج؟

ثم، بعد هنيهة قال:

- كم كنت أودّ، أنا أيضاً، تقديم هدية بهذه المناسبة! ولكني لاأستطيع ذلك، لعدم وجود النقود معي: اغفري لي ذلك، أرجوك!

عندما روت لي الأم ذلك، كنت أجلس على مسند قبالتها: وقد انحبست أنفاسي في صدري من شدة الضيق.

* * *

- ٤٨ -

كان قد انقضى أكثر من يومين بقليل على الحديث الذي أجرته الأم مع «ك». ولكنّ موقفه مني ظلّ على حاله تماماً، دون أن يطرأ عليه أيّ تغيير، بحيث لم تساورني الظنون بأنه يمكن أن يكون قد علم بخيانتي. انه زهد، بل ترفّع رائع، حتى وان كان ظاهرياً وعلى الوجه فقط، ومع ذلك فانه يوحي بالاحترام. وبالقياس وعند المقارنة، كم كان «ك» كرجل يبدو أعظم مني! وهكذا كنت أفكر:

- في مجال الحيلة، لقد تغلّبت عليه، ولكن على صعيد العظمة، فقد انتصر عليّ!

كانت هذه الفكرة تدور وتعصف في ذهني كالاعصار. ثم كنت أقول لنفسي:

- لابدّ أنه يحتقرني كثيراً، في هذه اللحظة بالذات.

وعندما كنت أخلو إلى نفسي كنت أشعر أنّ وجهي يحمرّ خجلاً. ومع ذلك، فاني بالنظر إلى الحد الذي وصلت اليه الأمور، كنت أتردّد في الذهاب إلى اتهام نفسي أمامه: اذ أنّ الاعتراف بعاري كان يبدو أمراً شاقاً في نظر كرامتي.

أيمكن أن أذهب، أم إني لن أذهب؟ كنت أتردد دائماً. ومنحت نفسي مهلة حتى اليوم التالي لتقرير مايجب أن أقوم به. ولكنّ ذلك اليوم كان يوم سبت، وفي ذلك المساء بالذات، كان «ك» قد انتحر. وعن تذكري تلك المأساة مازلت أرتجف حتى الآن.

كنت أنام عادة ورأسي الى الشرق: وهذا ما لايفعله أحد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رفعت بيديّ الاثنتين رأس «ك» كما لو كنت أريد أن أضمّه بين ذراعيّ. كنت أودّ رؤية وجهه مرّة أخرى. كان «ك» قد سقط إلى الأمام، وعندما نظرت اليه. فانما كنت أنظر من الأسفل. ولكني لم أكد أرفع الرأس حتى تركته: اذ أني لم أكن أستطيع حمل ثقله بسبب الرعب الذي أصابني. انحنيت عليه. ولم أستطع، لبعض الوقت، تحويل نظري عن أذنه الشديدة البرودة التي لمستها لتوّي، وشعره الكثيف، القصير. لم أكن أشعر برغبة بالبكاء. كنت أشعر بالخوف. ليس بذلك الخوف العادي فقط الذي يهزّ أعصابي بعنف ازاء مثل ذلك المشهد. بل بخوف آخر أيضاً، كأنما أوحت لي به تلك الجثة الباردة، التي كانت فيما مضى، صديقي: خوف ورؤيا عميقا الأغوار لحتمية ما حدث.

ما العمل؟ عدت إلى غرفتي. وفي تلك المساحة الضيقة، أخذت أدور. وكان رأسي يصرخ بي: «امش!»، ولم يكن للمشي أيّ معنى. ولكني كنت أمشي. وكنت أفكر: «يجب عليّ أن أعمل شيئاً!» وفي نفس الوقت أقول لنفسي: «لقد فات الأوان: لم يعد من الممكن عمل أيّ شيء!» وكنت أدور. لم يكن بامكاني عمل شيء سوى الدوران في غرفتي: كدب في قفصه.

أيجب أن أوقظ الأم؟ وأعرض ذلك المشهد على نظر امرأة؟ كلا! اذا دعت الضرورة لذلك، الأم... ولكنّ الفتاة! مستحيل! وأهملت هذه الفكرة. وعدت إلى الدوران في الغرفة من جديد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشعلت مصباحي، وأخذت أتأمل ساعة الحائط: ليس هنالك أي شيء يمكن أن يعطي فكرة عن عجز وبطء عقارب الساعة في مثل تلك اللحظة! في أيّ ساعة استيقظت؟ لم أكن أعرف ذلك. ولكنّ موعد بزوغ الفجر يجب ألاّ يكون بعيداً عندما استيقظت: هذا ما كنت متأكدا منه! كنت أتابع الدوران. فهل سيطلّ نور الصباح أخيراً؟ أم سيدوم إلى الأبد هذا الليل الذي يسوده الظلام المرعب؟ كنت أشعر بضيق شديد.

عندما كان لايزال على قيد الحياة، كنا نستيقظ، أنا وهو، قبل الساعة السابعة، لأنّ الدروس كانت تبدأ تقريباً على الدوام في الثامنة. والخادمة، من جهتها، كانت تنهض من فراشها في نحو الساعة السادسة. ألقيت نظرة على ساعة الجدار: لم تكن قد أشارت بعد إلى السادسة. ولكني ذهبت لأوقظ الخادمة. عند ذلك سمعت صوت الأم:

- ولكن... أليس اليوم الأحد؟

لاشك أنّ وقع خطواتي قد أيقظها. فكلمتها من الممر، حيث كنت:

- هل أنت مستيقظة؟ تعالي، أرجوك!

وقد أتت. بعد أن ألقت معطفها المنزلي فوق ثوبها الليلي. سبقتها إلى غرفتي، وأغلقت بسرعة الحاجز، من جهة «ك» وكان قد بقي مفتوحاً. ثم قلت لها بصوت منخفض:

- لقد حدث شيء ما!

- وما هو؟

وبحركة من ذقني، أشرت إلى الغرفة المجاورة:

- لاتخافي!

وشحب وجهها، فقلت لها:

- لقد انتحر «ك»!

ومكثت في مكانها، وقد صعقها النّبأ، وظلّت تحدق بي، دون ان تنطق بكلمة، فقد عقلت المفاجأة لسانها. عند ذلك، جثوت فجأة وطأطأت رأسي، واضعاً يديّ على الحصير، وقلت لها:

- أرجو المغفرة: انها غلطتي! اني أطلب الصفح منك ومن ابنتك!

وهكذا، فقد قدّمت اعتذاري. ولم أكن قد فكرت مسبقاً قبل مجيء الأم أني سأتقدّم منها بهذا التصرّف العفوي. ولكن عندما رأيتها بجانبي لم أستطع الامتناع عن طلب الصفح منها. أم من «ك»؟ كنت لم أعد أدري حينذاك. ولكني لم يكن بامكاني بعد ما حدث أن أطلب الصفح من «ك». وكل هذا بامكانك أنت أن تفهمه. لقد انتصر الـ(أنا) الخفيّ ليّ، هذه المرّة، على الـ (أنا) الدّنيء لديّ، وأخذ يعترف عن طريق فمي، بعد أن أصيب بالدوّار. ومن المؤكّد، أنها، هي، لم تكن تستطيع فهم ما كان يختفي وراء كلامي، وكان ذلك من حسن حظي، اذ أنها قالت بهدوء:

- انه حادث قد وقع، ولا حيلة لنا فيه!

وأرادت أن تواسيني، ولكنّ التأثر الشديد والذعر كانا باديين بوضوح في تقلصات عضلات وجهها.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٥٠ -

ورغم أنّ رؤية ذلك المنظر كانت مزعجة جداً بالنسبة للأم، فقد ذهبت وفتحت لها الحاجز الذي كنت قد أغلقته قبل قليل. كان مصباح «ك» قد انطفأ بعد أن نضب زيته. وساد الغرفة الظلام. عدت فأتيت بمصباحي وبعد أن رفعته إلى فتحة الحاجز بأعلى ذراعيّ، أشرت إلى الأم بأن تقترب. فألقت نظرة من خلفي، دون أن تدخل، وأوصتني قائلة:

- دع كل شيء على حاله: افتح النوافذ فقط!

ومنذ تلك اللحظة، تصرّفت الأم كما يمكن أن نتوقع منها: كان تصرّفها تصرّف زوجة ضابط. وقد اقتصر ذلك على الأمور الضرورية، دون أيّ شيء آخر لاجدوى منه. واذا كنت قد ذهبت لاعلام الطبيب والشرطة، فهي التي كانت قد أرسلتني لأقوم بذلك. وقد منعت الدخول إلى الغرفة، إلى أن تمّ انجاز كل الشكليات والاجراءات اللازمة.

جرى التحقيق بسرعة وبفترة وجيزة. كان «ك» قد قطع بموس أحد شرايين رقبته، فمات على الفور. لم يكن في جسمه أيّ جرح آخر. والدم الذي رأيته على الحاجز كان قد انبثق بقوة كالسهم. وتفحصت تلك الآثار في ضوء النهار: فأذهلتني قوة اندفاع الدم البشري.

ونظفنا الغرفة، أنا والأم، كأحسن ما استطعنا. كان الجانب الأكبر من الدم ق امتصته الأغطية المحشوة بالقطن: ولم تصب الحصر إلاّ ببعض البقع، وهذا ما جعل التنظيف أكثر سهولة. ثم نقلنا الجثمان إلى غرفتي أنا، ومدّدناه على غطاء محشو بالقطن، تماماً كما لو لم يكن إلاّ نائماً. عند ذلك ذهبت لأبرق لأسرته.

عندما رجعت، كانت قد بدأت قطع البخّور تحترق قرب الجثمان. ولدى دخولي شممت تلك الرائحة الشبيهة برائحة المعبد. وخلال دخان البخور كانت المرأتان جاثيتين. لم أكن رأيت خطيبتي منذ اليوم السابق. كانت تبكي. والأم، هي أيضاً، كانت جفونها قد احمرّت تماماً. أما أنا، فمنذ بداية المأساة، لم أكن قد بكيت: وأخيراً سيكون بامكاني الخلاص من ذلك الجو الذي كنت فيه كأني أعاني من كابوس رهيب، كي أسترخي وأرتاح في حزن بسيط، عاديّ ومألوف تماماً! ولكم أحسنت اليّ تلك الدموع! لقد كانت تتساقط كالندى البارد على قلبي المنقبض رعباً. وانه ليستحيل عليّ التعبير عن تلك التهدئة، بل تلك المواساة التي شعرت بها حينذاك.

ومكثت جاثياً قرب المرأتين، صامتاً كالأخرس، لا أنطق بكلمة. وقالت لي الأم:

- قدّم، أنت أيضاً، قطع البخور!

قمت بتلك التقدمة، ولزمت الصمت. ولم تكن خطيبتي تقول لي شيئاً. ولكنها تبادلت كلمتين أو ثلاث، مع أمها، بشأن الأمور الملحّة والطارئة فقط. فقد كانت لاتزال، دون شك، شديدة الاضطراب، بحيث يصعب عليها استعادة ذكرى «ك» وأنا، كنت في سرّي، راضياً عن نفسي لكوني استطعت أن أخفي عليها حادثة الليل ذات المشهد الرهيب. اذ أنّ وضع الشباب والجمال حيال منظر فظيع، فذلك يعني تدنيسهما. وكان الأمر يبدو لي وكأنه تدنيس للمقدّسات. ففي اللحظة ذاتها التي كان فيها الذعر ينتابني ويغشى جسدي كله بحيث يبلغ أطراف شعري، حتى حينذالك، لم تفارقني تلك الرغبة باحترامها. اذ أنّ اقحام فتاة في تلك الحادثة الدموية، كان يبدو لي بمثابة كسر ساق زهرة متفتّحة، وبعنف شديد.

أتى والد «ك» وأخوه من الريف لتحية الجثمان ومواراته التراب. وقد أبديت رأيي بشأن مكان الدفن، قائلاً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عند العودة من الدفن، سألني أحد رفاق «ك»:

– ولكن لماذا قتل نفسه؟

لم أكن أسمع سوى هذا السؤال المؤذي منذ حدوث المأساة: فالمرأتان قد طرحتاه عليّ، ثم طرحه الأب والأخ، عند وصولهما، وكذلك طرحه عليّ أولئك الذين تلقوا بطاقات النعوة، ثم طرحه أيضاً بعض الصحفيين، الذين لم يكونوا، حتى قد رأوا «ك» أبداً. وفي كل مرة، كان ضميري يوجّه لي وخزات خفيفة، ويدفعني وهو يهمس في أذني:

– ولكن، هيا، قل لهم أنك أنت الذي قتلته!

أما أنا، ففي كل مرّة، كان جوابي هو نفسه، لايتغيّر: كنت أردّد عبارات الرسالة التي كان قد تركها لي «ك»، دون أن أضيف عليها كلمة واحدة. اذن، عند العودة من الدفن، كان يطرح عليّ دائماً نفس السؤال الذي لايتغيّر ويتلقى السائلون نفس الجواب الذي لايتغير أيضاً، وخلال ذلك قدّم لي رفيق «ك» صحيفة أخرجها من جيبه. وفي المكان الذي أشار اليه، قرأت، وأنا أمشي، أنّ «ك» قد انتحر بعد أن أصيب بانهيار عصبي، لأنّ أسرته قد طردته من المنزل. أعدت طي الصحيفة وأعدتها له. وأخبرني نفس الرفيق أنّ صحيفة أخرى نسبت هذا الانتحار إلى نوبة جنون مفاجئة. كنت منشغلاً جداً طيلة الأيام الماضية لدرجة أني لم أجد لحظة فراغ لمطالعة الصحف: ولكني كنت أشعر بخوف شديد يعذبني ممّا يمكن أن تكتبه تلك الصحف. ألن تتعرّض لذكر المرأتين وتحاول القاء الشبهة عليهما؟ انّ اقحام اسم خطيبتي في هذه القضية كان يبدو لي، أمراً فظيعاً، ولذلك عدت أسأل رفيق «ك»:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أهذا كل ما قالته الصحف؟

فردّ عليّ بجواب بعث الطمأنينة في نفسي:

- أنا، من جهتي، لم أقرأ فيها شيئاً آخر.

وبعد مرور بعض الوقت، قرّرنا الانتقال من المنزل، كي نقيم في البيت الذي تعرفه جيداً. اذ أنّ المرأتين لم تكونا تطيقان البقاء هناك، في البيت القديم، وأنا لم أعد أستطيع أن أتذكر، وأعيش ثانية، كل مساء، وفي نفس المكان، كابوس تلك الليلة المأساوية. ولذلك انتقلنا إلى منزل آخر، بعد أن اتفقنا نحن الثلاثة على ذلك.

أنهيت دراستي بعد ذلك بشهرين، وبعد ستة أشهر من حصولي على الاجازة، تزوجت. وكنت أبدو لمن ينظر اليّ من بعيد، رجلاً لاينقصه شيء، تغمره السعادة. كما أن المرأتين كانتا تبدوان سعيدتين جداً، وكان لديّ كل شيء لكي أكون، أنا نفسي، سعيداً أيضاً. «ولكنّ» سعادتي، كان هنالك شبح أسود يثقلها ويلقي بظله عليها. سعادتي!.... ألم تكن، بالأحرى، هي الطريق نفسه الذي سيقودني عليه القدر إلى ضياعي؟ لقد كنت أشعر بذلك مسبقاً منذ ذلك الحين.

بعد زواجنا، أرادت خطيبتي، أو بالأحرى زوجتي، -ولا أدري أيَّة ذكرى كانت وراء رغبتها- أن تذهب معي لزيارة قبر «ك». فشعرت عند ذلك، دون سبب واضح، بذعر شديد. فلماذا خطرت لها هذه الفكرة؟ كان كل ما قالته لي ببساطة:

- لنذهب سوية، نحن الاثنين، لزيارة قبره: انّ روحه ستسعد بذلك! أمّا أنا، فلم يكن بامكاني سوى التفرّس بامعان في ذلك الوجه البريء، عند ذلك قالت زوجتي وقد عرتها الدهشة:

- ألهذه الدرجة يزعجك ذلك؟

فتمالكت نفسي بسرعة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

— ٥٢ —

لم يكن تبكيت الضمير بشأن صديقي يفارقني أبداً. وكنت أعلم، منذ يوم المأساة بالذات، أنه لايمكن ان يفارقني بعد ذلك. والزواج الذي كم كنت قد تمنّيته، انما احتفلت به في ظل الخوف: والتعبير ليس قوياً أكثر ممّا ينبغي. وعلى كل حال، فان الانسان لايستطيع أن يتنبأ بمستقبله، وكنت أقول بيني وبين نفسي ربما منحني الزواج همّة جديدة، كما لو أنه كان بالنسبة لي، أول علامة على طريق حياة جديدة. ولكن كان كافياً أن أبدأ مع زوجتي، حياتنا المشتركة، كي أرى، بعد يوم واحد، هذا الأمل يتبخّر كالندى، كان ينتصب بيننا، نحن الاثنين، شبح «ك» على الدوام. وزوجتي كانت الوسيط اللاشعوري الذي يربطني بظل «ك» دون أن يدعني أتخلص منه أبداً، ولذلك، فاني، أنا الذي كنت أعرف أنها لاغبار عليها ولايمكن أن يوجّه اليها أي لوم، كنت مع ذلك لاأفكر إلاّ بالتهرب منها. ولكنّ هذا الأمر، كان قلبها يشعر به، وكان قلبها يشعر به، دون أن يدرك عقلها سببه. وكانت تسألني، وهي بادية القلق:

— لماذا أنت حزين لهذه الدرجة؟ ألديك متاعب؟

وهكذا كانت تلاحقني بأسئلتها. فكنت أحياناً أجبر نفسي على الضحك منها، فتتبدّد مخاوفها. ولكنّ أعصاب المرأة تتوتّر بسرعة كبيرة. وفي النهاية، كانت تقول، كما لو أنها تحقد عليّ:

— انك لم تعد تحبني!

أو أنها كانت تسألني:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي كان يلوح القلق من خلالها. وكلمة «اللوم» هي أقوى ممّا ينبغي: اذ أن زوجتي لم تتفوّه مطلقاً، أو بشكل مطلق على وجه التقريب، بأيّ كلام كان من الممكن أن يعطيني الحق بأن أغضب، أنا بدوري. فقد كانت تقول لي:

- اذا كنت مخطئة بأيّ شيء كان، قل لي عنه، دون أي حرج: ولكن من أجلك أنت، ومن أجل مستقبلك، أتوسل اليك أن تكفّ عن الشرب!

ومرّات أخرى، كانت تقول لي والدموع تطفح من عينيها:

- لكم تغيّرت، هذه الأيام.

ولم يكن ذلك كل شيء! بل انها قالت، ذات يوم:

- آه، لو أن «ك» ما زال على قيد الحياة، لما كنت أصبحت على ما أنت عليه الآن!

فأجبتها:

- هذا، ربما كان صحيحاً!

ولكنّها لم تدرك المعنى الحقيقي لجوابي. وكونها لم تستطع فهمي كان يحزنني: ولكني، بنفس الوقت، لم يكن لديّ أية رغبة بأن أفهمها شيئاً.

كل ماهنالك، أني كنت أحياناً أطلب منها الصفح: كان ذلك يحدث دائماً، على وجه التقريب، في الصباح، بعد أن أكون قد عدت الى المنزل في ساعة متأخرة من الليل، وأنا في حالة السكر الشديد. عند ذلك، كانت تجبر نفسها على الضحك، أو أنها تلزم الصمت، أو تبكي بدموع غزيرة. كان الأمر سيان بالنسبة لي: فقد كان يتصاعد في داخلي شعور بالقرف من نفسي بالذات، وعندما كنت أطلب الصفح منها هي، كنت كأني أطلب الصفح من ضميري أنا. وفي النهاية انقطعت عن الشرب: كان ذلك من أجلي أنا بالذات، أكثر مما هو من أجل زوجتي.

انقطعت عن الشرب، ولكني وقعت ثانية في البطالة والامتناع عن القيام بأيّ عمل. ثم انهمكت بالمطالعة، لعدم وجود ما أشغل به وقتي أفضل منها: ولكن دون أن أحصل ممّا كنت أقرأه على أية ثمرة.

وسألتني زوجتي ذات يوم:

– ولماذا تقرأ كثيراً هكذا إلى هذه الدرجة؟

ولم أجب على سؤالها سوى بضحكة صفراء تعبّر عن المرارة. وكنت أقول بيني وبين نفسي:

– هكذا اذن، يسيء فهمي إلى هذه الدرجة أحب مخلوق اليّ في العالم!

كان ذلك يبعث الحزن الشديد في نفسي! كان عليّ أنا، دون شك، أن أفهم الآخرين مايجول في خاطري. وكان من الممكن أن تكون الوسيلة سهلة جداً: ولكني كنت عاجزا عن ايجاد الشجاعة الكافية والجرأة على الكلام. وأساساً، انما كان بسبب ذلك، أني كنت أتألّم. كانت حالة العزلة التي كنت أعيشها تبعث على اليأس: فقد كنت أشعر أني منفصل عن بقيّة العالم، كشجرة قطعت جذورها.

كنت، أثناء ذلك، أحاول تبيّن الدافع الحقيقي الذي دفع «ك» إلى قتل نفسه، مقلّباً أفكاري باستمرار، ومعيداً تقليبها إلى ما لانهاية. لقد كنت أقول لنفسي في اللحظة التي حدثت فيها المأساة بالذات: «انه انتحار بسبب الحب!» اذ أنّ الحبّ كان يتحكم آنذاك بكل تفكيري. ولكنّ هذا الرأي، الذي كنت قد قنعت به حينئذ، أخذ يبدو لي، بعد التفكير فيه جيداً، متّسماً بالتسرّع، بسيطاً وسهلاً. ولدى تفحّص الأمور عن قرب، كانت المشكلة تبدو أكثر تعقيداً، وقد صعب عليّ أن أجد تفسيراً يمكن أن يرضيني. هل عانى من صراع داخليّ، كان يصطدم خلاله، مثله الأعلى بالواقع الذي كان يعيشه؟ لاشك في ذلك: ولكنّ هذه الفرضيّة أيضاً لم تكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تفسّر كلّ الحقائق والوقائع. وفي النهاية، قلت في نفسي مفترضاً:

- وماذا لو كان السبب الدّفين لذلك الانتحار المفاجيء، عجزاً أساسياً من قبله عن تحمّل الحزن الناجم عن حياة الوحدة والعزلة التي يعيشها؟

وعقدت لساني هذه الشكوك وأصابتني بالجمود. لأنّ شعوراً داخلياً كان يزيد من ضخامتها، ويعتلج في داخلي، مخترقاً كياني بقوة وسرعة الريح، كان ذلك الشعور عبارة عن حدس، أقول من خلاله لنفسي: ألا أسير، أنا أيضاً، على نفس الطريق التي سار عليها «ك»، وبنفس الثبات والهمة؟؟

* * *

أثناء ذلك، أصيبت حماتي بمرض خطير. وتحدّث الطبيب عن صعوبة انقاذها، وأننا سنفقدها. واعتنيت بها من كل قلبي. اكراماً لها، هي أولاً. ثم من أجل زوجتي التي كنت أحبها كثيراً. ولكن خاصة، وبمعنى أكثر شمولاً، من أجل عالم بني البشر الذي كانت تمثّله في نظري. كانت الرغبة بأن أصبح، أنا أيضاً، نافعاً ومفيداً، قد عذّبتني وألحّت عليّ حتى ذلك الحين: ولكني لعدم معرفتي بماذا ولمن أستطيع أن أكون ذا نفع وفائدة، فقد حافظت، كما يقال، على موقف المتفرّج الذي يضع يديه في جيوبه. وبعد أن كنت منقطعاً عن بقية العالم، فاني سأستطيع أخيراً تقديم يد المساعدة لأحد الناس للمّرة الأولى، ومهما كانت تلك المساعدة قليلة الشأن، فاني كنت أقوم بما يمكن أن يكون عملاً صالحاً. ولأتكلم بوضوح وصراحة، فقد كانت لديّ فكرة التكفير عن الذنب.

وبعد أن ماتت حماتي، بقينا أنا وزوجتي وحيدين، وكان ممّا قالته لي زوجتي:

- انك، من الآن فصاعداً، الشخص الوحيد الذي أستطيع الاعتماد عليه، في هذا العالم!

ولكني، أنا الذي كنت أعرف أني غير قادر على الاعتماد على نفسي، كانت الدموع تترقرق في عينيّ، عندما نظرت اليها حينئذ، وأنا أفكر: «كم هي جديرة بالرثاء!» وقلت لها:

- كم أنت جديرة بالرثاء! فقالت:

- ولماذا؟

لم تكن قد فهمت معنى كلامي ولم يكن بامكاني أن أشرحه لها. فأخذت تبكي، ثم قالت لي:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لماذا كل هذه الأفكار المعقّدة التي لاتكفّ عن مراقبتي من خلالها؟

انّ هذه الأفكار هي التي تجعلك تقول لي كلاماً شديد الغرابة يكاد ينم عن الحمق!

لقد كانت تحقد عليّ تقريباً بسبب ذلك.

وأنا كنت أبذل قصارى جهدي كي أعامل زوجتي بكل لطف ممكن. فأنا كنت أحبها، لاشك في ذلك. ولكن لم يكن هذا كل ماهنالك فحسب. اذ أنّ ملاطفتي لها، لو وضعنا جانباً شعور قلبي الحميم، كان لها خلفية أكثر اتساعاً: هي نفس الخلفية التي كانت تختفي وراء الاخلاص الذي اتصفت به العناية التي قدّمتها لحماتي. لقد كان للتصرفين نفس الدافع العميق. كانت زوجتي تبدو سعيدة. ولكنها لم تكن تفهمني، فانّ هذا الشعور الغامض بالحاجة والعجز، الذي كان لديها حيالي، ان لم يكن قد بدا وبرز واضحاً، فانه أيضاً لم تخفّ حدّته أو يزول بأيّ شكل: كان هذا أمراً مؤكداً. فالنساء هنّ هكذا: أن تحببهنّ بحب يشمل البشرية بكاملها، فانّ ذلك لايعنيهنّ بشيء، وقليلاً مايتأثرن به. فهنّ يفضّلن على حب شامل إلى هذه الدرجة، حباً أكثر انتباهاً لهنّ، ومركّزاً عليهنّ وحدهنّ، حتى وان افتقر احياناً إلى الالتزام بمبادىء الأخلاق. وبهذه الناحية، فانّ الخلق النسائي يختلف عن خلقنا.

وذات يوم، قالت لي زوجتي:

- مهما عملنا، فانّ قلب الرجل لايمكن أبداً أن يتطابق باحكام تام مع قلب المرأة!

فأجبت وأنا شارد الذهن:

- بلى، ربما أمكن ذلك: عندما يكون الرجل والمرأة في سن الشباب! لم أقصد أن أكون قاسياً، شريراً... واستغرقت

زوجتي في التفكير، وبدت وكأنها تعود بالذاكرة إلى ماضيها، ونفثت من صدرها تنهيدة خفيفة.

ومنذ ذلك الحين، أخذ يخترق قلبي أحياناً ظل مخيف، كالسهم الأسود. وفي البداية، كان هذا الظل الذي يتسلّط عليّ، يأتيني في كل مرة من الخارج، وكأنه يتسلّل خلسة: فأصاب من جراء ذلك بالدهشة والذهول. ولكن بعد قليل، أخذ قلبي، من تلقاء نفسه، يتجاوب مع ذلك الظل. وأخيراً، كان قلبي يجد في داخله ذلك الظل، دون أن يأتيه شيء من الخارج. فهل كان مختبأً فيه، بالقوة، منذ نفس اليوم الذي جئت فيه إلى هذا العالم؟ أخذت أفكر في ذلك. ومهما كان الأمر، ففي كل مرّة كان ذلك الظل يتسلّط عليّ، كانت تساورني الشكوك فيما اذا كنت لم أصب بالجنون. ولكن لم تراودني فكرة مراجعة أحد الأطباء واطلاعه على كل شيء، ولا اطلاع أيّ كائن كان على ذلك.

ذلك الظل، كان الخطيئة التي يتحمّلها الانسان. والشيء الوحيد الغامض والدفين الذي شعرت به في هذا العالم، هي الخطيئة التي تدمغ الانسان. وهذا الشعور هو الذي جعلني أعتني من كل قلبي بحماتي المريضة. كما أنّ هذا الشعور هو الذي أملى عليّ أن أكون لطيفاً جداً مع زوجتي. وهذا الشعور هو أيضاً الذي كان يجعلني أتمنى أن يجلدني في الشارع كل شخص من المجهولين الذين كنت أمرّ بهم. وبصعودي درجة تلو درجة سلّم هذا التفكير، انما نفس الشعور هو الذي كان يدفعني، وأنا غير مكتف بطلب الجلد بسوط الآخرين، الى الرغبة بأن أجلد، أنا نفسي، بنفسي. بل وإلى أكثر أيضاً من الرغبة بجلد نفسي، إلى الرغبة بتدمير نفسي. كنت أتردّد بالقضاء على نفسي نهائياً وبشكل مفاجىء. ولكني، على الأقل، قرّرت العيش كما لو أنني كنت ميتاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومنذ اليوم الذي اتّخذت فيه هذا القرار، وحتى اليوم الذي بدأت أكتب لك فيه هذه الاعترافات، انقضت أعوام كثيرة. وخلال ذلك، عشنا أنا وزوجتي بانسجام تام، تماماً كما في الأيام الأولى لزواجنا. لم نشعر يوماً بالتعاسة، بل لقد كنا سعداء. كان هنالك فقط ذلك الشيء الخفي الغامض الذي ما انفكّ يحتل على الدوام حيزاً كبيراً في نفسي، والذي كانت تشعر به زوجتي دائماً، دون أن تستطيع أبداً تحديده وادراك كنهه. ولهذا السبب، كنت طيلة الوقت أشعر نحوها بشفقة شديدة.

* * *

- ٥٥ -

رغم أني كنت قد عقدت العزم على العيش كما لو أنني كنت ميتاً، فاني، مع ذلك، كنت أشعر أحياناً أنّ قلبي يستجيب لنداء الحياة الخارجية. وفي الحال، ومن أية جهة كانت، أتاني هذا النداء، كنت أحاول أن أشقّ لي طريقاً نحو الخارج، وأن أخرج من ذاتي. ولكنّ قوة مخيفة، لا أدري من أين تأتي، كانت حينئذ، تمسك قلبي وتسمّره في مكانه. وبعد أن تجمّدني أنا أيضاً، كانت تلك «القوة الخارقة» تقول لي:

- أأنت، تعمل وتتصرّف، وبأيّ حقّ، من فضلك؟

ولدى سماعي هذه الكلمات فقط، كنت أشعر بجسمي يفرغ من محتواه، وكأنّ روحي قد فارقت جسدي. كنت أنهض، وأحاول المشي: كانت «القوّة الخارقة» تشدّد من قبضة مخالبها. كنت أجادل وأتخبط وأصرّ على أسناني، وأثور غاضباً، وأصرخ بملء صوتي:

- ماذا بك، أنت، وما الذي يدفعك لكي تسدي لي الطريق؟

ولكنّ «القوة الخارقة» كانت تقهقه ضاحكة، وتقول: - ماذا بي؟ دعك من الأسئلة! ولاتتصنّع الغباء: فأنت تعرف ذلك جيداً!

ومن جديد، كنت أنهار، وأسقط، فاقد القوى، لاحراك بي. كانت حياتي تتابع مجراها، رتيبة وهادئة، لاتعتريها أية أمواج، لاعالية ولاضعيفة منخفضة، حياة لاتشوبها منعطفات. ولكنّ الصراع العنيف كان مستمراً، دون انقطاع، في اعماقي، بين «القوة الخارقة» وبيني. هذا الأمر، أرجوك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن تفهمه جيداً. كان هذا العجز الدائم يجعلني، أنا، لا أقوى على الصبر، وذلك أكثر مما كان يسببه من نفاذ الصبر لدى زوجتي: وإلى أية درجة، الحقيقة أني لاأستطيع معرفة ذلك. لقد كنت في سجن. وسجن ضيق جداً، لدرجة أني لم يكن بامكاني الاقامة فيه. ولكنه في نفس الوقت، سجن لا أستطيع تحطيم قضبانه. والجهد الوحيد الذي لم يحظّر عليّ مسبقاً، المنفذ الوحيد الذي لم يغلق مسبقاً في وجهي، كان الانتحار: هذا الأمر، كنت أشعر به. سوف تقول لي: ولماذا؟ وتعتريك الدهشة وتحملق بي بعينين واسعتين. ولكنّ تلك «القوة الخارقة» كانت توقفني لو أردت الذهاب إلى أية جهة كانت، وهي تطبق أبداً مخالبها على قلبي تعصره عصراً. والطريق الوحيد الذي تركته لي سالكاً كان طريق الموت. آه لو أني استطعت ألاّ أتحرّك قيد أنملة! ولكنّ مثل هذا السكون وعدم الحركة ليسا من الطبيعة البشرية بشيء. ومهما كان التحرّك الذي يمكن أن أقوم به ضئيلاً، فلم أكن أستطيع أن أفعل ذلك الاّ على طريق الموت.

طريق الموت هذا، وهو الطريق الوحيد الذي أتيح لي، وسمح لي بالسير عليه، سبق لي، مرّتين أو ثلاث مرّات، أني كنت على وشك أن أخطو عليه خطواتي الأولى بكل اصرار وتصميم، مدفوعاً إلى ذلك بما كانت تمليه عليّ الضرورة الحتمية. ولكنّ فكرة تركي لزوجتي وحيدة بلا سند ولا معين، كانت، في كل مرّة تستوقفني. ومن جهة أخرى، هنالك أمر يمكنك أن تدركه بسهولة، وهو أني لم تكن لديّ الجرأة على دفعها إلى الموت معي. وأنا الذي لم أكن قد استطعت حتى ذلك الحين أن أجد القوة للاعتراف لها بشيء، أكان بامكاني تقبّل فكرة التضحية بها تبعاً لقدري ومصيري أنا؟ هل كنت أستطيع أن أقبل انتزاع الحياة منها، أنا بنفسي، وبكل هذه القسوة؟ كان مجرّد التفكير في ذلك، يجعلني أشعر بالبرد الشديد يسري في أوصالي. كان لي قدري، وزوجتي كان لها

قرها. وأن نربط نفسنا، نحن الاثنين، أحدنا بالآخر، كغصنين في حزمة واحدة، ونلقي بهذه الحزمة في النار، اذن لكان في ذلك منتهى القسوة: لم يكن هنالك، لرؤية الأمور، طريقة أخرى.

كنت، في نفس الوقت، أعاود النظر في صورة الاهمال والوحدة، التي كان عليّ أن أترك زوجتي فيها، لو أني قتلت نفسي: وعندئذ، كان ينتابني حزن شديد. لقد قالت لي، عند موت أمها، أنها لم يعد لها أحد في العالم سواي. كانت كلماتها كأنها قد اخترقت أحشائي، وقد ظلّت ذكراها حية في ذاكرتي. ولذلك كنت، في كل مرّة، أتردد كثيراً في مواجهة الموت.

كنت أفكر وأنا أتأمّل الوجه العزيز.

- لكم أحسنت صنعاً بتأجيل ذلك!

وكنت أقنع راضياً بالعيش متحمّلاً نظرات زوجتي التي تنمّ عن القلق الشديد.

واذا أردت أن تفهمني جيداً، فيجب ألاّ يغرب عن بالك لحظة، أنّ هذه كانت حياتي، حتى الآن، وأنّ هذه هي حياتي وحسب. وعند لقائنا في «كاماكورا» كما في الوقت الذي كنا نقوم فيه بالنزهات في ضاحية «طوكيو»، لم تكن حياتي سوى ذلك. كان هنالك، على الدوام، ظل أسود، عالقاً بي، يتبع خطواتي. كان التفكير بزوجتي وحده، هو الذي يجعلني أقبل متابعة السير على طريقي في هذا العالم، جاراً ورائي حياتي مربوطة بطرف رسن. وعندما عدت إلى قريتك بعد أن أنهيت دراستك، لم تكن حياتي أيضاً سوى ذلك. ولا يعني أني كذبت عليك عندما قلت لك أني كنت أنتظرك خلال هذا الخريف.

كنت أعتقد بصدق واخلاص أني سوف أراك ثانية. وان كان قد مرّ الخريف، وانقضى الشتاء، فاني كنت أظن أني سأراك من جديد، عاجلاً أم آجلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن هاهو الأمبراطور يموت في منتصف فصل الصيف. عند ذلك انتابني فجأة شعور بأنّ روح جيل «الميجي»(١) وقد ولدت مع الأمبرطور، فانها ستزول بزواله. وبما أننا، نحن أبناء هذا الجيل، انما من هذه الروح كنا قد نهلنا وتغذّينا، فما هي الجدوى من أن نستمرّ في العيش، بعدئذ وبعد زوالها، كمتخلّفين زال عهدهم؟ كانت هذه الفكرة تسيطر على ذهني. أطلعت زوجتي عليها. فأخذت تضحك، ورفضت أن تأخذ كلامي على محمل الجد. ثم- أيّ فكرة راودتها؟ - قالت لي:

- اذا كانت هذه هي قناعتك، اذن، قبل أن تفارقك، هيا الحق، كالتابع الوفيّ، بسيدك إلى الموت!

وهكذا، كانت تتهكم، بلطف.

* * *

---

(١): «الميجي»: العصر الجديد في اليابان، الذي يبدأ في عام ١٨٦٨، عصر «الحكومة المستنيرة» في عهد الامبراطور «موتسوهيتو» (المترجم)

ولوصف هذا الانتحار، بأنه انتحار بدافع الولاء، استعملت زوجتي كلمة «جونشي» القديمة. كانت هذه الكلمة كأنها منسيّة بالنسبة لي. وقد توارت بين الكلمات التي بطل استعمالها، واستقرّت في أعماق ذاكرتي، حيث كادت تضيع. وقد جعلها مزاح زوجتي تنبعث وتندفع من هناك. فقلت لها:

- نعم، اذا كان بدافع الولاء نحو روح عصر «الميجي»، فأنا مستعد تماماً إلى اقتراف هذا النوع من الانتحار!

وهذا الجواب، لم يكن هو أيضاً، بالتأكيد، سوى مزاحاً. ومع ذلك، كان لديّ، دون مبرّر، انطباع بأني استطعت أن أمنح كلمة «جونشي» هذه، في ذهني، مرّة أخرى، حياة جديدة.

وانقضى شهر تقريباً. وفي ليلة تشييع جنازة الامبراطور، وبينما كنت جالساً في مكتبي، كما هي العادة، سمعت طلقة المدفع التي تعلن أن موكب الجنازة قد غادر لتوّه، القصر. ودوّت تلك الطلقة في أذنيّ، وكأنّها نذير ينعي جيل «الميجي» بكامله. وجاء دليل آخر على موت تلك الروح التي سادت ذلك العهد، كان ذلك هو انتحار الجنرال «نوجي»، الذي قتل نفسه في نفس الدقيقة التي سمع فيها طلقة المدفع ذاتها. وعندما علمت ذلك في اليوم التالي عن طريق نشرة خاصة، تمتمت على الفور شفتاي بصورة عفوية على مسمع من زوجتي:

- انتحار بدافع الولاء!، انتحار بدافع الولاء!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقرأت في الصحف نصّ الرسالة التي تركها الجنرال «نوجي». كان المبرّر الذي أعطاه لموته هو أنه كان عليه أن يكفّر عن غلطة ارتكبها أثناء حرب «كيوشو»، عنما ترك العدوّ ينتزع العلم الذي كان يحمله. وقال أنه منذ ذلك الحين، انما كان يعيش وهو يفكر بالموت. وأخذت أحسب بصورة آلية: لقد حدثت حرب «كيوشو» عام (١٨٧٧)، وكنا في عام (١٩١٢). اذن طيلة خمسة وثلاثين سنة، لم يفكر الجنرال «نوجي» الاّ بالموت. وأخذت أتساءل: ولكن أيهما كان أكثر قسوة بالنسبة له: أهو العذاب طيلة تلك السنين، الخمسة والثلاثين، التي قضاها بالانتظار، أم السيف الذي اخترق أحشاءه بضربة واحدة؟

كان ذلك بعد يومين أو ثلاثة أيام، أن اتخذت القرار بأن أقتل نفسي. وكما أني لا أستطيع أن أفهم كلّ شيء في الأسباب البعيدة لانتحار الجنرال «نوجي»، كذلك فإنك لن تستطيع فهم كل شيء في أسباب انتحاري أنا. هل هذا بسبب اختلاف المفاهيم من جيل إلى آخر؟ لاشك في ذلك. ولكن أيضاً، وربما كان هذا هو الأصح، بسبب اختلاف شبكات الأوعية الحساسة التي نولد معها إلى هذا العالم. وعلى الأقل، فاني، بسبب رغبتي الشديدة بأن أفسّر وأوضح لك هذا الكيان الخفي والعجيب الذي أدعوه ذاتي، أي الـ«أنا» الخاص بي، فقد عملت كل مافي وسعي كي أضع نفسي بالكامل في هذه الاعترافات.

أنا ذاهب تاركاً زوجتي وحيدة. ولكنها على الأقل، بعد غيابي عن هذه الدنيا، لن تعاني من أية متاعب مادية: وكان هذا يشكل بالنسبة لي عزاء كبيراً. وأريد أن أسبّب لها أقل قدر ممكن من الرعب: سوف أقتل نفسي دون أن أدع دمي ينسكب ويسيل هنا وهناك. بل كم كنت أودّ أن أموت دون علمها، كما لو كان خفية وبالسر. وسأقوم بذلك بصورة تجعلها تعتقد أني مت موتاً مفاجئاً، أو خلال نوبة جنون.

هاهي عشرة أيامٍ تنقضي بعد أن قررّت الموت. ولكنك أنت، سوف تعرف أنّ الجانب الأكبر من الوقت أكون قد قضيته في كتابتي لك هذه السيرة الطويلة لحياتي. ولكم فضلّت أن أرويها لك بصوتي، حياً. ولكني بعد أن أنجزت سردها كتابة، بدت لي أكثر وضوحاً، وأنّ هكذا أفضل. وأنا لم أكتبها لتمضية الوقت. كلا. فهذا الماضي الذي صنع مني ما أكون، أنا وحدي الذي أستطيع أن أقدّم منه مجمل التجربة الانسانية التي يتضمّنها. ولذلك فأنا أروي هنا قصة هذا الماضي دون أن يشوبها الكذب. أرجو أن تستطيع هذه الاعترافات مساعدتك، أنت وآخرين غيرك، على معرفة البشرية. لقد أرجأ «وتنابي كازان» العظيم انتحاره ثمانية أيام لكي يرسم لوحته المسمّاة «الوهم»: وقد علمت ذلك منذ عهد قريب. يمكن اعتبار ذلك التصرّف عبثاً لاجدوى منه. ومع ذلك، فانه كان بالنسبة له، مطلباً خاصاً بالقلب، لم يكن بامكانه التهرّب منه. كذلك، فان الدافع لقيامي بهذا الاعتراف، ليس تماماً الوعد الذي قطعته لك. اذ أنّ قسطاً كبيراً من هذا الدافع، نتج عن حاجة دفينة في نفسي دفعتني لكتابته.

هذه الحاجة، ها أنا قد وفّيتها. ولذلك أتوقف هنا.

•

عندما تصلك هذه الرسالة، لن أكون أنا في هذا العالم: سأكون قد متّ منذ زمن طويل. وزوجتي، منذ مايقرب من عشرة أيام عند عمتها الساكنة في «اشيغايا». كانت هذه العمّة مريضة. وكان هنالك كثير من الأعمال يجب القيام بها: وقد أصريّت على أن تقوم زوجتي بمساعدتها. وهكذا فاني كتبت الجزء الأكبر من هذه الرسالة أثناء غيابها. وعندما كانت تعود، من وقت لآخر إلى المنزل، كنت أخفي بسرعة الأوراق المكتوبة.

هذا ماضي حياتي، أطلعتك على كل مافيه، من حسن وسيء، دون أن أخفي منه شيئاً. أقدّمه لك، وبواسطتك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للآخرين. هنالك شخص واحد في العالم لايجب أن يعرف أبداً شيئاً عنه: زوجتي. اذكر ذلك جيداً، أرجوك! فأنا لا أريد أن أقول شيئاً لزوجتي. يجب أن تبقى لحمة ذكرياتها بيضاء، لاتشوبها شائبة. هذه هي رغبتي الأخيرة. اني سأموت ولكنّ زوجتي سوف تعيش. وطالما هي على قيد الحياة، فلا يجب أن يعرف أحد سواك شيئاً عن السر الذي بحت لك به، ولك وحدك. احترم رغبتي:

احتفظ بكل ذلك لنفسك وحدك، دون غيرك، طيلة بقاء زوجتي على قيد الحياة!

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣٠٠٠ ط ١ / ١٩٩٣/١٢

https://telegram.me/maktabatbaghdad